LUTFIYA ALDULAIMI

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة
للرحلة المعاصرة 2016 - 2017

FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

مدني وأهوائي

جولات في مدن العالم

لطفية الدليمي





الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة

للرحلة المعاصرة

2017 - 2016

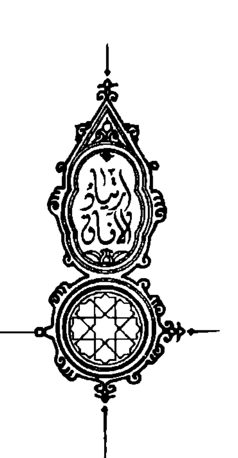


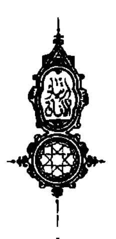
مدني وأهوائي

جولات في مدن العالم

◆

لطفية الدليمي





مدني وأهوائي... جولات في مدن العالم/ رحلات
لطفية الدليمي / مؤلّفة من العراق
الطبعة الأولى، 2017



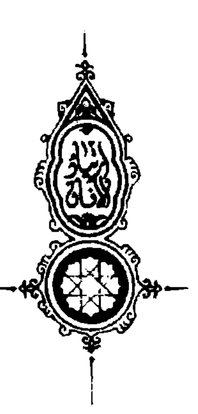


دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480،
الإمارات العربيّة المتّحدة
هاتف: 6447474 2 00971
فاكس: 6449797 2 00971
E-mail: alrihla@gmail.com

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من
جسر سليم سلام - مفرق الجامعة اللبنانية الدولية
LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 - 707891 1 00961
بيروت - لبنان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
تصميم الغلاف: ناصر بخيت / السودان
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

رقم الناشر الدولي: ISBN: 978-614-419-751-6



يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

«سيدات دمشق من أجمل نساء العالم ، لم أر نساء أجمل منهن حضوراً وفتنة ، أنوثة وثقافة ، سيدات دمشقيات حاكمات بأمرهن في البيت والمجتمع ، تشعرك المرأة الشامية بجوهر الحرية وهي تتحدث عن الحب والأدب والتاريخ والغد والعائلة وأطباق الطعام . .» .

نص الرحلة ص38

«المراكبي الذي طاف بنا في زورقه ذي الشراع الأبيض بين الجزيرة وجهات أخرى كان مشغولا بإيصال بعض الحشيشة لزبائن ينتظرونه عند أبواب العوامات المترنحة على سطح النهر ، دعانا للتفرج على عوامة غادرها مستأجروها توا ، وقال بوسعكم استئجارها اذا أحببتم العيش في البحر ، كان يسمي النيل بحرا والقاهرة مصر .»

نص الرحلة ص62

«كيف يحلق المرء في رحلة الروح ويبلغ غاية الصفو كفريد الدين العطار وهو مشدود بألف وشيجة إلى الشهوات ومجاراة القطيع والرهبة من غطرسة الطغاة؟ هذا مارددته مع نفسي وانا أمضي في رحلة برية عبر هضاب إيران وجبالها بدء من «قصر شيرين» وكانت تحف بي طيور العطار وضجة طيور ابن سينا لتحملني على نسيان مأساة «شيرين العاشقة» وأنا أمر بأطلال قصرها .» .

نص الرحلة ص69

«فتحوا باب منزل شكسبير ، تجولنا في غرفه وردهاته مع صرير الأرضيات الخشبية ورائحة التربنتاين والإضاءة الخافتة ، وما أدهشني أن سرير شكسبير كان صغيرا جدا حتى لكأنه يصلح لصبي في العاشرة من عمره ، ويبدو أنه خلال الستمائة عام الماضية قد تغيرت حجوم البشر وسحناتهم ومصائرهم وأحلامهم أيضا ، وكان لابد ان نشتري زهورا لنضعها على قبر شكسبير .» .

نص الرحلة ص108

استهلال

تأسست جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة ٢٠٠٣ وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات ، وهو ميدان خطير ومهمل ، وقد تأسست الجائزة إيماناً من «المركز العربي للأدب الجغرافي -ارتياد الآفاق» و«دار السويدي» بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز ، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري ، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية ، وإخراجه إلى النور ، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان ، والسفر فيه ، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر ، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي ، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات . مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم ، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى ، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن «الآخر» في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم وتصوراتهم الخاصة بهم عن

الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا .

في دورتها هذه كما في دوراتها السابقة تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة ، من جهة ، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر ، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة .

***

مكتبة عربية لأدب الرحلة ، من كان يصدق؟ موسيقى لا تهدأ ، وصخب لا ينتهي ، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة ، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات ، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير ، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش . مرايا تتعاكس ، بلدان قريبة وبعيدة ، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة . وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها ، بل يستغرق في ملامحها ، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها . . . تلك هي الرحلة ، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير ، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها . هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال ، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان .

***

بدأنا برحلة ، وقلنا إننا سنختتم معاً مائة رحلة ، أما وقد أصبحت الكتب بالمئات ودخل المشروع وجائزته في النصف الثاني من العقد الثاني فإنني لأحيي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة ، فرسانا امتطوا صهوات الجياد ، واقتحموا غمار الموج ، سالكين دروب الدهشة والخطر ؛ وأتطلع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحالة المعاصرين ، الذين واكبوا مشروع «ارتياد الآفاق» وتألقوا في مسالكه . أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكتب ، وهي تنقلنا بين المدن والبلدان والقارات ، هؤلاء هم غواصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل . إنهم ثروة الأمة من الناظرين في كل جهات الأرض ، وسفراؤها إلى العالم ، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات ، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر بصفته أنا أخرى وشريكا على هذا الكوكب .

في أسواق المدن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطات القطار نمر بألوان من كتيبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر . هذا شيء آخر غير أدب الرحلة ؛ واليوم ، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها ، بل أفردت لها رفوفا خاصة بها .

الرحلة ، كما آلت إليه ، سفر في الأرض وسفر في المخيلة ، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود .

***

تَهْدفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب

الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

***

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صور دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإن أدب الرحلة العربيِّ إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور

النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

***

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة أسست، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات

الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

***

ختاما ، أحيي رحالة من طراز آخر ، أولئك المثقفين المبدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق والعاملين فيه والمتحلقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين ، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها كما يرجع الغواصون باللآلئ ، وسهروا على فك رموزها وتحقيقها وإخراجها إلى النور ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة ما تزال عناوينها تتوالى وسلاسلها تتعدد ، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب أنها ثقافة إنسانية فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه ، ودون رحالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين ، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر .

فهنيئا للقارئ العربي الجاد بهذه المكتبة الجديدة ، وللأجيال التي ستقرؤنا في مقبل الايام .

محمد أحمد السويدي

أبوظبي حزيران/يونيو ٢٠١٦

هذه الرحلة

بلغة أنيقة وفياضة بالشاعرية كتبت هذه اليوميات عن رحلات وجولات قامت بها الكاتبة في عشرات مدن العالم عبر زمن مديد. بعين تفيض بالضوء وقد عكسته صور الجمال الطبيعي والإنساني رأت الكاتبة العالم والتقطت له الصور البديعة فتتبعت تفاصيله وسجلتها مرة في الذاكرة وأخرى في الورق، ودائماً بشغف لا حدود له، فجاءت يومياتها قطعا أدبية بارعة ومرهفة تصور الأماكن والمناظر وتروي عنها ما طبع بجمال الأشياء وجمال الآثار التي تركها البشر وراءهم عبر الأزمنة، لا سيما من كانوا منهم فنانين وكتاب وفلاسفة وجغرافيين ومناضلين وأمراء وعلماء ومبتكرين.

تبدو الكاتبة ميالة إلى وصف يبعث في الأشياء أنوارها الخفية، ويستكشف فيها أبعادها اللامرئية، فتنطق الأمكنة بما تكتنزه من أسرار، وتحدث بما لا تبوح به من أسرار الجمال إلا لعاشق خبير بالجمال، وبالتالي فإن كاتبتنا تحدث عن الأشياء بما لا يحدث به سائح عابر، ولكن بما يمكن أن يرومه مبدع مقيم في عوالم الإبداع ودنيا المعرفة، وقد أصاب ثقافة رفيعة وجعلها ضوءا على دواخله الغنية بالمشاعر والأفكار وقد انطبعت فيها المدن والأمكنة. من هنا نجد الكاتبة تستنطق في المدينة وعند كل زاوية منها زمنا من أزمنة المدينة، وصوتا من أصواتها، وعلما من أعلامها، ومبدعا من مبدعيها، حتى

لتصبح الأمكنة مقرونة بالفن والأدب أكثر منها مقرونة بصناعات أهل السياسة والسيطرة والنجاحات الزائفة . فالجمال هو الحاكم في مدن هذه اليوميات .

والكاتبة لا تبخل على أهل المدن بما فاض في نفسها من حب وإعجاب واحترام للناس الذين تحل في ظهرانيهم ، ووعي بقيمة ما عندهم وجمالهم . فها هن نساء دمشق في نظرها أميرات وملكات أنوثة وثقافة وجمال في كل ما يصدر عنهن ، وها هي الموسيقى في زواج فيغارو توهج الرحلة في بودابست ، وتطلق في نفس الكاتبة مكنوناتها الغامضة وجمالها الآسر . وها هي السوناتات الشيكسبيرية تقود الكاتبة إلى غرفة نوم الشاعر لترى سريره صغيراً اشبه بسرير طفل . تتداعى إلى مخيلتها وذاكرتها وهي ترى النيل صور دجلة ، لكنها تستحضر صورا للقاهرة في الأدب . وتسافر في عوالم الاسكندرية فتستحضر لورنس داريل وإدوار الخراط وابراهيم عبد المجيد . ، فتنعقد المقارنة بين المكان في تحولاته عبر الزمن ، وبين صوره المختلفة في الأدب ، وتضاء للمدينة صور شتى . وفي طهران تنصدم الكاتبة بالتناقضات الإنسانية واختلالف الأحوال بين سكان المدينة ، والتعلق السطح بالحداثة ، ولكنها ترتقي هضبة العشق الصوفي فالعطار وسعدي وجلال الدين وحكايات الحب الخالص تعطر المكان ، وتسبغ عليه جمالا عميقا وظلالا وخيالات مائسة كما الأشجار في الجنان .

يوميات بارعة تعكس ثقافة صاحبتها وذوقها الأدبي الرفيع وشغفها الخاص بالأمكنة ، استحقت عنها جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة .

ارتياد الآفاق

إما أن تستمر إلى النهاية أو لا تحاول على الإطلاق
أوفيد

الخرائط قصائد الجغرافيين وحكايات حبّهم المعلنة في الأطالس، المدن قصائد المخيلة الإنسانية وأناشيد العشق، مدن، مدن تغوينا ونمر في مستحيلاتها ونكون من عشاقها أو صناع حكاياتها، وكل مدينة قصة غواية، وكل خريطة ترنيمة انخطاف، لا حدود تقام بين فيوض الجمال وقصائد الخيال التي تسمّى مدناً، في غفلة من تدابيرنا تحاول المدن اختطافنا أو إقصاءنا أو تعذيبنا وما علينا سوى الوثوق بأحلامنا وحكايات عشقنا والتثبّت من رؤانا، إن صادرتنا المدن أو طاردتنا فنحن في تحدٍّ لإسترداد حريتنا في الحالتين، نقترح خرائط أرواحنا في أقاصي الخطر وفي أحضان المدن الغريبة حين يطاردنا أو يأسرنا المعنى المغاير لحقيقتنا.

ل. د

رحلة البدء
عشق الخرائط ورجل الحلم

كلٌّ منا يعيش حياتين : واحدة في الحلم ، والأخرى تأخذنا إلى القبر

فرناندو بيسوا

١

أفتتنتُ منذ صباي بالكتب والخرائط كافتتان الصغار بالحلوى التي ما احببتها يوما ، تظاهرت ذات يوم بأنني نهر في خارطة أو هضبة خضراء تكسوها أشجار البلوط ، تظاهرت أنني شاطيء بحر تغسل الامواج آثار العابرين عن رماله ، تخيلتني طائر غرنوق أو طائر رخ ، تظاهرت بأنني اميرة من بلاد بابل تاهت في الصحارى وتنتظر الدليل ، سحرتني ألوان الخرائط وتعرجاتها وغموض رموزها : فهي لغة ثانية اتعلمها كل يوم وكانت قصص العشق والأطالس كتبي الأثيرة ، برعت في رسم الخرائط ، كنت أرسمها وأتملى جمالها وأترحّل في الليل العاصف وسط البحار مثل السندباد البحري أو تحت شموس آسيوية على طريق الحرير وعند المعابد الذهبية والباغودات وتماثيل بوذا ، أختلقت بلدانا لم يسمع بها أحد ومدنا أسستها في ممالك لاوجود لها

إلا في مخيلتي وكانت تفيض بالنساء المغويات والعشاق والمتع والسحرة والمشعوذين واللصوص ، وفي رحلات مخيلتي كنت أتلبس طبيعة السحب فأطوف الفضاء وأنظر من الأعالي إلى كائنات الأرض وتنهمر دموعي بغتة على المفازات الظامئة فتروي نبتة شوك ، وكنت أتمثل سجايا النجوم فأكون ضوء في كل مكان ولا مكان ، أقلد النساء اللائي يترحلن على حصان طائر أو يسخّرن الحيتان والفهود وطائر الرخ لمغامراتهن ، وذات رحلة بين أحراش الهند ووديان الياقوت سئمت وحدتي فلا متعة في كشف أو مغامرة دونما مشاركة وحوار من رفيق سفر أو صديق روح أو عاشق وبدأت رحلة الحيرة . .

٢

المسافة بين الطفولة والنضج محتشدة بالخرائط والأحلام والسقطات والحكايات ، مسكونة بهراء الكبار الذين غادرهم الحلم ، كنت أنفصل عن الكبار ، وأقفز في المتاهة ، المسافة ومضة ، المسافة خدعة ، كانت القفزة مجازفة ، وسن الرشد مدينة لم يكتشفها أحد ، رحلة جوانية ، عشق عابر ، وجوه عابرة ، حب مؤلم تنضج على اشتعاله أسماء المدن وخصائص الناس ، سن الرشد أن نطوي الزمن المتسارع ونتلبّث طويلاً في كدر الكبار ، كنت أتمرد على هذا وأعيش عالما داخليا ثرياً بالرؤى وحدي مع عاشق أصنعه حسب أهوائي .

٣

أوصانا المتصوفة أن نزهد بكل شيء لننال كل مستحيل : أرواحنا والأرض والريح والنجوم والزمن ، علّمونا أن نأخذ ما نحب

بقوة الروح لا بثقل المادة ، نتحرر من فتنة الهوى وسطوة الشهوة علينا ، علّمونا أن لا نتملك كي نمضي خفافاً في المتاهة الأرضية ، شبه طيور تمضي أنّى قادتها بصيرة القلب أو خفق الجناح .

أختطف الكرة الأرضية الزرقاء التي صُنعت من معدن ولدائن بديل تخيلاتي عن كوكبنا المبتلي بوحشية البشر ، كرة صقيلة مغوية تباع وتُشرى وتقول لنا نسبية الأحوال والأمداء ، تقرب لنا هيئة أرضنا ودوامات الريح والمحيطات وانعكاسات السُدُم ، توهمنا بأن العالم ملك شهوتنا فنرتعش تيها ومتعة ، لا نتملكها ، بل ندركها بحواسنا فلا نستحوذ عليها ، لا نتشهى ثرواتها بل ثراء كشوفنا حين نتقصّى عوالمها ، لا نريد امتلاك أرض ولا أرصدة ولا كنوزاً تستهوي اللصوص وتحرّض الحُسّاد ، نفوسنا صنو الطبيعة وأخت الريح ورفيقة النبع المستوحد .

أتنزّه ببصري وبصيرتي في عالم قزّمته كرة الأرض المصغرة ، وأرانا نحن الكائنات البشرية العزلاء نتشبث بها ونحاول المكوث المؤبد على جهاتها ، وثمة من يحاول إقصاءنا وإزاحة خطانا عنها ، آخرون ينصبون لنا الكمائن والفخاخ عند نوافذنا وعلى مرمى أحلامنا وحافات الصحارى وحدود اللغات ورعشة القارات أو في لغة الحب أو وعود الجمال .

أتلمّس الكرة لأقرأ أحوالها وأحوالنا ، أرى البعض أشباه ضوارٍ تتصارع لتلتهم كل ما للآخرين وتدمج العناصر بأجسادها النهمة وتتمثل امتلاكها لها حتى أقاصيها .

الأرض الشقية بنا ، الحنون على وجودنا لا تملك أن ترمي بسكانها في العدم ، حنانها الفيزيائي يشفق من تدميرنا ، فتتمسك بأثقالنا

أحياء وبرفاتنا أمواتاً إلا إذا هلكت جاذبيتها وفقدت ثقلها وعندئذ سنتطاير هباءات ضالة في متاهات الكون .

شبه ضرير يتدبّر معرفة العالم لمساً بطريقة بريل ، تمر أناملي على تعرجات وندوب الكرة الأرضية المُقزّمة ، ندوب هي جراح التأريخ المندملة على وجه الأرض ، خنادق التخفي وصدوع الانفصال ، أطوف على أرجاء مُباحة ومديات بلا تحريم ولا محظورات وأتمتع بحريتي الإفتراضية دون ارتياب من أحد في مطار أو حدود .

تعابثني رياح وأعاصير وتيارات بحرية وتزجّ بي في مضائق وتضيّعني بين أرخبيلات وتفتح لي مواضع الدنيا العجيبة المشتهاة ، تبطل كل ممنوع متفق عليه بين مالكي الأمكنة وسادة الأزمنة ، تلغي علامات الحدود عن المشهد الأرضي فأترحّل بين الأقاليم والمدن دون أن يستجوبني أحد عن تأريخ الحزن أو قصص الحب أو سر الفرار ، أجتاز نقاط التفتيش مثل دفقة هواء ، وأطلق ضحكتي فوق المحيطات متكئة على أجراف المرجان ، أعبر المخاضات مع طيور البلشون واللقالق ، وأستقي من ينابيع تتدفق من فوالق الصخر .

بلا بوصلة ولا دليل تهبني خرائط الأرض حقَّ اتخاذ المسار الذي يروق لي ، فأبلغ الأصقاع المجهولة والمدن المحرّمة وبوّابات الزمن ، أعدو في مروج نضرة ، وأندفع في قلب عاصفة تحط بي في أقاليم الضوء ، أقرأ عبير الصنوبر وأرتل خرير النبع وأتهجّى الزهور والجبال وأفك طلاسم المفازات ورجفة الريح وما بين لذائذ الكشوف وترف الحرية يستبد بي التوق إلى مدن مستحيلة ومدن مغوية ومدن من كلمات ومدن من شِعْر ومدن روايات ومدن أوثان ومعابد وأساطير وبغتةً أجدني أستذكر حالتي وأنا رحّالة حقيقية بين المدن ، مدن تلقي إلينا بطُعوم

غوايتها مما وراء البحار والصحارى فأستعيد مروري بتلك المدن التي سأكتب عنها وأنا أهيم وحدي في القطارات والطائرات ونادرا في السفن .

٤

في رحلات صباي تشوقت لصحبة بشر ، أردت رفقة رجل كما تفعل نساء الحكايا ممّن ورثن شهوات آلهة الحب والسلالات العتيقة ، فكان أن أختلقت لي رجلاً يلائم أهواء صباي المتطلّب : جبلته من غبار النجوم وزهور الصبار التي تتفتح مرة واحدة كل عام ، لم أمنحه ملامح مستقرة ، فكانت قسماته تتبدل بتغير الأهواء والأفكار والأسفار ، وهبته سجايا الانسان ومرونة الفهود وحنوّ القطط ورهافة العشاق ، لم أشكل هيأته حسب وصفات النساء حول الرجل المشتهى ، تركت له أن يختار هيأته ويغيرها بتغيرات الزمان ، وعندما أكتمل حضوره المتخيل أسكنته أشواقي وصحبته في رحلاتي وأنا بين أهل وأصدقاء ، لم يكتشف أحد رفيق أحلامي ، كانوا يخالون أنفسهم صُحباً مناسبين لأهوائي وتركتهم في وهمهم عني وعنهم . .

كنت أتيه مع رجُلي المتخيّل محمولة على دروب الأنوثة برياح الشغف ومحفوفة بغموض البساتين وأنين الصفصاف ، تآلفت مع طيفه في الصحو والمنام واستحال رفيقاً حياً يحاورني ويجاورني ويقوم عني بالمهمات الصعبة التي تعجز عنها فتاة نحيلة ، كتوجيه دفة السفينة في بحر هائج ونحن نقصد الجزر الاستوائية أو قيادة قافلة الجمال في سهول تركمانستان ومنغوليا وصحارى إفريقيا ، كنا معا ننبهر أمام صهير البراكين وجداول اللافا الجحيمية ونضحك من طيشنا - طيشي

الصـبيـاني - ولا نأبه إن غطست أقـدامنا في وحل المسـتنقـعـات أو داعبتنا السـلاحف أو وخزتنا أشواك القنافذ أو لدغنا النحل ونحن نبيت في غابة أو كوخ صيادين ، معه كنـت أرى الأرض مفضضة بنور القمر أو تفـيض ذهبـاً في ضوء الشـمس ، ومعـه كـان حفـيف الشجـر يمسي موسيقى سماوية والمطر مزنة نور ، يغدو البحر في صحبته أشد زرقة ورحـابة ويصـبح سـخيـاً بمخلوقـاته وكنوزه ، كنـت أصطاد أفـراس البـحـر الصغيرة والأسماك الشفافة والحبارات وألقيها على الشاطيء لتستحيل كائنات بشرية بهيأت ولغات شتى ، فأعرف آنئذ أنني إستعدت بعض أرواح الغرقى من بين أشداق البحر فنضحك معا من حيلي وألاعيب البنات . .

٥

لّما نضجت قرأت كتاب مسخ الكائنات لـلشاعر الروماني (أوفيد) وتذكرت تلك الإستحالات الغرائبية التي تخللت سنوات صباي وانا أطوف جهات العـالم مع الرجل - الظل قرين أحلامي ، ، اكتشفت أنّ بوسعنا إنتاج تحولاتنا وإعادة تكييف أنفسنا واكتشاف قوانا الخفية فنكون مـانشـاء لحظة نؤمن بما نريد فكنت أصـيـر حورية بحـر عـاشـقـة وصيادة باسلة وقائدة سفينة وغزالة ، وكنت أحيانا أغدو الطير والحوت والغمام لأكون أنا التي أريدها في آخر الأمر .

عرفت الرجل والمدن كحلمين دائمين ، ثم لما أتيحت لي الأسـفـار غـدت المدن حقيقـة مرئيـة ، أفضُّ أسـرارها وأميـزها بروائحـها وألوانهـا فتتفتح فيها أهواء روحي وتشوقات العقل ، إنما لم ينبثق ذلك المحبوب المتخيل من حلمي كما انبثقت المدن ، فقد اختار أن يبقى طيفا نائيا لا

يغادر أحلامي - أو لعلها رغبتي في حمايته من عالمنا الوحشي - فسجنته هناك حتى لا يغادرني إلى أرض البشر ويُقاسي ما ينتظرهم من أهوال وفظاعات .

قلت له : ياصديقي إبق طيفا مكرّماً وفكرة مصانة ورؤيا أحتفي بها فلا تتعرض لاختلال الحياة المحتوم بين رجل وامرأة ولاتتحمل أعباء العيش المتفاقمة ، ولاتعرّض نفسك وتعرّضني لإحتمالات الفقدان كحتمية أرضية ، دعنا نلتقي كطيفين عابرين للأزمنة .

برفقة الطيف واصلت التجوال في العالم ، تشردنا معا ، جعنا وظمئنا وارتوينا وتضافرت أحزاننا واشتبكت مباهجنا ونشواتنا ، هربنا مرارا إما خوفاً من الموت أو ازدراءً لحياة مريعة ، رافقني كالقرين اللامرئي والنص اللامقروء والضمير المتخفّي في وجدان إمرأة تحيا مرّتين وتعيش حياتين : مرة في أحلامها ، وأخرى في أرض الناس ومع بشر إعتياديين وتدفع ثمن الحياة الأرضية المثقلة بالآلام والفقدان وماينتج عنها من خذلان وخيبات ، وتحياها مثل سائرة في نومها لتستفيق بعد دهور ، وتكتشف أننا البشر محض أطياف تتلاقى أفكارها وتتقاطع أو تتناقض وتحيا في برزخ انتظار لما لا يجيء وقد يجيء بعد فوات الأوان . .

مختصرات المدن العظيمة

أعبر القارات عبور اليمام أو مرور السّحب مع رفيق أحلامي اللامرئي ، أرى المدن نوافذ مشرعة ، لا أتحرّى عن مدن الحجارة والمصانع وحشود الأقنان البشرية المرهونة للشقاء ، إنما أستحضرها في إحدى رؤاي عنها ، لا كما يقدّمها لنا وهْمُ الجمال أو قناع التسلط ، بغتةً أجدني رحّالة بين أقوام المدن ، مدن تلقي إلينا بطُعوم غوايتها مما وراء البحار والصحارى بشروط لا قِبَل لنا بها .

ها هما أمامي مدينتان عالميتان تتجه اليهما السياسات والمهاجرون والأحلام : لندن وباريس مدينتا روايات وأشباح عدالة وأحلام حرية ، تبادل إحداهما الأخرى تاريخ الكولونيالية والألم ، وتتعارضان في تفسير الجوهري والعارض ، وتلتقيان في تقنين الجمال : ديكنز وفكتور هوغو ، فيرجينيا وولف ومارغريت دورا ، هيوم وديدرو ، وتبثان فينا وهم الحرية أو ترياق التمرد .

فينّا مدينة الموسيقى ونذر الحروب وقصر شوينبرون وندف الثلج في الربيع وعربات المقانق في الأزقة المضببة والرجال الشغوفين بالصيد والنساء الفارعات شبيهات الميوزات ربّات الوحي يوقعن الخطى على الأرصفة العتيقة بنقرات كعوبهن وهفهفات الأوشحة الملونة ونفحات عطر غوتشي أو شانيل الوور . .

زيوريخ قصيدة كلاسيكية تفيض سحراً ، تعكس مياهها بريق

ذهب البورصات وأرصدة الدول والمافيات وتجّار السلاح . الذهب المنهوب مكنوز في أقبية تمتد تحت مبانيها الكلاسيكية وجسورها وكاتدرائياتها ، تعكس مع الذهب ألوان الفنان بول كلي وملائكته ومدنه الشفافة وظلال الكاتدرائيات على البحيرة والبنوك العظمى . .

بيروت مدينة الآلهة ودوار عبّاد الشمس والوعود العائمة على ضجيج الطوائف وهمهمات الشعر ، بيروت التي لا تتعب من جدل ولا تغيب من الرؤيا إلا لتضيء حلماً ولا تستفيق من الحلم إلا لتصير أسطورة حريتنا العتيقة وسبيل رؤيتنا الملهمة طوال عقود .

إسطنبول قامة بيزنطية تشتعل كحزمة بخور وتغتسل بالتراتيل ورقص الدراويش ، أعبرها من بوسفورها وأضيع في شارع «تقسيم» أو ألوذ بشارع (بغداد) في ضفتها الآسيوية ويعثر عليٌ صوت غريق نسيته سفن المهرّبين في البوسفور .

القاهرة مدينة في قلب مدينة في قلب أخرى تطلق المتع من بؤر التناقض ، طاردة الأهوال والمواجع عند حافات المياه ووصايا الملكات الغارقات والملوك المتوّجين بالنسور والمدائح ، عشّاقها يَرِمون بالوصايا ونساؤها يغوين يوسف من كوى الخرافة ويتندّرن بحكايات الهوى يرسمن بالحنّاء تعاويذ الشهوة على معبد آتون ويلاحقن هزج الثائرين في ساحات الفوضى أو يدخلن متاهات الطرق صحبة شحّاذي نجيب محفوظ .

طهران مدينة الفيروز وبازارات المقايضة والنساء المقدودات من لهب وزعفران تلقي دثار السلطة على الشمس وتفيض وهجات العشق وأهواء الحياة من تحت الشادور ووقسر الوشاح .

مدريد مدينة ألف مقهى ومسرح ومتحف ومئة ألف شجرة كستناء

ومئات الدون كيشوتات ، مدريد حسبها أنّ دون كيشوت يطلُّ من قاعدته الرخامية على أكبر ساحاتها وتحت ظلال أشجار الكستناء العملاقة بينما يقيم سرفانتس في المجلدات الثمينة وأروقة المكتبات ، وتطوف إيقاعات الفلامنغو بين الأزقة والمقاهي الساحرة على أرصفة لها نفحات أندلسية . .

إكتشاف السفر في قطار
من بعقوبة إلى بغداد

أعيش الحياة وأكتبُها . أحبّ القطارات وأهابها ، صافرة واثنتان وأستعيد تلك الضجة التي ارتبطت بأول رحلات الطفولة بين بعقوبة وبغداد ، رحلات سحرية كانت بذرة عشقي للترحل ، بيدي دفتر وقلم وأكتب فيه أسماء الأشياء والمحطات والأشجار وأنا أتنصّت لحوارات المسافرات والمسافرين ، ، قاطع التذاكر بقبعته المائلة وحقيبته المعلقة على كتفه يقرض التذاكر بالمقراض ويمنّ على المسافرين بشرعية البطاقة المقضومة ، صغيرة كنت بالكاد أستطيع قراءة اللافتات وأسماء المحطات والوجوه التي تعدو بجوار القطار مثل حلم هارب ، المسافرات بين ريفيات متلفّعات بعباءات صوف وحرير وبين نساء مدن متعلمات يبهرنني بملابسهن الجميلة المنقوشة بطبعات ورود كبيرة والفساتين مزمومة عند خصورهنّ الرهيفة بأحزمة ، شعورهن المجعدة تشبه شعر الست زكية معلمتي المفضلة ، كنت في الصف الأول أرتدي ثوباً تزين أطرافه الكشاكش وعلى صدره تطريز بغرزة عش النحل ، ولي ضفيرتان مربوطتان بشريطين أزرقين ، حولي عشرات السيدات يشبهن الست زكية التي جعلتها مثالا للنساء ، فهي أول معلمة جميلة بين حشد من المعلّمات المسنّات والقبيحات القاسيات . .

أدوخ قليلا في القطار ، تقشر أمي برتقالة وتطعمني فصوصها

لتجنبني الدوار ، أغمض عيني ، أنصت لصوت العجلات ، أنصت لثرثرة النساء ، توقظني ضحكة إمرأة جميلة وهي تصغي لحديث زوجها ، أفتح عيني فيهرب النخل وشجرالتوت والصفصاف واليوكالبتوس والحقول الخضراء وقطعان الماشية وبقايا القرى الآفلة على مر الزمن المتعجل مثلما تفعل المشاهد خارج القطارات عابرة القارات . .

جرّبت أنواع القطارات وأنا وحيدة مستوحشة وقد غادرني فضول الطفولة ووجدتني رهن حاضر مخيف يتكثف فيه إحساس مريع بتبدّد الأمكنة والناس والذكريات ، كان القطار ينتصر على المسافات ويسرقني من قطار الطفولة ورائحة أمي وطعم البرتقال والنساء شبيهات الست زكية فهنا نساء لامباليات عابسات يضعن سماعات الموسيقى في آذانهن أو يقرأن كتاباً أو يخفين عيونهنّ وراء نظّارات قاتمة ، أغمض عينيّ فأحلق فوق القطار والزمن وتخطفني نشوة ضوئية تماثل ما تفعله الموسيقى وهي تجمدنا في اللحظة المفارقة وتفجر أعمق مشاعرنا وتلقي بنا في المتاهة ، كلُّ القطارات التي مررت بها كانت تقتلعني من مألوف ماعرفت وتضللني في المحطات الفخمة شبيهة القلاع ودور الأوبرا ، تنقذني صورة راسخة متواضعة لمحطة قطار بعقوبة الصغيرة بمصاطبها الخشبية اللامعة ورائحة زيت التربنتين الذي صقلوا به شرائح خشبها الناعمة . كانت المحطة جميلة جدا فمنها كنت أنطلق في متاهات أحلامي : كنت أعشق حديقتها المنظمة المزدهرة بالورد الجوري وشجيرات الدفلى المتوهجة بينما كانت أشجار اليوكالبتوس ترسل اشعاعاً من عبير الكافور ، بائع شعر البنات ينادي على بضاعته الوردية ، وفي القطار يطوف بائع ساندويتشات البيض المسلوق والكعك ويمر بين العربات حاملاً سلته المجدولة من خوص النخيل ، تهيمن على

ذاكرتي رائحة السّمسم وأسمع صوت تهشم حبوبه الشهية تحت أسناني ويغمرني مذاقه الزيتي بالمتعة .

أنفض عني الأسى ووحشة الرحلة وأعترف لنفسي : لقد علّمتني القطارات عن العالم والبشر كما علّمتني الكتب العظيمة فالقطار كتاب يتجدد في كل رحلة ويهبنا قصصاً ممتعة كل مرة .

القطار علاجاً للوحشة

على الضد مما أعانيه من وحشة وأنا اسافر وحدي في القطارات الأوروبية بعد أن يئست من رجل الحلم فصار يتوارى بين قسوة الأحداث وأيام التشرد ، كان ثمة رجال ينتحلون صفة رجل أحلامي ويضعون أقنعة فائضة عن حاجة الحقيقة سرعان ماتتشظّى وتتساقط عن وجوههم المراوغة ، وأضحك من تلك الحيل الصبيانية التي يمارسونها معي .

على الضد من وحدتي في القطار كان الشاعر الفرنسي بيير ريفردي يسافر بالقطارات لعلاج الوحشة معتقداً بأن أقسى العذابات إيلاماً للإنسان تكمن في حرمانه من حرية الحركة في الأمكنة ، فيقول في إحدى قصائده :

«قد نموت من العطش والطموح وقد نموت من البقاء طويلاً في نفس الموضع»

فكان يسافر بالقطار عندما تطبق على قلبه مخالب الوحدة والوحشة فيشعر بالحاجة إلى إنعاش روحه برؤية مشهد خارجي فسيح يحرره من زنزانة الرتابة والضجر اليومي ويمضي إلى الريف هرباً من المدينة القاسية التي خيبت آماله ، وفي القطار البطيء ينطلق خياله مع مشاهد الغابات والقلاع والأنهار ويدوّن بعض قصائده وهو مستأنس

بضحكات النساء المغوية وأحاديث المسافرين المرحة في عربة القطار . .

ولكن يا للخيبة! فعند الوصول إلى الريف لا يجد أحداً في انتظاره على رصيف المحطة وليس من رفيقة أو حبيبة تؤنس وحدته في الريف ، تنهمر عليه الأحزان وتتضاعف وحشته وهو يجوب الأزقة الموحشة مغمورا بعبير الخزامى وظلال أشجار الجوز ، ليعود بالقطار التالي إلى المدينة الصاخبة متمتعاً برفقة الغرباء ورؤية النساء الفاتنات المسافرات في أبهى أزيائهن وزينتهن .

يسرد القطار بعضاً من قصة الزمان والمكان مثلما يفعل الروائي الذي يملأ الزمن بالأحداث والشخوص والمفاجآت ، يكثف الزمن ويحفظه لنا لنستهلكه في التقمص والتذكر والأحلام ونحن ننغمر بقراءة الرواية فنكون في زمنين مختلفين في اللحظة ذاتها وعندما نكون في الطائرة والقطار نستهلك زمننا بطريقة أسرع مما لو كنا على الأرض وتختلف سرعة استهلاكنا للزمان والمكان باختلاف ما يسرده لنا القطار العادي والقطار السريع الذي يسير بسرعة ٤٠٠ كيلومتر في الساعة ويجنبنا الإنتظار في المطارات وفحص الأمتعة وتدقيق الجوازات .

سافرت بالقطار السريع بين باريس وغرينوبل جنوب شرق فرنسا وهي المدينة التي تقع تحت ذرى جبل «فيركور» معقل المقاومة الفرنسية ضد الإحتلال النازي ومن إسم هذا الجبل استعار الشاعر «جان بروليه» إسمه الأدبي «فيركور» عندما نشر روايته القصيرة « صمت البحر» ، كان زمن المقاومة والحرب يقبع وراء الجبل ساكناً ومحنطاً لكنني استحضرته حين سردوا لي مأثرة المقاومة ضد النازية وأيقظوا زمنها وتخيلت نفسي عنصراً في الحكاية بينما كنا نعيش حاضراً حياً تكثف فيه إحساسنا بالزمن وأدركت في وعيي لحظتها معياراً مختلفاً للزمن

الذي نعوم فيه مزهوين بإنتصارنا على المسافات ، فكان إحساسي بالزمن وأنا في القطار السريع أقرب إلى نشوة صوفية تماثل ما تفعله الموسيقى وهي توقظنا على جريان الزمن وتحرّرنا من ضغوط واقعنا وتمنح معنى وقيمة للحظتنا .

القطارات
رحلات عشق وكتابة

عندما كبرت لم أستطع الكتابة في القطارات ، لم أمسك كتابا لأنهمك فيه : كنت أقرأ البشر ، أقرأ كتاب الطبيعة ، أتصفح الغابات والأنهار والسفوح ، أتملى الكاتدرائيات وقصور القرون الوسطى ، أقرأ الحقول والقرى وأشجار الجوز والبحيرات وغسق المساء وأمتّع بصري برؤية الوعول البرية والأوز والقنافذ وهي تعبر الطرقات بين غابة وأخرى ، للكتب أوقاتها وطقوسها في غرفنا وللطبيعة أن لا نخونها بلا مبالاتنا بها ، كتاب الطبيعة مفتوح على عجائبها وجماليات إبداع البشر في المدن فعلام أفرّط بهذه الهبات وأعكف على كتب تقلد الطبيعة وأحوال البشر .

كثير من الكتاب إستهوتهم الكتابة في القطارات البطيئة عتيقة الطراز ، فهي تلهمهم عندما تخترق بهم المديات الشاسعة وتساند المخيلة على اكتناز الصور وتثري البصر وتحفّزُ الموهبة كما يلهمهم وجود النساء الفاتنات المسافرات معهم في عربة واحدة ، فهذا الشاعر الروسي فوزيينسكي يكتب في القطار (ديوان الإغراء) مستلهماً نصّه من حضور الحسناوات المترحلات بثيابهن المغوية وغنجهن ويشرع بكتابة ملحمته الشعرية «المهرة» في إحدى رحلاته ليكملها في رحلة أخرى مع فاتنات أخريات .

لوكليزيو ، الكاتب الفائز بنوبل عام ٢٠٠٨ يقول إنه يحب كثيراً الكتابة في القطارات - قطارات الماضي البطيئة الممتعة ، فكان يستقلُّ قطارات المكسيك العتيقة ويأنس بقرقعة عجلاتها ويكتب على إيقاعها . .

تمنحنا رحلة القطار انفتاحا على التنوع البشري وتيسر لنا التواصل مع أشباهنا وتنسج لعيوننا الدهشة بمفاجآت الأمكنة المترحلة معنا مثلما تكشف لنا عن الاختلاف في سلوك البشر وعاداتهم وتطلعنا على تعدد الثقافات وقبول المختلف في المكان والزمان المحدّدين .

القطارات الأوروبية أسهمت في نشر الحداثة وتعزيز فكرة التحرر التي تفضي إلى الممارسة الديموقراطية ومهدت لها منذ بدء الثورة الصناعية التي إنبثقت من ظلام العصور الوسطى وحروبها لتقيم حضارة التصنيع على هدير المكائن البخارية فتتيح للبشر سرعة التنقل والسفر بين المدن والبلدان في قطارات الفحم والبخار أولا ثم القطارات الكهربائية وقطارات (الماغليف) التي تسير على وسادة هوائية وقطارات التناغم السريعة .

ولكن هل كان بوسع السكك الحديدية أن تكون الوسيلة الحضارية الحاسمة للتدرب على الديموقراطية وقبول المختلف وحوار الثقافات في البلدان التي يفتقر مواطنوها إلى التواصل ويستغرقهم انغلاق الأفكار والتعصب؟ ترى ما الذي كان سيحصل للمنطقة كلها لو أنجز مشروع السكة الحديد لربط العراق ببرلين أوائل القرن العشرين؟ هل كان السفر الميسر إلى أوروبا سيغير من تركيبة وثقافة المجتمع الذي تغلب عليه القيم القبلية والإنغلاق؟ وهل كان لهذا القطار العالمي أن يحقق بعضاً من التواصل بين الثقافات المختلفة وهو الذي سيربط (الباءات الثلاثة :

البصرة - بغداد - برلين) ببعضها؟؟ هل كنا سنرى مجتمعاً متخففاً من ماضيه يحيا الحاضر ويدع التأريخ في المقابر والمتاحف كما يفعل الأوروبيون؟

بين بودابست وفيينا ينطلق بي القطار من محطة كيليتي العريقة لتمرق بمحاذاته جبال وحقول وقرى وغابات وأنا صحبة مسافرين صرب وبوسنيين ورومانيين وتشيك وهنغاريين حوّلت لغاتهم القطار إلى برج بابل وثمة عاشقان لا هوية لهما سوى الحب يتعانقان في بهجة الرحلة المسائية ، وينغم أحد الشباب أغنيته على الغيتار بينما تنهمك فتاة بقراءة الخرائط وتكتب إمرأة على حاسوبها وتتناقش سيدات بثياب فولكلورية مطرّزة مع المفتش حول المحطة القادمة هل هي ستراسبورغ أم فينا؟ ويصمت رجالهن الريفيون الذين يلتهمون ساندويتشات نقانق متبلة بالثوم ، وتبكي إمرأة متوحدة لدى النافذة : ففي القطار تتشابك المصائر وتنشط الأحلام والأحزان ويجري حوار خفيّ بين الثقافات قد يفضي إلى تواصل لاحق بعد بلوغ محطة « فيينا ويستباهن هوف» .

تعرفت إلى أجمل مروج العالم في الريف الإنكليزي وأنا أتنقل في القطارات المؤنسة بين لندن ومانشستر وبرمنغهام وبين لندن وسوانسي في اقليم ويلز وبين لندن ومرفأ برايتون على بحر المانش وبين مانشستر ومدينة بلاك بول ومدينتي كمبريدج وستراتفورد أبون آفون الشكسبيرية .

دمشق يادمشق

بوّابتنا إلى وعي الوجود والترحّل في المدى
أرى عابراً
من الصارخ؟ أهناك أحد يشهد موته؟
أسمع نحيباً! كلا ، لعلها الريح ألقت جسماً
وهي تعبر العتبة
من هناك؟ لكن من يصغي إلي؟ في هذه اللحظة ذاتها أرى عابراً
قطرة ماء تنفصل عن الحجر ، إنها ظل يقتلع قيوده
ها هي المادة تتفتح فجأة ، تلقي أشكالها ،
تجتاح مساحاتها
لا تُلمَس ، كثيفة ولا شكل لها ، تسيل كالحمم ثم تتلاشى
الزمن يمرّ . . . وكأوراق الخريف تتساقط العصور
والساعة هي هي تدق رتيبة لا تتغير

الشاعر السوري (عزمي مورة لي)

دمشق أول مدينة أسافر إليها خارج حدود بلادي ، وهي آخر مدينة يمكن أن يطالها النسيان ، مراراً توقفت عند مغانيها ومواسمها ، وشئت أن أضلل خطاي في أزقتها العتيقة ، أن امضي فيها بلا بوصلة

سوى عطور تأريخها في أسواقها ومغانيها الصيفية ، مراراً تبعت شذا الخوخ والكرز في منعطفات الطرق ، وزواياها المخبأة وراء ألف باب ، كانت المدينة الساحرة تغوي بالتيه والضلال ، وتغوي بالاستسلام لغوايتها ، ثمة صور دمشقية لايمكن أن يتخيلها أحد خارج تقاليدها ، وبعيداً عن أجوائها العجيبة الممتدة حتى أول التاريخ أو آخر انكفاءات التاريخ ، ذات يوم اجتمع في منزلنا ببغداد ضيوف من الأدباء من مصر وسوريا ، كان بينهم الشاعر والمترجم الراحل ممدوح عدوان الذي تحدث عن دمشق كمن يتحدث عن جمال معشوقة متمنعة ، متاحة وصعبة المنال ، محبوبة وقاسية ، أليفة وغريبة ، سيدة زمنها وعاصمة الورد والفراديس المتناثرة على تخومها الجبلية ، امتدّ الحديث عن تأريخها وتقلبات وجودها وانقلابات ساستها ، تحدث ممدوح عدوان عن زمن الاحتلال المغولي الذي اجتاح ارض النهرين وبلاد الشام وترك آثاراً حتى اليوم في أرواحنا وعاداتنا وملامحنا ، قال عدوان مازحا وهوالمعروف بملامحه الآسيوية :

- انا احد احفاد تيمور لنك ، ألا تصدقون؟ حدقوا في هذه الملامح المغولية لتتأكدوا مما أقوله فلعل سلفاً مغوليّاً لي تزوج احدى جداتي الشاميات وانحدرت ملامحه إلي . هذا أمر وارد ، لا نقاء لشعب على هذه الأرض ، كلنا من سلالات هجينة ، كلكم لستم من تدّعون .

دمشق زمن يمضي دون هوادة في مرايا التأريخ ، دمشق تقويم منقوش على الحجر وآخر منقوش على ذاكرات النساء ووشم أجسادهن ، منذ عشرة آلاف عام كانت دمشق حاضرة في الزمن قبل أن تعرف الدنيا عصرها البرونزي ، تأخذنا كل علامة منها إلى الأبدية ، ويشير كل نقش إلى أزل لا يدرك له حدٌ .

أزور ضريح ابن عربي في حي الصالحية على المرتفع ، أهبط إلى حي ركن الدين ، وأمضي إلى قلب دمشق ، كنا ذات مؤتمر للأدباء نتجوّل في سوق الحميدية أنا والراحل فؤاد التكرلي والدكتور محسن الموسوي ، إشترينا شرائط لأغاني فيروز التي كانت تصدح (ع هدير البوسطة) ، توقفت عند بائع زهور واشتريت لي باقة من زنابق دمشق العطرة ، سألني الراحل التكرلي :

- لمن هذه الزهور؟؟
- لي أنا . .
- هل ثمة مناسبة لنشاركك الاحتفاء؟
- لا ، انا أحتفي بنفسي لأنني راضية عنها وفخورة بها ، ، ،

ضحكنا طويلا وصار التكرلي والموسوي يتندران على امرأة تحتفي بنفسها ، عدنا إلى الفندق ، كان هناك الجواهري ووزيرة الثقافة حينها دكتورة نجاح العطار وحنا مينة والشاعران اللبنانيان إلياس لحود وهنري زغيب ، الكل يهذي عشقاً والكل مولعٌ بدمشق .

الفاتنات الدمشقيات

سيدات دمشق من أجمل نساء العالم ، لم أر نساء أجمل منهن حضوراً وفتنة ، أنوثة وثقافة ، سيدات دمشقيات حاكمات بأمرهن في البيت والمجتمع ، تشعرك المرأة الشامية بجوهر الحرية وهي تتحدث عن الحب والأدب والتاريخ والغد والعائلة وأطباق الطعام أيضا ، تحتضنها القصائد والأحلام والوعود والأسرار . لم التق بسيدات فاتنات كسيدات دمشق ، هنّ مشرقات كشموس أرضية بين يدي الزمن ، يعاندن الفناء بفتوة ممتدة ، يتألقن بين ورد الجوري وعطور باريس

وحفيف الحرير والدمقس ، سيدات دمشق يقلن للزمن أن الحياة جميلة وجديرة بالاحتفاء ، الحياة لعبة مثيرة غامضة تتلألأ بين أحياء أبي رمانة وباب توما وشارع بغداد ، تقول الفاتنة الدمشقية للمساء : إنّ الوجود متخم بالوعود وإمكانات الفرح ، تقول أشجار الكينا والحور وهي تستسلم لمعابثة الريح إن الحياة في دمشق إحتفال مقدس ، فلا تدنسوا الأمل بالتردد والخوف .

في بيت الشاعر عزمي مورة لي

عزف الشاعر «عزمي مورة لي» الذي يكتب بالفرنسية موسيقاه الصوفية على العود ، كنت مع بعض ضيوفه في بيته الدمشقي الأنيق هو ورفيقة حياته الشاعرة نادية نصار قبل انفصالهما ، دارت أحاديث شتى عن الأدب والفلسفة وبخاصّة عن الشعر والموسيقى والتصوف ، تواصل العزف فحملتني موسيقاه بعيدا بعيدا وعزلتني عن البشر خارج الزمان والمكان ، وخلتُ لحظتها أنني أحلق قرب ضريح مولانا الرومي في مدينة قونية ، خضت التجربة الأولى التي حلقت فيها بالموسيقى وحملتني إلى عالم فوق واقعي كما حدث ثانية عندما شاهدت أوبرا زوأج فيغارو لموزارت في بودابست يوم نسيت إسمي وزمني ومكاني .

عزمي مورة لي : السوري ذو الجذور التركية المنتسب إلى القسطنطينية مهووس بالفلسفة والموسيقى ومنه استوحيت شخصية فخري توركلي بطل قصتي «موسيقى صوفية» ومن شخصية ناديا نصار الشاعرة استوحيت شخصية سامية النعمان مع اختلاف القصة كلياً عن حياة ومصير الشاعرين .

كانت ناديا تعشق الحياة وتكتب وأهدتني كتابها «خطرات على

شواطيء المعرفة» وكان عزمي ضالعاً في فلسفته العدمية حتى الأقاصي وهو مؤلف كتاب «الوعي والوجود الذي لم يطبع لأسباب يقول عنها عزمي :

كان لابد أن ينشر قبل ثلاثين عاماً ولكن ذلك لم يحدث بسبب ظروف اجتماعية أو مرضية أو عصابية ولم يصدر حتى اليوم .

بعد الانتهاء من العزف يعود مورلي إلى شخصيته العدمية يقول : عقلي يحتوي الزمان والغبار والعدم أنا اللامنتمي لاأجد لي مكاناً في هذا العالم . .

يسائله الحضور أسئلة مسطحة عن نفسه وشعره وعدميته فيقول :

«الحياة تحمل الموت كل آونة حتى في لحظة اللذة المطلقة يكمن العدم ، وهنا الرعب»

بدا لي كائناً صوفياً مستغرقاً في المطلق ، بوهيمي على تخوم الجنون ، فهو يعقب على سؤال الموت : أنا موجود مادمت قد مت ، الموت وجود لامرئي .

عزمي مورة لي والسياب

قصيدة المطر للسياب كانت مثار جدل بين اثنين من الحاضرين حول تأثره بقصيدة

«مازال يهطل المطر» للشاعرة الانكليزية ايديث سيتويل ، وهو موضوع طال الجدل حوله فنهض عزمي إلى مكتبته واستل مظروفا عتيقا وقال : هذه إحدى رسائل السياب لي في سنة ١٩٥٦ يتحدث عن لقاءاتنا ويقول : مازلت أتذكّر الأجراس البلورية وهي تعزف ألحان الميلاد والموت وقد صارا شيئاً واحداً جزء من الأبد ، ويقول في خاتمتها :

«حديثنا وقراءاتي لشعرك وكلماتك جعلتني أثق بنفسي وبأنني سأكون شاعراً ذات يوم . .وأدركت أنّ شعري لايخلو من عمق . . .»

لم أشأ أن أدخل في جدل المتجادلين عن السياب وانتظرت ان تنتهي تعقيباتهم على رسالته التي قرأها عزمي بكاملها ، ففاجأت عزمي بسؤال :

نحن الان في أقدم مدينة حية في العالم ، ماذا تعني لك دمشق؟

ـ بقعة من هذا العالم يمر فيها التأريخ

وأنت ماذا ترى في هذا؟

- أنا أطلّ على التاريخ .

في حوار معه اجرته احدى الصحفيات وبعد انفصاله عن ناديا التي توفيت وحيدة في دار للعجزة ، سألته عن الحب :

الحب لا يظهر في شعرك ، لماذا؟

ـ الحب كلمة مستهلكة والحب الحقيقي نادر كالعبقري ، كحب دانتي لبياتريس وحبها له حين أدخلته الجنة

- أليس في حياتك بياتريس مشابهة؟

ـ لو كان عندي بياتريس وأخذتني إلى باب الجنة فسأتركها وأدخل وحدي .

لدى الباب ودعتنا نادية تحت عريشة الياسمين وأعطت لكل زائر حفنة من ياسمين حديقتها الدمشقية .

من بيروت إلى الأسكندرية
الإبحار في الباخرة اليونانية ثيساليا

لكن الحزن ، الحزن للغاية حين تأتي سفنٌ كبيرة ذات زينة
من مرجان وصوارٍ من أبنوس وأعلامها البيضاء والحمراء
مرفرفة ، محملةً بالكنوز فلا تدخل الميناء لأن كل مافي حمولتها
ممنوع أو لأن الميناء ليس عميقا بمايسمح باستقبالها ، وهكذا
تمضي ريح مؤاتية تملأ أشرعتها الحريرية والشمس تصقل مجد
مقدماتها الذهبية وتبحر بعيداً في هدوء وجلال ، ، ، بعيدا عنا وعن
ميناءنا الضيق إلى الأبد ، ، ، ، ،

قصائد نثر لكافافيس – من الأعمال الكاملة

بيروت مدينة الآلهة ودوار عبّاد الشمس والوعود العائمة على ضجيج الطوائف وهمهمات الشعر ، بيروت مثل سفينة الكنوز تلك التي تحدث عنها كافافيس وغادرت إلى مجاهل البحر لكن بيروت سفينة نسيها النوء والبحر فجنحت إلى جوار الجبل وتقاسم حمولتها ربابنة متربصون وصيادو فرص ، ومشايخ قبائل وطوائف ، هي بيروت التي لا تتعب من جدل ولا تغيب من الرؤيا إلا لتضيء حلماً ولا

تستفيق من الحلم إلا لتصير أسطورة حريتنا العتيقة وسبيل رؤيتنا الملهمة طوال عقود .

الرياح في مرفأ بيروت انثوية ، شبقية ، سماوية أو شيطانية ، تبدأ هيّنة مُداعِبة ثم تتشيطن ، إنها رحلتي الأولى الحقيقية في البحر التي توّجت رحلات الصبا المتخيلة : بعد سفر مرهق دام نحو عشرين ساعة بين بغداد ودمشق ثم بين دمشق وبيروت ها نحن في ميناء بيروت ، السفينة وملاحوها اليونانيون شكلت حدثاً مثيراً مختلفاً عن حلمي السندباديّ القديم ، فهنا حشود من البشر وآلات وسفن عملاقة وقوارب إنقاذ وشرطة مواني‌ء ومصيرك مرتبط بمصائر أخرى لاتعرف أصحابها . .

رحلة مع العائلة هي رحلة متعقلة ينقصها الجموح والمجازفات وينصاع الفرد فيها لما تقرره مصلحة المجموع ، إذن هي رحلة فوق سطح الأشياء العابرة ، والتنزه كمثل السائحين الغرباء بين مدن يلتقطون فيها صورا تثبت مرورهم بالمدن والآثار التي لطالما أغوتهم بها المطبوعات السياحية . .

ثمة موسيقى تنبعث من المجهول والبواخر تطلق صفاراتها لتمتزج بصياح الملاحين وضجة محركات قوارب الصيد والتهريب ، البحر بزرقة الحبر ورائحة الموج كالدموع ، والمرأة المستوحدة التي غادرت أحلامها ترتدي بنطلوناً أبيض وقميصاً أزرق غامقاً له حافات بيضاء وحمراء تشبّهاً بملابس البحارة ، وَالريح المتشيطنة تهيج الصداع والدوار ، ثمة ريح مختلفة ، غير تلك التي تلهم الخيال ، الرياح وحركاتها تغير الوان البحر ، في لحظة ما يصير البحر نفسه ويتعرى وعندما يتعرى البحر يمكنني أن أتخيل ماأشاء : حضارات غارقة وقصوراً من بلور ، البحر

مرقد التيارات الغامضة والملاحم المنسية وغراميات حوريات البحر مع البحارة التائهين . .

البحر ليس النهر : إنه ظل السماء الأزرق ، هبط ذات أعجوبة وعانق الأرض ولم يغادرها ، يالها من رحلة في متاهة زرقتين : البحر والسماء ، أزالت هذه الفكرة الطارئة مخاوفي من لجج الماء - أنا التي غرقت صغيرة في جدول بستان ضحل وأوشكت على الموت في الماء - ، رهبة الماء اللامتناهي تهيج مخاوفي ، نصحوني أن أبتلع أقراصاً تمنع دوار البحر قبل ساعة من الإبحار ، أطلقت السفينة ثيساليا صفارتها الجوفاء مرتين ، وماج الماء من حولها واضطربت الطحالب والفواكه العطنة وبقع الزيت الطافية ، كنت أقف عند السياج وأنظر إلى بيروت التي تكتمل وتزدهر في انكشافها على الشاطىء والبحر كحورية غاوية ، بيروت مدينة الآلهة ودوار عبّاد الشمس والوعود العائمة على ضجيج الطوائف وهمهمات الشعر ، المدينة التي لا تتعب من جدل ولا تغيب من الرؤيا إلا لتضيء حلماً ولا تستفيق من الحلم إلا لتصير أسطورة حريتنا العتيقة وسبيل رؤيتنا الملهمة طوال عقود . .

ما أن غابت بيروت عن ناظري حتى تلألأ البحر تحت الشمس واصطفقت الأمواج وتعالى الزبد ، ودارت بي الدنيا وتمكّن مني دوار البحر وغثيانه ، هبطت إلى القمرة ، قال أحد الملاحين عليك أن ترقدي دون أن تتحركي في السرير ، كوني كتمثال ساكن لتقاومي جنون الموج ، لكن السرير كان يتأرجح مع اضطراب الموج ، أحضروا لي طبقاً من جبنة الفيتا اليونانية المالحة وشرائح ليمون لتحول دون غثياني ودوار الرأس ، لم تنفع جميع الإجراءات لايقاف دوار البحر ، لزمت قمرتي بينما كان الجميع يرقصون أو يسبحون في الحوض على سطح السفينة

أو يتشمسون أو يقرأون ، عندما سكن الموج ، تحاملت على ضعفي وصعدت إلى السطح بعد إثنتي عشرة ساعة في عرض المتوسط ولن نبلغ الاسكندرية إلآ بعد اثنتي عشرة ساعة أخرى ، كان صحبي والآخرون منشغلين بحوارات عن أسعار الرحلات إلى صقلية وجنوب فرنسا ، أما أنا فقد انشغلت عنهم بالبحر الذي سكن قليلاً ومنحني فرصة أن أحبه أكثر . . .

هذا البحرالجليل الذي سأحبّه في تونس وايران والمغرب واسبانيا وجزر الكناري ، مثلما عشقته في اللاذقية والاسكندرونة ومرسيه وطرابلس وصيدا وبيروت ، مثلما سأحبه أكثر وهو يحتضن قبرص بذراعين من عشق وحنان ، البحر المتوسط ليس كأي بحر ، المتوسط جسد الحضارات ، لقاح الشعر ، سرّة الثقافات الأولية المبكرة في اليونان وكريت وحضارة الفينيقيين ، من شطآنه أشرقت شموس حضارات عدة وغدت مرجعيات لكل ثقافة في عصرنا والعصور السالفة ، هو البحر الذي تجتمع على امتداده ثلاث قارات تمتد ظلاله إلينا ونبادله بشمس ورياح ، ويختلط مصير المتوسط بمصائرنا فما يحدث في القاهرة وتونس يعكس ظلاله على بغداد بأسرع مما يتوقع النوء ، يعجننا بمصير اليونان فالأغريق كمثل العرب الحالمين بما تهاوى من عصور مجدهم ، بحرهم وبحرنا أسطورة الماء ووطن الحوريات وبوسايدون إله البحر ، بيت الغرقى ومرآة أحلامهم الذائبة في الملح . .

ها أنا المرأة التي قامت من دوارها هشة ونحيلة وصعدت إلى سطح السفينة ثيساليا ، كان الليل ازرق أسود مخيفاً والنجوم تتهاوى في حضن البحر ، البحار تطلق في قلوبنا غواية الهروب الكبير والرحلات التي بلا نهايات سواء كان المغامر إمرأة من أرض سومر أو كان شاعراً

إغريقياً ، أو نحاتاً فينيقياً أو مغامراً مصرياً أو أي مغامر ركب البحر وبحث عن سرّه وسر الكون ، البحر المتوسط بلورة زرقاء جمعت إشعاع الحضارات التي تشكلت على جانبيه ونشرت ضوءها في العالم ، رسم الإدريسي بخريطته وأحلامه القرطبية شطآن المتوسط الذي صار مختبراً للتعرف على أساطير البشرية وجذورها الممتدة إلى أزل العصور . . أين أهرب وانا وسط البحر؟؟ سألت أحد نوتية السفينة ، الجميع يقول لي ، قاومي دوار البحر وشاركينا رحلة العبور من قارة إلى أخرى .

الاسكندرية وغرفة الغانية اليونانية ليديا

من يريد إنعاش روحه ، عليه أن يتخلى عن الوقار والخضوع سيراعي القوانين لكنه سينتهك معظمها ، سيتخلى عن القواعد والعادات ،

كافافيس من قصيدة «إنتعاش»

. . . .

. . . .

نشأت معتادا على الإسكندرية ، ومن المحتمل تماماً أنني حتى إذا ماكنت ثرياً فإنني سأبقى هنا ، لكنها رغم ذلك تعيقني ، يالها من إعاقة وياله من عبء ، هي المدينة الصغيرة وأي غياب للحرية .

سأقيم هنا (وبعدها من جديد فلست متأكداً تماما ما إذا كنت سأبقى) لأنها تشبه وطنا لأنها مرتبطة بذكريات حياتي ، ومع ذلك كم هي ضرورية لرجل مثلي-شديد الخصوصية - المدينة الكبيرة لندن على سبيل المثال .

قسطنطين كفافيس «ملاحظات عن الشعرية والأخلاق»

إستقبلتنا صديقتنا ماريان زوجة صديقنا العراقي في ميناء الاسكندرية ، كان لابد أن نرتاح بعض الوقت في منزل أهلها الواقع في حي (كامب شيزار) لنبحث عن شقة قريبة من البحر . عائلة ماريان

عائلة كوسموبوليتانية حقيقية : والدتها مسيحية لبنانية مارونية ووالدها مسلم إسكندراني شافعي ، ماريان اللطيفة جمعت أفضل مالدى والديها من سجايا ولطف ومرح وتسامح ، زوجها عراقي ليبرالي من بابل ، شقيقها يوسف الأنيق المتظرف موظف البنك متزوج من صوفي الجميلة الرقيقة وهي يهودية من أصل أسباني وإيطالي ، بين هؤلاء الأصدقاء الرائعين أمضينا سهرة ممتعة ، كان التعايش الفذّ بين هذه الخلطة الانسانية مثار اعجابي ، شقتهم القريبة من البحر تفوح بروائح الأطباق اللبنانية والأسبانية والعراقية والمصرية ، وتهفهف ستائرها الرقيقة المذيلة بالدانتيلا البيضاء يدوية الصنع وتنشر تلك النكهات في الزقاق الضيق مقتحمة نوافذ الشقق المقابلة ، تمرُّ عربات الباعة الجوالين فتشتري والدة ماريان حاجاتها بإنزال سلة تضع فيها النقود فيملأها البائع بالخضار : ملوخية وقلقاس وبطاطا وطماطة وبعض حزم الفجل والجرجير ، رافقتنا ماريان صباحاً للبحث عن شقة قريبة من بيتهم ولا تبعد كثيراً عن البحر ، قصدنا سمساراً في مكتب تأجير العقارات ، قال الرجل «لديّ غرفة لقطة قريبة من البحر ولها بلكونة مطلة على الكورنيش ستعجبكم ولي الحلاوة ، غرفة فاخرة تليق بشهر عسل!» ، قال «إنتو أكيد حا تقضوا النّهار على البلاج أو تنزلوا البحر في فلوكة ، أو تروحوا قصرالمنتزه وحدائق أنطونيادس ، والا تروحوا قلعة قايتباي ومسجد سيدي المرسي أبو العباس ، وتشوفوا كمان فنار الاسكندرية وأنا حاضر أجيب لكم التاكسي لغاية باب العمارة ، وأكيد ماترجعوش إلا بعد المغرب!» لم ننتبه إلى مضمون عباراته الأخيرة ، رافقنا في مصعد عتيق ذي باب حديدي مشبك يرسل أنيناً مخيفاً ، وترجّلنا في الطابق الثالث : فتح باب الشقة فإذا هي مدخل صغير يؤدي إلى

صالون وغرفة واحدة ومرافقها ، ولكن أية غرفة؟؟ كانت هناك سيدة يونانية مسنة حياها الرجل :

- كالميرا مدام باستيريس . .

- كالميرا مورسي . .

فتحت مدام باستيريس باب الغرفة التي فاحت منها رائحة عطور رخيصة ورطوبة بحرية مالحة ، وجدنا أنفسنا أمام مشهد مستعار من ديكور يقدمه المخرجون كأنموذج تقليدي للمواخير ومقاصير العاهرات : صور إيروتيكية تحتل الجدران إلى جوار أيقونات دينية ، كل شيء باللون الأحمر ، الستائر المخملية المحملة بالغبار ، موسلين الظلة المنسدلة من السقف على جانبي السرير ، مظلّات المصابيح وحوافها التي من دانتيل أحمر منسول ، أغطية السّرير والوسائد المزمومة ، وحول السرير وفي السقف عدد من المرايا تضاعف اشتعال اللون الأحمر وكأننا في أتون حريق .

كانت بقايا من الجالية اليونانية لاتزال تعيش في الاسكندرية ، منهم مدرّسو لغة الإغريق وخياطون وصاغة وراقصات ومغنيات وحلاقون وبائعات هوى .

قال الرجل :

- الشقة لكم منذ المساء حتى عودة ليديا من عملها في النادي الليليّ ، تسلمون المفتاح لمدام باستيريس . .

نخستُ ماريان في ذراعها : تكلمي ، ماهذا؟

قالت له ماريان : دي غرفة ومنافعها مش شقة ، وبعدين إنت بتهزر معانا والا إيه؟

كنا مبهوتين إزاء المشهد اللامتوقع ، أن نتناوب الاقامة في شقة

رطبة مع غانية يونانية ونخرج نهاراً لدى عودتها من عملها الليلي . .

خرجت علينا ليديا وهي في برنس الحمام ، فتاة جذابة في أوائل العشرينيات من عمرها نحيلة ذات بشرة زيتونية لوحتها الشمس ، وشرعت تنشف شعرها الأشقر المجعد بمنشفة بيضاء ، إسترخت على كرسي شيزلونغ وكشفت عن ساقيها وأشعلت سيجارة وكأنها تمثل دور غواية لإستدراج الجمهور المتوفر أمامها ، وقالت للمدام :

-ألاتحضرين القهوة للضيوف؟

قالت ماريان : مش عاوزين قهوة ، يللا بينا ياجماعة . .دي مهزلة

نظرت ماريان إلى السّمسار بحدة وغضب وقالت :

- يفتح الله ياخويا ، عاوزين شقة محترمة ياراجل ، إنت إبن بلد وتعرف الأصول ، أنت شايفنا وش كدة؟

ضحكت ليديا ساخرة وعلقت بمصرية مكسرة : شقتنا مخترمة مدام . . دي أخسن شقة مفروشة في كامب شيزار كلها .

بعد معاينات عدة وزيارة بنسيونات شبيهة بنسيون «ميرا مار» الذي خلّده نجيب محفوظ حظينا بشقة أنيقة سافر أصحابها في عطلة صيفية إلى إيطاليا وتبعد نحو خمسين متراً عن البحر وإنتقلنا إليها .

كان شارع الكورنيش في كامب شيزار وعلى امتداد الواجهة البحرية مُجمعاً للمسارح والملاهي الليلية والمراقص والحانات التحت أرضية والمقاهي ، تزدحم على الأرصفة بائعات الهوى المتسكعات والسماسرة والراقصات والمغنين الشعبيين ، وبعض العازفين وباعة السمك المقلي والذرة المشوية والترمس ، ، ثمة صالونات تجميل مؤهلة لتصنيع بائعات الهوى تدخلها مجموعة من خادمات الشقق ومنظفات الفنادق بثيابهن المتواضعة وشعرهن المجعد المنفوش ليخرجن

بعد استبدال ملابسهنّ الرثة بثياب مكشوفة من أنسجة لامعة لتتوهج تحت أضواء الشارع وقد وضعن الباروكات والماكياج الصاخب وارتدين أحذية بكعوب عالية لينطلقن في عملهن الليلي على الأرصفة أو في ملاهي الشاطيء..

الفرقة القومية المصرية كانت تقدم مسرحية «كوبري الناموس» على مسرح (كامب شيزار) من تأليف سعد الدين وهبة وبطولة سميحة أيوب وإخراج سعد أردش، اشترينا البطاقات وإنتظرنا في استراحة المسرح حتى موعد رفع الستار، يقف قربنا سعد الدين وهبة وسعد أردش وسميحة أيوب، حيّيناهم ورحّبوا بنا، كانوا يناقشون أمراً ما يخصُّ إخراج أحد المشاهد وبدا سعد أردش متوتراً وهو يتحدث إلى سعد الدين وهبة، وترتفع أصواتهم وضحكاتهم، بينما كان سعد الدين وهبة يختلس النظر إلينا بنوع من الإستعراض الذكوري البائس غير آبه لوجود زوجته السيدة سميحة معه.

الاسكندرية هي بقايا المدينة الهجينة في نهاية الستينيات، الأحياء العتيقة التي غادرها معظم سكانها من الايطاليين واليونانيين قد تحولت إلى عالم مختلف تطغى عليه تقاليد الريف في قلب المدينة الكوسموبوليتانية التي كانت تعتاش على هذا الخليط العجيب من البشر وتقدم لهم تنازلاتها من أجل بقائها وبقائهم، أهل الموانئ تتنوع تجارتهم بين السياسة والمال والنساء والفن، ظاهر المدينة السياحي المعلن يحتمي بتاريخ باهر يعود إلى عصر التأسيس. قدم لورنس داريل رؤيته الخاصة في رباعيته الشهيرة - رباعية الاسكندرية بأجزائها الأربعة -: جوستين، ماونت اوليف، كليا، بلثازار معتمدا حسب تصريحاته فكرة النظرية النسبية لانشتاين، فهو يرى أن الناس

والاحداث يبدون مختلفين حسب زوايا النظر اليهم وفي ازمنة متباينة ، لكن أدباء مصر ردوا على الرباعية بأسكندرية أخرى مختلفة كما يراها ادور الخراط في روايته «ترابها زعفران» وأثبت بذلك وجهة نظر داريل عن اختلاف الاحداث والناس حسب زاوية النظر اليهم في أزمنة مختلفة وكذلك فعل ابراهيم عبد المجيد في روايته «لاأحد ينام في الاسكندرية» على ان اسكندرية داريل تبدو مختلفة تماما لأنها مثل جوهرة ذات وجوه متعددة تشع ألواناً شتى كلما عرضتها للضوء أو تعمقت في مزاجها الوجودي من وجهة نظر صائغ بريطاني مولع بالغموض والرموز وكشف العاهات النفسية والمكبوتات في الشخصية العربية والأجنبية وهي تمتزج في مصهر المدينة الكبرى ، أما اسكندرية يوسف شاهين فهي اكثر الروايات حضوراً وامتلاءً بالتناقضات والتفاصيل البيئية للطبقة المتوسطة المصرية : إسكندرية ليه ، إسكندرية كمان وكمان وكأنها الصورة المفتتة والمتشظية لإسكندرية لورنس داريل .

مكتبة الإسكندرية

نهوض العقل: هيباتيا الاسكندرانية

ليس ثمة مايؤكد أنّ الاسكندر مؤسس الاسكندرية هو من وضع نواة مكتبتها الشهيرة ، فالأرجح أن صاحب فكرتها هو حاكمها بطليموس الأول الذي كان مولعاً بالعلوم والفلسفة وقد طلب من مستشاره اليوناني «ديميتريوس الفاليري» ان يستقدم الكتب الثمينة التي تمثل خلاصات الفكرالإغريقي من أثينا لتكون نواة لمكتبة عالمية تشرق من البحر المتوسط على العالم كله .

تثير قصة الفيلسوفة «هيباتيا « تأريخ المكتبة وموضوع الفلسفة والفكر الحر وموقف السلطة المسيحية الصاعدة منهما حيث كانت ذكورية الفلسفة الإغريقية والرومانية التي تحكم الاسكندرية في أوج صعودها وهيمنت طوال عصور لاحقة على الفكر الغربي والعلوم الطبيعية وَبخاصة افكار أرسطو عن العلم . .

هيباتيا أوّل فيلسوفة وفلكية وعالمة رياضيات وهي ابنة الفيلسوف ثيون عاشت في القرن الرابع الميلادي ويرجح ان والدها الفلكي كان أحد أمناء مكتبة الاسكندرية ، ويجدر بنا الانتباه إلى أن مدة ثلاثمائة وخمسين عاماً من صعود الدين المسيحي أدت إلى نشوء فكر حر يناقش أساسيات الايمان والالوهية والوجود مثلما حدث في القرن الرابع الهجري عندما ارتقى التعليم والترجمة عن اليونانية فنشطت

الحركات الفكرية المهمة واشتد تأثيرها كفرقة المعتزلة التي يعود أول ظهورها إلى القرن الهجري الثاني على يد واصل بن عطاء ، وهي الفرقة التي كسرت الجمود الناتج عن اعتماد النصوص وحدها دون اشتغال للعقل حتى اصبح للعقل دوره المهم في تلك الحقبة التنويرية . .

كانت الاسكندرية تعيش عصرها الذهبي في احتضانها للعلم والمعرفة وتضم في مكتبتها العظيمة اكاديمية للعلوم والفلسفة فنشأت الفتاة الجميلة بين المخطوطات والحوارات والأجواء الفلسفية ، وكانت تواقة للمعرفة وطرح الأسئلة في وسط متناحر يجتمع فيه الوثنيون الرومان واليهود والمسيحيون الذين أتاحت لهم السلطة الرومانية أخيرا ممارسة عقيدتهم وطقوسهم . كانت هيباتيا تراقب الكون والاجرام السماوية وتتساءل عن طبيعة الكون والوجود ولما لم تشفِ شغفها الاجابات الجاهزة عن الكون سافرت للدراسة في روما واثينا وتأثرت بفلسفة افلاطون وارسطو ثم عادت إلى الاسكندرية لتقوم بتدريس الرياضيات والفلك والفلسفة ، وكانت بارعة في طرح تساؤلاتها ومعارضتها للإيمان المجرد ، وانضم إلى صفوفها عدد كبير من التلاميذ المسيحيين والأجانب القادمين من جهات العالم ، وأثارت هيباتيا أسئلة عميقة ومتشابكة ومحيرة ايقظت عقول الكثيرين من مريديها وبفضل توجهاتها العقلانية ونشاطها في الفكر والعلم غدت بمنأى عن فكرة الدين أو الزواج ، كانت ترى أن البشر أخوة ، وكان العلم عقيدتها الكبرى وعندما طلب منها احد الكهنة ان تعتنق الدين الجديد قالت له بجرأة نادرة «إن إيمانك يمنعك من طرح الأسئلة اما انا فعملي يتطلب مني طرح الاسئلة» .

في هذه الفترة ظهرت جماعات دينية متشددة ترفض النقاش

الفلسفي ونظريات هيباتيا حول الشمس التي اعتبرتها مركز الكون وعن فكرتها حول كروية الارض واشتد غضب الكهنة الذين اعتبروها مروجة للعلوم الشيطانية : فالكنيسة تقول بأن الارض مسطحة وهي مركز العالم وعُدّت هيباتيا مصدر خطر على الدين الجديد واتباعه رغم انها شغلت تلاميذها بالقضايا العلمية واقتصرت دروسها على الفلسفة وعلم الفلك والرياضيات ولم تزجهم في الجدل الديني ، وتفجرت الصراعات عندما اشتد عود الدين الجديد وشرعت فرق المتشددين تحطم تماثيل الالهة الرومانية وامتد عنفها إلى مكتبة الاسكندرية واكاديمية العلوم فقامت بتدمير المكتبة ومخطوطاتها وقتلت بعض التلاميذ .

كان أحد تلاميذ هيباتيا عاشقا لها ، وتشير بعض المصادر إلى انها طلبت منه ان يقتلها إذا هاجمها المتشددون ، لكنه عجز عن الوفاء بما طلبت ، فكيف له أن يقتل معبودته خنقا أو طعنا؟؟

وقف الاسقف يخطب في الناس متهما هيباتيا بالزندقة والعمل ضد الدين بتدريسها للعلوم الشيطانية وأن عليها كإمرأة أن تلزم البيت فقد خلقت المرأة لتخدم الرجل حسب وأباح دمها للقتلة ، فهاجت العامة بقيادة المتشددين الذين امسكوا بها وجردوها من ثيابها ثم مزقوا جسدها اشلاء وَأحرقوا ماتبقى منها في محرقة وسط المدينة . أعدمت هيباتيا لأنها تجرأت وطرحت الاسئلة المحرمة في زمن تشدد ديني يعادي العقل والعلم والفلسفة ، فانتهى بمقتلها العصر الكلاسيكي للفلسفة وتكدر فضاء الحرية في مدينة الاسكندرية . .

حدائق أنطونيادس

أجمل ماتبقى من الحضارات الغابرة في الاسكندرية ليست القصور الملكية المفرطة في زيناتها وبذخها وأثاثها المذهب واللوحات الكلاسيكية المعروضة على جدرانها وحدائقها الشاسعة واطلالاتها على المتوسط ، مثلما هي ليست تلك الآثار المملوكية والمباني العثمانية والمساجد ولا عمود السواري وفنار الآسكندرية ، بل إن أجمل ما أثار دهشتي في المدينة هو قصر أنطونيادس وحدائقه والتماثيل الرخامية البديعة فيها والحديقة النباتية الشهيرة . .

هي اقطاعية المصائر المتعاقبة وتزاوج الثقافات : فهي ليست حدائق بحد ذاتها ولا هي بالمتحف المفتوح أو القصر الذي تداولته سلالات الأثرياء ، وليست معرض النحت الكلاسيكي المتاح لعشاق الفن حسبُ بل واحة غريبة صمدت وسط عالم مضطرب بأهواء السياسة والتعالي القومي والتغيرات وانحلال المدن الكوزموبوليتانية العظمى ، هناك في حدائق انطونيادس وجدت عظمة الحضارات التي تعاقبت على الاسكندرية من فرعونية واغريقية ورومانية . .

الحدائق بين بروست وجيمس جويس

ربما كان القصر والحدائق انموذجا فريدا في تجاوز وتمازج الثقافات الانسانية مثلما تجاورت في مساحاته الشاسعة حدائق من طرز

ومدارس هندسية وفنية متباينة فالحديقة الانكليزية تمتثل للطبيعة ولاتبالغ في تدخل الانسان وتمنح الشجر والمروج والازهار النادرة حريتها في التعايش والنمو تقلد غابة طبيعية حرة ذات سطوة برية ، تقترب منها حديقة الورد بتنسيقها الخفي الذي يكاد يكون فوضويا منفلتا حتى لتبدو وكانها بستان ورد بري من صنع الطبيعة وايقاعها الحر ، على النقيض من الحديقة الفرنسية التي صممت لتكون نسخة من هندسة حدائق فرساي المشذبة المصنوعة والتي لا تمنح الانسان قدرا من حرية التخيل والتماهي مع الطبيعة ، وهنا تبرز الاختلافات بين الرؤى الثقافية الفرنسية والانكليزية ، فالفرنسي يسعى إلى الابهار والاستعراضية والتعالي بينما يتسلل الفن الانكليزي بيسر وبساطة إلى الروح ويستدرج المرء إلى سر الطبيعة الخلاقة الحرة ، خطرت لي لحظتها مقارنة الحديقة الفرنسية بأعمال مارسيل بروست وبلزاك : مدروسة بدقة رياضية ومحددة بصرامة خانقة ، اما الحديقة الانكليزية فهي شهوية وممتعة وحرة كأعمال د .هـ . لورنس وجيمس جويس وحدائق الهايد بارك الشاسعة المدهشة بحميميتها وامتزاجها الكامل بالطبيعة . .

القاهرة: مدائن شتى

القاهرة

ربما شاغـلتْنا الجسورُ التي حملتْ عرباتِ الملوكِ عن النهرِ .
أعمقَ كالرملِ ينسربُ النهرُ ، يبلغُ واحاتِ مصرَ البعيدةَ ،
حيث التواريخُ مكتوبةٌ باللغات التي تتناسى تواريخَها .
النهرُ يدخلُ في وجنةِ الطفلِ طَمْـياً وخِصباً ، ويدخلُ
في نَـهدَي البنتِ . يدخـلُ من عتْبةِ البيتِ . مصرُ المعابدِ حيثُ التماسيحُ آلهةٌ
والملوكُ ينامـون في الغُـرَفِ الـمُـذْهَـبـاتِ وفي مَـرْكَـبِ الشـمسِ . مصرُ التي لم تجدْ
مـا تُـسَـمّـى بهِ غيـرَ مصــرَ . انـتـبـذْنا من الليلِ رُكناً قـريبـاً من البحرِ . كانت
تماثيلُ من مـرمـرٍ غابرٍ تتـراءى وتـرحل في الموجِ . كـانـت شـفـاهٌ تسيـــــلْ

سعدي يوسف

القـاهرة مـدينة في قلب مـدينة في قلـب أخـرى تطلق المتع من بؤر التـناقض ، طاردة الأهوال والمواجع عنـد حـافـات النيل ووصـايا الملكات

الغارقات والملوك المتوّجين بالنسور والمدائح ، عشّاقها يَرمون بالوصايا ونساؤها يغوين يوسف من كوى الخرافة ويتندرن بحكايات الهوى يرسمن بالحنّاء تعاويذ الشهوة على معبد آتون ويلاحقن هزج الثائرين في ساحات الفوضى . .

لم تبهرني القاهرة كمدينة بحد ذاتها ، نهرها وجسورها تكاد تؤاخي بغداد في احتضانها لدجلة ونموها على ذراعيه وامتدادها بعيدا عنه ، النيل يقوم بالدور ذاته ، لكن القاهرة تتمطى بعيدا وتنشىء مدنا صغيرة على حافاتها ، ضواحي وعناقيد من القرى النائمة في قلب النسيان ، فندق كلاريدج في شارع طلعت حرب ، لم احبه فهو يستدرج ضجة الزحام للغرف ويغرقها في اضطراب لامهرب منه ، لكن زيارة المتحف المصري العظيم كانت مكافأة التحمل ، أمضينا نهارا مثيرا في قاعات المتحف بين كنوزه ومومياءاته وتماثيل الالهة والملكات .

الفن الفرعوني - بخاصة فن النحت - فن طبقي بامتياز : فتماثيل الملوك الفراعنة والملكات تفوق الحجم الطبيعي وقد يبلغ وزن أحدها اطنانا عدة من الحجر ، بينما نجد تماثيل موظفي البلاط والنساء بالحجم الطبيعي وتبدو تماثيل الجنود والحرس والخدم اصغر كثيرا من الحجم الطبيعي . ثمة فارق كبير بين المنحوتات السومرية والبابلية وبين المنحوتات الفرعونية : فوجوه الفراعنة وجوه غاب عنها التعبير الانساني اذ قام النحات بمنح وجوه الملوك سمات ساكنة لاتعبر عن عاطفة ما أو مشاعر معلنة ، بل تبدو كاملة لاتؤثر فيها سنوات العمر ولا الأحداث ولا شجن الحب ولا زهو النصر ، بينما تبوح ملامح التماثيل السومرية بأحزانها وصرامتها وحالاتها التأملية العميقة وعيونها الشاسعة كما في تماثيل معبد تل اسمر التي تضيء لحظة التأمل وخشوع النظرة وحركة

اليد وانسدال الثياب ذات الطبقات الهدبية ، وتمثال العابد الراكع .

زيارة جزيرة الشاي المطلة على بحيرة الاوز في حديقة الحيوان خففت عني الضجيج العارم الذي نال مني في شارع طلعت حرب ، شيء ما يماثل حديقة الزن اليابانية : بركة وصخور وأسماك وكائنات متناغمة ، تزجية الوقت تجوالا في القاهرة المملوكية القديمة كان ممتعا ، الدروب المفعمة بروائح التاريخ وضجة الحياة الحاضرة ، والناس استعارات لرموز ، والرموز استعارات لناس المدينة ، لاشئ يبدو حقيقيا فكل مانراه محجوب باستعارة ، بحجاب ، بلون ، بلحن أو بضحكة . .

القاهرة القديمة تأخذ بالالباب ، هي الاستعارة الكبرى عن العصر المملوكي : القلعة وخان الخليلي والمكتبات العريقة في شارع الفجالة وعند سور الازبكية والمطاعم المفتوحة على الارصفة وضجة المقاهي وباعة التحف والتذكارات ، ثمة صوت نجيب محفوظ ينبثق من الأزقة الضيقة والشرفات العتيقة «اشترينا مابوسعنا من كتب نجيب محفوظ : الطريق وقصص بلابداية ولانهاية والشحاذ وسلسلة مسرحيات عالمية ومجلات الطليعة والسينما» . . .

كان نجيب محفوظ يوقظ خلائق رواياته واحدا بعد الآخر فيقومون من سبات الكتب ، وتمتلئ الحارات بالهرج وأرى الشيخ عبد ربه التائه بطل كتابه «أصداء السيرة الذاتية» يقود الحشود ويفصح عما ينقص الناس :

- الحب مفتاح اسرار الوجود ، وأشمل صراع في الوجود هو الصراع بين الحب والموت . كان يهمهم مكروب الفؤاد : عيشوا الحاضر فهو نور يخفق بين ظلمتين .

تطوق خطواته رائحة المباني القديمة والأبواب العتيقة المنحوتة ويغويه غنج النساء البدينات بنات الحياة وربات المتع ويشيح عن

الغواني المرحات والفتوات المهيمنين بقوتهم على الخلائق مسلوبة الارادة وبين هؤلاء واؤلئك يترنح الحشاشون والحواة ومرقصو القرود والمشايخ . .

سالته امرأة تجر طفلا وراءها وتحمل رضيعا فاتن المحيا :

-متى تصلُحُ حال البلد ايها الشيخ عبد ربه التائه؟؟

اطال التحديق بوجهها النوراني وقال : **عندما يؤمن أهل البلد بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة . .**

قالت له المرأة : اتريد ان اهبك موعظة أيها الواعظ؟

فقال لها - اهلا بما تقولين . .

قالت وهي تغض الطرف حياء وغواية : لاتعرض عني فتندم مدى العمر على ضياع النعمة الكبرى . .

تضّجُ شخصيات نجيب محفوظ الأخرى في المقاهي وعند باعة الفول والطعمية : الخادمات بغنجهن الشعبي المُجاهر به والفتيات ذوات الضفائر الطويلة المتدلية تحت المنديل المزخرف ، ، كنت أهيم بين شخصيات محفوظ عند أبواب المقاهي وسلالم العمارات العتيقة ويوقظني من هيامي متشرد نشال كاد يخطف حقيبة يدي ، وأفيق على ضحكة مجلجلة لأمراة تمر وسط الزقاق الضيق وتتبعها عيون الرجال النهمة حتى لتكاد تفترس لحمها البض المهفهف الذي يشعله التناقض بين الملاية السوداء والفستان الوردي الزاهي بكشاكشه ومخرماته وخشخشة الأساور والخلاخيل ، والزعبلاوي هو الآخر ماثل في كل شيخ حائر يمر في العطفات ويختفي كالظلال في عتمة المداخل الرطبة ، الناس مأخوذون بصيحة تطوف بهم ، وهم ثملون كل بما في روحه من شجن وفتون .

نزهة في النيل - نهر السماحة والفيض - تأخذني إلى دجلة ، رائحة النهر والطمي ذاتها وأشجار الشاطيء والسمك المتقافز باستثناء البيوت العائمة تلك العوامات الطافية كوعود كاذبة بالفراديس ، لم تعرف دجلة هذا الترف المديني للعوامات المخصصة لليالي المتع ، فعلى شواطيء دجلة الصيفية حين يتناقص ماء النهر إلى حد كبير وتظهر الجزر الرملية وتتسع الشطآن كانت تقام أكواخ من سعف النخيل والحُصُر وأغصان التوت والصفصاف وتسمى (الجراديغ) وواحدها جرداغ واظنها كلمة فارسية ، ، كانت العوائل العراقية تصطاف عند الشواطيء في شهور القيظ ان لم يتسن لها الاصطياف في جبال كردستان ، يذهب الرجال إلى اعمالهم ويمضي الصغار نهارهم في السباحة بينما تعد النساء وجبات الطعام من الدولمة واللوبيا وينتظرن وصول الرجال ليقوموا بشواء السمك على حطب نبات الطرفاء ذي الرائحة العطرة ، تتوسط الجراديغ مزارع البطيخ واللوبياء والخيار ، ويقيم هواة المرح والسهر حفلاتهم في الجراديغ البدائية يرافقهم مغنو المقامات ومطربو اغاني المربع ويسمرون تحت قمر بغدادي وامام شناشيل البيوت المطلة على النهر من جانبي المدينة حيث تنتعش أقاصيص الهوى وغراميات المصطافين المتخففين من وطأة التقاليد إلى حد ما .

اما في القاهرة فإنّ بعض العوامات الكبيرة كانت مراكب سياحية أو قصورا عائمة ضلت الطريق إلى الأرض والثبات ، راكبوها يطفون على هامش المدينة ينظرون إلى الحياة عبر عدسات الكامرا أو يسمعون أوصافها من مرشد سياحي يفخم لغته ويعظم ميزات الأمكنة التاريخية والآثار التي تمر بها المراكب ، ، المراكبي الذي طاف بنا في زورقه ذي الشراع الأبيض بين الجزيرة وجهات أخرى كان مشغولا

بإيصال بعض الحشيشة لزبائن ينتظرونه عند أبواب العوامات المترنحة على سطح النهر ، دعانا للتفرج على عوامة غادرها مستأجروها توا ، وقال بوسعكم استئجارها اذا أحببتم العيش في البحر ، كان يسمي النيل بحرا والقاهرة مصر ، وهذه من عادات أهل مصر تفخيم الصغير وتعظيم الكبير . .

بدت العوامة بأثاثها الوثير وموائدها وأكداس زجاجات المشروبات الفارغة في مطبخها مثل حانة مهجورة فاجأ زبائنها حدثٌ ما أو وباء كاسح فاختفوا فجأة وتركوا آثارهم : غرف نوم مبعثرة ونوافذ مفتوحة تتدلى عليها ستائر دانتيل متسخة وستائر خيزران ، كانت ثمة امرأة ريفية تقوم بالتنظيف وتلقي بالقمامة في النهر ، أصابني غثيان من المشهد بأجمعه وبدا كأنه عالم خيالي زائف ملقى على سطح الماء منذ الأبد ، ارتقيت السلم إلى طابقها الثاني فتمايلت العوامة بفعل موجة جامحة سببها مرور زورق بخاري قربها ، وترنح العالم والنهر وأصبت بالدوار النهري وتحركت سلسلتها المربوطة إلى الشاطيء وصلصلت ، وهبطت مسرعة إلى الزورق ذي الشراع ، ، في مثل هذه العوامة جرت أحداث «ثرثرة فوق النيل» الرواية البارعة التي استحالت دوارا وهذرا عبثيا بنقد محفوظي عن صراع العلم والدين مقابل العبثية التي لاتحفل بأية قيمة من قيم الوجود ، كان العيش وسط الموج يحول كل فكرة إلى رجرجة عابرة وعبثا لاطائل وراءه مثلما كان ابطال «ثرثرة فوق النيل» الذين يفهمون الحياة باعتبارها لحظة نشوة عابرة واقتناص متع متاحة مختلطة برؤى ميتافيزيقية مضطربة وسط مجتمع تختنق فيه الحقيقة وتذوي الإرادات الحرة أمام إرادة القوة والمال والعبث .

القاهرة هي مدينة نجيب محفوظ اكثر من كونها مدينة فاطمية أو

ناصرية أوعالمية ، نجيب محفوظ صاغ مفاتيحها بعبقرية لاتجارى وقال فيها حكمته المقطرة في كلمات ثمينة يختم بها رواياته الثرية ولهذا لم تتناغم روحي مع القاهرة الجديدة وأبراجها وجسورها وسينماتها بل وجدتني اكثر الفة مع القاهرة القديمة وبشرها : في شبرا والقلعة وخان الخليلي والدرب الأحمر والمقاهي الصغيرة الحافلة بالبشر الساعين إلى رزق يومهم ، مدينة لها ألف وجه وملايين الارواح ، هي مدينة يتبادل المواقع فيها الشحاذ والمتصوف والشاعر والمتأمل الكسول والقروي الذي يهجوها ويعشقها والمرأة الضائعة الهاربة من البنادر البعيدة لتحيا على هامش الحياة في مرقص أو حانة أو تعمل خادمة في عمارة أو تتسول حياة من بقايا حيوات الآخرين وعبثهم ، وفي القاهرة ثمة قوة ما خفية تنخر اعماقها وقوة أخرى مضادة تعيد ردم النخر وتضخ فيها الأمل وترياق الشفاء ، تحولها إلى مدينة حشود مأخوذة إلى مصائر غامضة أو إلى أحلام غربة مرتجاة . .

القاهرة مدينة أحلام مستحيلة
حديقة الأندلس

القاهرة تستعيد قصة المنتحب العتيد «ابو عبد الله الصغير» ، تقيم أندلسها في قلبها ، في فضاء التذكر الموجع ، تشمخ الأشجار وتتطامن العرائش الغرناطية حول النوافير وتهب أشواق عشرة آلاف وردة وزهرة لوتس من ظلال شجر الزيزفون في حدائق الأندلس وتترنح القارات والبحار ، تلال غرناطة تترامى في أحضان السهول المشمسة ، نعبر مابين مضيق جبل طارق وجبال البيرينيه ونمر بين برشلونة وكاتالونيا فتنبت زهرة الباشيونيت الزرقاء هنا وهناك في أندلس مفقود بين منارة الخيرالدا وبيت لوركا نفض تأويلات الخط المستقيم ونؤنث الوقت ونجعل للامكنة ذاكرة ذكورية ، ونؤنث المعنى وندغم نون النسوة بين أريج الرمان ، ، كل ذلك يحدث في حدائق الاندلس .

حنين القاهرة إلى اندلس غائب يدفع احد مهندسيها إلى انشاء حدائق فردوسية تماثل جنائن الحمراء وغياض غرناطة ، أسود تنفث الماء ونوافير رخام وزهور بالف لون ونخيل ملكي ، وثمة والدة ابي عبدالله الصغير تسترق السمع إلى أناشيد الفرقة الموسيقية على منصة الحديقة وتذرف الدموع بدلا من ابنها الذي تمادى في غروره العابث . .

سرت طويلا في شارع لااسم له وله أسماء عدة لم يثبت منها واحد في الذاكرة وكان رجل الحلم يلوح لي من شرفة نورانية شبه حلم مستعاد ، كان الشارع محفوفا بعمائر على الطراز الفرنسي لها شرفات

مطلة ونوافذ محجوبة ومصاعد عتيقة ، كان للشارع أرصفة تخطر عليها نساء راقصات الخطى ورجال متأنقون يضعون وردة أو سلسلة ذهب في صدور جاكيتاتهم القاتمة وهم يدخنون البايب أو السيجار ، وبغتة تقتحم المشهد فتيات كأنهن راقصات باليه بحيرة البجع ومعهن مغنيات اوبرا يرددن لازمات غنائية من اوبرا فيردي الشهيرة (عايدة) تتبعهن جوقة عازفين فراعنة وراقصات من عصر المماليك وسقاة بأزياء إيطالية ورجال أفارقة يحملون الرماح ونساء نوبيات ، وتطل على الشارع المغمور بنور ذهبي أميرات فاتنات من بقايا اسرة محمد علي يغطين رؤوسهن باليشمك العثماني الابيض المنسوج من حرير رقيق ، وتبرق مجوهراتهن في ضوء المصابيح المتلألئة ، وعلى حين غرة يمر موكب عسكري وتختفي الأميرات المترفعات المبتهجات وتعم الشارع فوضى من الجنود على خيولهم وتتبعهم الدبابات والعجلات ويعلن ضابط بصوت متهدج : ولادة الجمهورية ، تختفي المشاهد كلها ويسقط رؤساء ويتوارى آخرون في العتمة وتنتاب البلاد حروب وانقلابات . سوف تمر جنازة ام كلثوم من هنا يتبع نعشها الوف المذهولين لفراقها فتبتهج سيدات القصور الملكية المطرودات عن عروشهن وتفرح زوجات الرؤساء المحجوبات وراء سطوة حضورها وسترقص المطربات سيئات الحظ لغيابها ويتعرين فوق المسارح وعلى شرفات البحر وسيختفى ظل ام كلثوم الشاسع عن ميادين القاهرة ولياليها وتعم فوضى الأصوات أركان المدن والبلدات والقرى وتبقى آهاتها المخدرة تترنح من اجهزة الترانزستور والشاشات وتؤجج قلوب العشاق المتقاعدين والسيدات اللائي يُرَقّصن أحفادهن على إيقاع نبرتها الذكورية وهي تردد : اعطني حريتي أطلق يديا ، دون ان يخطر لهن انتزاع حريتهن من غاصبيها . .

طريق الحرير عبوراً إلى قصر شيرين
رحلة إلى ايران الامبراطورية

سأرحلُ
لا بد أن أرحل
ربما . . في يوم ما
سيغير هذا الفُلك القاسي . . صورته ومجراه
يومها . . إن بقيتُ
لن ترى أثراً مني
غير ظلٍ أعجفٍ . . فوق جدار .

شاعر فارسي مجهول

منطق الرحيل هو منطق الطير في كل زمان ومكان : أن تحدق في البعيد ، أن تتخيل المجهول وتنغمس في التصورات العجائبية ، أن تغادر خفيفا وتحلق بمنأى عن مألوف حياتك ، لتعود مثقلا بأحلام وخبرات وأهواء ماخطرت لك يوما على بال ، والسفر الطويل في السيارة يمضي بالمرء نحو الأفق في كل برهة ، يأخذك نحو مديات وحكايات جديدة وأناس مختلفين وفضاءات لاتحدها سوى تخوم الخيال .

أمضي في حلم المدن المُشادة من شذرات شعر ونساء فاتنات وعمارة مغولية ومؤثرات هندية وإسلامية وغربية ، كان رحلتنا تلك في

زمن الشاه الأخير قبل أن تنتهي لعبة الشطرنج الدولية بإزاحة الإمبراطور عن عرشه البهلوي .

قصر شيرين

الأرض صفراء حمراء بحجارتها الخشنة ، والتاريخ يلهث وراء صهيل الخيل وصيحات المحاربين العائدين من حروبهم وغزوات الأمس ، ثمة على جوانب الشوارع بيوت مصبوغة بالبرتقالي والأزرق كأنها لوحات الفنان فان كوخ ، ونوافذ محجوبة بشبكات حديد كالزنازين ، وطفلة صغيرة تمص اصبعها أمام بائع الحلوى ذي العمامة الوسخة ، المدينة الغارقة في رهج الحرارة منومة بسبات تأريخي وفي أحلامها تحتضن أمل زوال الشاه وإسقاط الإمبراطورية وسيغدو هذا الأمل وبالا عليها بعد سنوات ، وعندها لن يكون بوسعها إعادة إنتاج أحلام جديدة وبناء حياة مرتجاة ، مدينة تزوق خرابها بمظاهر رخيصة : زينات من بلاستك وستائر بألوان صاخبة ، وأبواب مصبوغة باللون الأزرق والأصفر ، مدينة تموه الفقر المدقع لسكانها الحالمين بالغناء . .

قبل أن اتعلم منطق الحياة وواقع العيش في بلاد تزلزلها السياسة والانقلابات وعالم تضطرب جهاته كل فجر ويترنح بين صراعات الأضداد ليسقط في حمأة الحروب ، قرأت فريد الدين العطار النيسابوري في وقت مبكر ، ، كانت طبعة الكتاب مربكة انفلشت أوراقها بين يدي وارهقتني قراءة صفحاتها ذات الطباعة الحجرية ، أدهشتني منظومته العرفانية الكبرى «منطق الطير» : أسرني وصفه لتلك الرحلة الروحانية التي قامت بها أصناف الطير بقيادة الهدهد لبلوغ مقام طائر السيمرغ(*) وعندما بلغت منتهى غايتها أدركت أنها

فازت بالحرية خلال مكابدات الرحلة ولم ترجع إلى أرض الناس بل آثرت الفناء في لحظة الحرية والإشراق . .

قال جلال الدين الرومي عن فريد الدين العطار : «لقد اجتاز العطار مدن العشق السبعة بينما لاأزال أنا في الزاوية من ممر ضيق»

شغفت بمنطق فريد الدين العطار في حياته وكرامة عيشه وتمثلت رفعته في العيش هو القائل :

- (شكراً للّه ، فلم ألجأ إلى قصر ، ولم أكن ذليلاً لحقير ، ولم أُطعَم خبز ظالم ، ولم أختم كتاباً بذكر أحدهم مطلقاً . .) .

كيف يحلق المرء في رحلة الروح ويبلغ غاية الصفو كفريد الدين العطار وهو مشدود بألف وشيجة إلى الشهوات ومجاراة القطيع والرهبة من غطرسة الطغاة؟ هذا مارددته مع نفسي وانا أمضي في رحلة برية عبر هضاب إيران وجبالها بدء من «قصر شيرين» وكانت تحف بي طيور العطار وضجة طيور ابن سينا لتحملني على نسيان مأساة «شيرين العاشقة» وأنا أمر بأطلال قصرها .

كنت في مقتبل الشباب أجهل منطق الترحال شرقا فمعظم أحلام الناس كانت تتجه غربا وشمالا نحو اسطنبول وأوروبا وأميركا وشمال افريقيا ، ذات يوم جمعنا قدرا من المال وخططنا لرحلة برية تدوم ثلاثة أسابيع عبر بلاد فارس ، هيأنا سيارتنا الـ (سكودا) الصغيرة صنع (تشيكوسلوفاكيا) والتي كانت موصوفة لارتقاء المسالك الجبلية الوعرة واتخذنا رفقة من عائلة صديقة في سيارتهم الـ (لادا) الصغيرة واتجهنا شرقا مفتونين بغوايات طريق الحرير والموسيقى الايرانية ومدائن السحر القابعة بين المفازات والجبال وصحراء الملح . .

كانت آثار طريق الحرير الموشومة على الأرض العتيقة تهمس لنا

بأساطير العشق التي قادت رحلتنا من «النفطخانة» العراقية عبر المنعرجات والتلال الخضراء إلى «قصر شيرين» البلدة التي تحرسها غيضات نخيل وجبال صخرية صماء ، بدت البلدة شبه قلعة للحزانى والمنسيين والدراويش ، لم أعرف في حياتي مدينة منسوجة من حزن وآهات العشاق كهذه المدينة الغائمة التي تتعالى من أزقتها آهات النساء واغاني الغجر . .

آهات شيرين وفرهاد

١

في ضواحي المدينة ثمة أطلال قصر حجري مهيب ذي أقواس وزخارف من الطراز الساساني ، سألنا الحراس فتحدثوا بانكليزية متعثرة وبضع كلمات عربية وفهمنا أنه قصر الملكة شيرين حيث أقامت الحسناء شيرين الآرامية التي تتحدر أسرتها من منطقة حلوان العراق ، عشقها كسرى أبرويز وتزوجها ، ودوّن الشاعر نظامي أسطورة العشق الشهيرة شعرا ووصف الحسناء شيرين بلسان شابور وزير كسرى :

إنها فتاة ملائكية . . بدر منير
تضيء الليل كقمر ساطع
سوداء العينين كماء الحياة
باسقة القوام كنخلة فضية . . . . .
أما شفتاها السكريتان فهما عقيق نضر
هي السروة الباسقة عذبة كنهر الفرات . .

بينما يصفها كتاب الشاهنامة بأنها معشوقة فرهاد وليس كسرى ، وهي ذاتها قصة العشق البابلية (شجرة التوت أو تسيبا وبيرام) التي وجد نصها مكتوبا باللغة الأكدية في بابل ، وفي «شجرة التوت» ينتحر العاشقان بسبب أحداث متلاحقة تؤدي إلى سوء فهم في ربط الوقائع بينما إدّعتها المدونات الارمينية كجزء من تراثها ونسبتها إلى أميرة من

يريفان ، وقد تكون الجذر الأسطوري لقصة (روميو وجوليت) إذ نُقلت أسطورة (شجرة التوت البابلية) إلى اللغة الأغريقية بعد غزو الاسكندر لبابل وأوردها الشاعر أوفيد بإسم (بيرامس وثيبا) وقد تصرف بإسمي العاشقين البابليين تسيبا وبيرام . .

العاشق البابلي بيرام الذي رفض والده القاضي تزويجه من حبيبته تسيبا ، كان على موعد للقائها وقد اتفقا على الهرب إلى نينوى تلك الليلة ، وعندما وصل إلى شجرة التوت حيث موعدهما وجد بيرام لبوة يخضب الدم شدقيها ووشاح حبيبته مدمى وملقى على الارض فأيقن أن اللبؤة افترست تسيبا وهو يرى منديلها الكتاني الذي اهداه لها قرب اللبؤة التي فتكت بغزال صغير ، فما كان منه الا أن طعن نفسه وسقط ميتا عند غيضة أشجار التوت في البستان وعندما أمنت حبيبته خطر اللبؤة عادت إلى شجرة التوت ووجدت عاشقها ميتا فانتحرت هي الأخرى والقت بنفسها فوقه وامتزجت دماءهما ودفن العاشقان تحت شجرة التوت الأبيض التي تحولت ثمارها بمرور الزمن إلى توت أحمر بعد أن روتها دماء العاشقين . . .

بقيت أطلال قصر شيرين هاهنا تحرسها التلال المعشبة وحقول القمح والنخيل لتنبئ عن قصة الحب الفاجعة التي تنقلت بين مأثورات شعوب عديدة واستهوت الكتاب والشعراء والعشاق وصيغت منها وعنها الأغاني والمسرحيات والاوبرات والملاحم الغنائية ، فلاشيء يخلد في ذاكرة الناس كما تخلد قصص العشق الحزينة وأساطير العاشقين .

٢

اقتفينا ظلال طريق الحرير والأفيون من «قصر شيرين» حتى «كرمنشاه» ، كان طريق السجاد الفارسي والحج إلى النجف وكربلاء أو الحج المعاكس إلى مدينة مشهد يعج بالحافلات السريعة وعلى جوانب الطرق ، ثمة مواثل عتيقة مطروقة مهدتها آلاف القوافل التي كانت تحمل التوابل والزعفران من الهند وماء الورد والفضة وأواني الخزف من نيسابور ورشت وقوافل تجارة الشاي والفيروز والياقوت واليشب الصيني والعاج الهندي والزمرد ، إلى جانب قوافل النخاسين التي تبيع الغلمان والجواري السبيات المنهوبات من أطراف الصين وسمرقند وطشقند وتفليس وعشق آباد ، وثمة بين القرى المتناثرة كانت خيام الغجر والرعاة ، تحرسها الغيوم والنجوم والرياح . .

مضينا في طرق تظللها موجات من ضباب الفجر الشفيف وافغمت حواسنا روائح العشب البري وخفقت قربنا أسراب طيور جذلى تهاجر تحت الشمس لكأنها تمضي نحو وديان العشق وشعاب المعرفة التي رسم لها فريد الدين العطار في (منطق الطير) خرائط الترحال الروحاني لتقتفي خفق جناح السيمرغ(*) في سعيها للجمال المطلق الذي يتعذر بلوغه الا بعد مكابدات ومشقات فلا تعود من رحلتها النورانية . .

كرمنشاه وطاق بستان

انشغل رفاق السفر بتفحص خرائط الطرق السريعة للوصول إلى كرمنشاه وهم في غفلة عما أنا فيه من تخيلات الفراديس الروحانية التي لُذتُ بها وغادرت زمنهم التقويمي لأترحّل في الأزمنة مع رجل

الحلم ، وغدوت الغريبة المترحلة وحدها في مجاهل بلاد فارس : امرأة حالمة ترود الحلم المشرقي المضمخ بالبخور وتتراءى لها أميرات الأساطير مكللات بالحرير والفيروز وخيوط الذهب ، تنصت مع رجل الحلم لأصداء قصائد **الخيام وحافظ الشيرازي وأحمد شاملو وفروغ فرخزاد ونرجس كنجي** . .

كان رفاق الرحلة يناقشون كيفية العثور على الفنادق الإيرانية التقليدية التي تشبه الخانات : منازل شرقية الطراز بطابقين لها أفنية واسعة تتوسطها حديقة ورد وياسمين وتطل عليها الغرف المزينة بالفسيفساء والمصابيح ذات الطرز الفارسية . أخذَنا الدليل الذي تشبث بالسيارة ليحصل على البقشيش إلى نزل ذي طراز تقليدي نظيف تفوح منه رائحة البخور وماء الورد وتدير النزل سيدة بهية المحيا ذات عينين شهلاوين وملامح ملكية تضع الشادور المصنوع من قماش منقط وتتكلم بضع كلمات عربية (السلام عليكم - شاي - غرفة) ، قدمت لنا افطارا شهيا من بيض ومربيات وخبز كنا نسميه في بغداد الخبز الأفغاني وهي أرغفة طويلة تشوى على الحصى المتوهج وتمتلك مذاقا بديعا لايضاهيه مذاق أي خبز في العالم ، ووضعت ابريق الشاي على سماورها النحاسي الفواح برائحة الفحم وعبير الشاي ، مذياعها كان يبث أغاني شجية ومقامات ميزت من بينها أغنيات للمطربة (هايدة) والمطربة (مهستي) . .

وأخيرا نحن في كرمنشاه ، حرصنا على مشاهدة المنحوتات الأثرية العملاقة في طاق بستان حيث نحتت على الجبل مشاهد عن مآثر داريوش وحروب كسرى الثاني وانتصاراته وهي منحوتات تعد أنموذجا مثاليا للفن الفارسي في العصر الساساني . قصدنا مطعما قريبا من

بحيرة طاق بستان وتناولنا وجبة شعبية تسمى (جلو كبابي) مكونة من رز مدينة رشت الفواح بشذاه الخاص وعبير الزعفران ومكللة بالكباب المشوي وقد نثرت فوق الرز قطع من الزبدة ، احتسينا الشاي في الجايخانة التقليدية المطلة على شارع (شيرودي) وقصدنا متنزه (كوهستان) الساحر بأشجار سنديانه العملاقة وأحواض المياه التي تفتحت فيها أزاهير النيلوفر بينما تناثرت عشرات الأنواع من الورود والياسمين والزنابق وأزهار موز الكنا الصفراء المرقطة والحمراء وأبصال الهايسنت تحت الظلال الوارفة حيث كان العشاق ينتشرون بين خمائل المتسلقات وتحت الجواسق الخشبية . .

سرنا ساعات تحت الظلال الوارفة صاحبتنا الحمائم وخفقت على وجوهنا وارتعب الصغار من مداعبات الحمام بينما لاذت العنادل بأشجار الزيزفون والتوت ، كان المتنزه فردوسا فريدا بطابعه الشرقي الأسطوري واطلالته على المدينة تحرسه عن بعد ظلال بنفسجية مغبشة لجبال زاغروس . .

(*) السيمرغ : اسم هذا الطائر الخرافي هو سينا ميرغا في «الأفستا» والافستا أو الابستاق هو الكتاب المقدس للزرادشتية ، وسين مورغ أو مورو في «البهلوية» ، ولكن معناه يدل على شيء يختلف تماما عما استعمله العطار ، وتجدر الإشارة إلى أن العطار دعاه «سيمرغ» ليجانس بينه وبين «سي مُرغ» ، أي «ثلاثون طائرا» بالفارسية .

همدان وابن سينا

همدان المدينة التي تتجمل بمرقد ونصب الشيخ الرئيس الفيلسوف ابن سينا وضريح الشاعر المتصوف العرفاني بابا طاهر، على مدخل ضريح بابا طاهر كتبوا:

لو كان في قلبي شيء غير عشقك

فأنا الكافر بين الأقوام أجمعها . .

سبق بابا طاهر الشاعر عمر الخيام في كتابة الرباعيات، ولكنه شاركه المواقف الفلسفية من العدالة والموت والحياة، وقد نقشت بعض اشعاره على أربع وعشرين قطعة من الحجر الثمين ورصفت حول ضريحه في مزاره الشهير على مشارف همدان . .

ماكان يعنيني أكثر في همدان ليس بابا طاهر بل الفيلسوف العارف ابن سينا، بحثت في الخرائط وسألت بعض المارة، لم يفهموا مقصدي، كانوا يكتفون بتسميته (بوعلي)، لم أكن أعرف شيئا عن نصبه التذكاري المتشامخ فوق ضريحه وسط حدائق فردوسية مبهرة، كنا نسير في شارع فسيح تنتشر فيه محلات بيع الزهور الآنيقة وثمة عشاق يمضون أزواجا تحت ظلال اشجار الصنوبر والزيزفون، تجاور دكاكين الزهور مشاغل الخزف ومعارض الخزافين الذين يصنعون الخزف التقليدي اليدوي ذا الزخارف الشعبية الفارسية، ويعرضونها بأسعار زهيدة مغوية، اشتريت بعض الأقداح وآنية حلوى من الخزف الأزرق التقليدي، قلبت وعاء

الحلوى لأتفقد رسوماته فوجدت بطاقة ورقية ملصقة تشير إلى عنوان المتجر (محل الفنون الجميلة - شارع بو علي سينا) - ياالله - سألت البائع اين ضريح ابن سينا ، أشار إلى الموقع القريب المموه بأشجار عملاقة أخفت ملامح المبنى ذي الاعمدة الرخامية والمشاد بقطع الرخام الضخمة ، بدا المبنى شبه حلم مضبب شرعت ملامحه بالاكتمال حال اكتشافي له وترددت في مسمعي أصداء من قصيدته العينية مع موسيقى يتردد صداها عزفا على الناي والسنطور . .

لم اتوقف يوما عن اندهاشي بما يروقني من أشخاص وأمكنة وافكار ، الدهشة كانت وستبقى دافعي للسفر والحب والقراءة وأكتشاف النفوس وأسرار الأمكنة ، مرة واحدة توقفت عن الدهشة عندما كنت لاجئة وحيدة في فرنسا ، لم أعد اندهش وانا المجروحة بالعنصرية والوحدة المطلقة ، لكن دهشتي كانت في ابهى تجلياتها عندما زرت إيران بعد زيارتي لمصر ولبنان . .

ها أنا في فردوس (أبو علي سينا) كما يدعوه الايرانيون ، ولابد أن يذهلني وجودي قرب إبن سينا عما سواه ، كان رفاق الرحلة مبهورين بالنصب العملاق المتشامخ فوق ضريحه ، طفقوا يصورونه من زوايا متعددة ، بينما وقفت وحدي استعيد بعض ماعلمته من قراءتي للشيخ الرئيس وابتهج بما أجد من قربه ، كانت كلمات ابن سينا تحليقا فلسفيا بأجنحة الالهام والفكر بعيدا عما هو أرضي وعابر في الحياة البشرية الملتصقة بالحاجة والضرورات وكذلك بدا النصب المرتفع فوق ضريحه . .

دخلت مبنى المكتبة الفارهة الذي ترفعه أعمدة رخام عملاقة ذات ايحاءات ساسانية ، ثم استدرجني إلى المزار المضاء بأشعة الشمس وبضع ثريات فوق ضريح الشيخ الرئيس إبن سينا عبقُ بخور

وعطور ماء ورد تحوم في الهواء وتتمازج مع أصداء الشعر وبعض موسيقى سماوية تطوف في فضاء المكان وتروي لنا بلغة اللغات ما لم نفلح في قراءته باللغة الفارسية من مقولات إبن سينا ، مخطوطات كتبه النادرة معروضة كجواهر نفيسة في خزائن زجاجية : كتاب الشفاء ، وكتاب الاشارات والتنبيهات تتوسطها نسخة مصورة ثمينة مخطوطة بماء الذهب والألوان لكتاب الشاهنامة أو (كتاب الملوك) الذي أبدعه الشاعر الفردوسي ، كانت مخطوطات الفيلسوف الشيخ الرئيس الأصلية محتشدة بالطلاسم والشروح على الحواشي ، مخطوطات مرسومة عن الطب وأخرى في الفلسفة والموسيقى والنفس وعلم الفلك والجيولوجيا والرياضيات والمنطق والكيمياء والفيزياء والشعر ، ياإلهي - كم تأخرت لأعرف انني لاأعرف الكثير عن إبن سينا ، وبعد عودتي إلى بغداد اقتنيت نسخة أنيقة من الشاهنامة للفردوسي وبعض كتب ابن سينا المحققة .

على العشب المخملي في المرج الشاسع استلقيت من عناء التجوال بعد ان اهتديت إلى ابن سينا ، خدرني خرير مياه النافورة الكبيرة بإيقاعه الرتيب فغفوت برهة ورأيتني اهيم في عالم آخر مع رجل الحلم : كان ثمة جبل تعلوه شعلة لهب وعلى السفوح كان آلآف من البشر يرتلون اغنية مرحة وينثرون أشياء لامعة كالنجوم ، وفي لحظة تغير كل شيء أختفى الجبل وظهر بحر ورأيتني في زورق ذي اشرعة ورجل الحلم يمسك بالدفة والريح تدفع الزورق بين الموج والسماء الذهبية ، وماكنت أفقه شيئا عن قيادة الزورق لكنني حاولت ان ابادله قيادة القارب حين ضربتني موجة طائشة ، وحاولت بعزيمة بطولية واستطعت بلوغ جزيرة صغيرة مقابل الشاطيء تجثم على أشجارها

المزهرة مئات من الطيور الغريبة، اختفى رجل الحلم، حاولت الهبوط من زورقي لاستكشاف جزيرة الطير لكنني هويت في الماء قرب الشاطيء وأوشكت على الاختناق غرقا فاستيقظت ضيقة الأنفاس، خيل إلي أنني اسمع إبن سينا يتحدث وتلاميذه يصغون مبهورين إلى حديثه عن النفس البشرية والهوى وتحولات النفس واخفاقاتها بين علوّ وانحدار ويقرأ عليهم عينيته الشهيرة عن النفس:

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تعزّز وتمنّعِ
وصلت على كره إليك ورُبّما
كرهت فراقك وهي ذات تفجّعِ
أنفت وما ألفت فلّما واصلت
أنست مجاورة الخراب البلقعِ
وأظّنها نسيت عهوداً بالحمى
ومنازلاً بفراقها لم تقنع

وانا في ذهولي واستمتاعي بسماع محاضرة إبن سينا أفقت على نداء صديقتي وهي تدعوني لأكون معهم في الصورة أمام الضريح، انشغل صحبي بكاماراتهم وانشغلت بما جئت من أجله وسهوت عنه وتهت في مرتقيات الفكر والشعر والموسيقى، وتمثلت قوله (**المستعد للشيء تكفيه أضعف أسبابه**)، قلت لها سألحق بكم، كانت ظلال أشجار الزان والصنوبر تحنو على افتتاني بالمكان والزمان الآخر، شجيرات القهوة تنثر أزاهيرها الوردية وكأنها تحدثني عن فضيلة الجمال في المعرفة وفضيلة الإصغاء إلى صوتنا الداخلي ورؤانا خارج الأمكنة والأزمنة وكان ثمة قراء يتفيأون ظلال إبن سينا، وعشاق يتبادلون

القبلات بين منعطفات الحديقة الفردوسية وخمائلها ، بينما يطل عليهم تمثال الشيخ الرئيس من عليائه مثل أب حنون يبارك الحياة وهي تترسم خطى الجمال .

كان لإبن سينا رأي مختلف في العيش والعلاج فهو القائل :

مسكنات الأوجاع : المشي الطويل والإنشغال بما يفرح الإنسان ، وهو الذي أنبأنا (أن قوة الفكر قادرة على إحداث المرض والشفاء منه) ، وتردد في مسمعي وأنا اقرأ مادونتُهُ عن ابن سينا في دفاتري مقولته البليغة في شأن مجتمعاتنا وغلوها واعتقادها بأنها الأعلى والأقرب إلى ملكوت السماء وبأن خيرهم هي الفرقة الناجية ، قال أبن سينا وكأنه يرى مايحدث لنا الان (بلينا بقوم يظنون أن الله لم يهدِ سواهم) . . .

خُيّل لآبن سينا أنه حلق مع الطير ، وتيقن أن الطريق محفوفة بالصيادين الذين يكمنون للطير لاقتناصها في شراكهم ، إلا أن الطيور التي تجرَّدت من الأهواء حلَّقت عاليًا وعبرت ثمانية جبال شوقًا منها للوصول إلى ذاك الذي يحرِّرها من شباك النفس : النيسابوري العطار وابن سينا البلخي والجاحظ البصري كتبوا رسائل فكر عن الطير وكم من انواع الطير تداولتها الحكايات والأقاصيص في أدب فارس والشرق عموما . .

حدثني صاحب مكتبة قرب البازار الكبير في طهران يجيد العربية بلكنة فارسية محببة عن اشهر أدبائهم ، وكان مولعا بصادق هدايت ومحمد مصدق ، كان الكتبي يجيد العربية نطقا وقراءة وأسعده أن يتحدث بها أمامنا ، اشتريت منه أسطوانات لأغان تقليدية وموسيقى كلاسيكية فارسية ونسخة عتيقة من كتاب (البومة العمياء) لصادق هدايت الذي إتخذ البومة رمزا لعماء حاضره وتشوش الرؤية وقد ترجم

كتابه إلى عشرات اللغات وكان على نقيض هؤلاء الفلاسفة والفقهاء المحلقين مع الطير والهائمين في هيولى التعاليم والوصايا والتأويلات الفقهية ولم يتحمل عبء الحياة المحاطة بـ«الاوباش» فانتحر بالغاز في التاسع من نيسان ١٩٥١ في باريس شارع سان ميشيل وقال يصف محنته مع حياته ويأسه :

«الخلاصة ، أنني صُدِمتُ من كل شيء وتعبت ولا مناص من أن تتحطم أعصابي ، إنني أصِلُ النهار بالليل كأنني محكوم عليه بالإعدام أو أسوأ ، وقد نفضتُ يديّ من حصيلة كل شيء ، لا أستطيع أن أشتاق ثانية لشيء ، ولا أن أعلق قلبي بشيء ، ولا أن أخدع نفسي ، ولا أجد الجرأة على الانتحار .»

تتجلى حالته الفصامية في كتابه (البومة العمياء) فيخفق هدايت في اكتشاف معنى لوجوده وحريته وهذا بسبب نظرته لنفسه وللآخرين وللعالم بشكل عام ، وهو فى صراعه مع تحولاته يهيمن عليه رفض قاهر للانثى كوجود وكيان ، ويبدو ان كراهيته للانثى كان نتاج مشكلاته الفصامية ، وتتضخم ازدواجيته عبر المواقف السائدة تجاه النساء في إيران الامبراطورية . بومة صادق هدايت العمياء تناقض طائر السيمرغ النوراني الهادي : فهي كناية عن قدر مروع وفاتك وانثى مناقضة لكيانه الذكوري المضطرب .

كان ابن سينا يفيء هو وطيوره - بعد رحلة الأشراق الروحانية - إلى أرض الناس مجتازا الجبال الموحشة والوديان السحيقة التي سنسلكها دون دليل من ريشة طائر مسحور أو خفقات طائر السيمرغ ، دليلنا شهوة الكشف وانبثاق دهشة في كل طريق وعند كل بحيرة وجبل . .

طهران
بين قصر كلستان وشارع روزفلت

طهران مدينة الفيروز وبازارات التحف والتوابل والصناعات الشعبية والنساء المقدودات من لهب وزعفران تلقي دثار السلطة على الشمس وتخبئ وهجات العشق تحت الشادور المنقط ووشاح الحرير، بينما يعلن الرجال أهواءهم على مرأى من الشمس وشجر السنديان، النساء الفارسيات سليلات الجمال المعتق، باسلات أنيقات الروح والمظهر، يحولن الشوارع إلى فراديس معلنة، فتتسع وتتسع حتى لتغدو أفقاً وسماوات ومهرجانات فرح..

بهرتني في إيران الامبراطورية شوارع طهران الفارهة العريضة ذات المسارات العشر وهي تحمل اسماء رؤساء دول كبرى: روزفلت وتشرتشل وديغول وربما كندي، ولابد ان أسماء هؤلاء مُحيت من ذاكرة المكان بعد السقوط المدوي للإمبراطورية، شوارع ممتعة بأناقتها وأشجارها الباسقة والنساء الفاتنات اللائي يقدن السيارات المفتوحة ويرتدين آخر مبتكرات الأزياء وتدهشك رقة الناس ومودتهم فالكل يتبرع لمساعدتك بوجوه رضية تفيض انسانيتها لطفاً وكرماً وتحضراً..

للمطبخ الإيراني سحره الذي يحيلنا إلى الف ليلة وليلة وقصور الأباطرة وفنون الغواية التي تحسنها النساء الشرقيات، وهو سحر متمم لأماسي الحب واحتفالاته الطقوسية وسهرات الفن والموسيقى

الفارسية . تمتد جذور ثقافة الطعام في إيران إلى عصور حضارية موغلة في القدم، وهي نتاج امتزاج تقاليد فارسية وكردية وتركمانية ومغولية وهندية وعباسية، فثمة إيحاءات غواية وترف مفرط في أسلوب الطعام الفارسي ومذاقاته التي تستدعي النشوة والمتع : توابل متوازنة ومثيرة ووصفات برعت فيها مطابخ القصور وسيدات الطبقة المتوسطة، فيفيض العسل من معظم الوصفات مع الزعفران، وتنافس توابل الهند بخور مسقط وماليزيا الذي يحرق حول الموائد، أطباق العشاء طقوسية كأنها وليمة مقدسة : رز مزعفر مكلل بالشواء، مخللات ثوم وتفاح وإجاص وسلطات، ومربيات أترج وتين، شيرين بولو أرز ممزوج بالكرز والزعفران، وكباب كوبيدة، وقورمة سبزي، أعشاب سحرية وتوابل تستفيق معها شهوات الحياة، لحوم الصيد البري في مطاعم القرى على الطرق البعيدة تعيد أمجاد صيادي الأرستقراطية العتيقة أو بدائية العيش في العصور الأولى، يملحونها وَيتبلونها، ينقعونها بشراب سحري واكليل الجبل والثوم والزعتر البري، ، في طهران ألف مطعم يدعوك اليه بروائح الأطعمة التي تستدرج الأجساد والأرواح : قرنفل وقرفة وكمون وأغصان كركم أخضر وبخور، شواء وأعشاب نضرة قطفت توا من حدائق المتع . .

كراسي المطاعم متوسطة المستوى من خشب ساج والمفارش منقوشة بموتيفات تراثية، وثمة طباخون بشوارب مفتولة ووجوه باسمة يشوون المُرغ - الدجاج على فحم شجر الدردار -، رائحة كفتة نخودشتي ومورسا بولو تملأ المكان بأشذاء قشر برتقال والفلفل والزعفران، على الموائد أطباق حلوى مغمورة بالفستق والكرز، حلوى الشوليزارد والزلابيا، أطباق ملأى بثمار الكرز والخوخ والمكسرات،

المطبخ الإيراني جنة عشاق الطعام وقنّاصي الملذات .

المتسولون يشكلون ظاهرة ملازمة لشوارع طهران : لدى مدخل البازار الكبير وعند أبواب المطاعم ، هنا يمكننا ان نرى التناقضات الصارخة ، الغنى الفاحش والفقر المدقع ، جمال المدينة الأسطوري وبؤس الريفيين الجياع ، ثمة خط مظلم يحيط بالمدن الكبرى هو حزام البؤس الانساني ، وقشرة حداثية مبهرجة يمثلها الشباب والفنانون والنساء المترفات اللائي ينظرن إلى العالم من علّ مزهواتٍ بالصبا والترف والجمال الباذخ ، مقابل قشرة الحداثة التي تعلن المزاج الامبراطوري ثمة وجه آخر لبلاد فارس ، فلم أر في أي بلد من قبل هذا العدد الهائل من المتسولين في المدينة والشحاذين المعدمين على طرقات الارياف الخارجية وبين الممرات الجبلية والقرى الطينية والحجرية .

تعكس نوادي طهران الليلية الشهيرة وجه ثقافة البورجوازية المولعة بالجمال المظهري والموسيقى والرقص والمتع والعيش المؤقت في نعيم الملذات ، تقوم الملاهي بدور المطعم الراقي ومسرح المنوعات وتقدم مشاهير المطربين والمطربات والفنون الكلاسيكية والشعبية من موسيقى ورقص وغناء ، سهرنا في أحد هذه النوادي التي هي نظير حدائق فردوسية كتلك التي يصورها كتاب الشاهنامة أو قصائد الخيام : نوافير وأشجار مزهرة ومتسلقات ورود وخرير مياه شلالات مصطنعة ، هنا يصبح الفن والجمال مصدر زهو لمترفي طهران ويصير مصدر حسرة للمحرومين .

اقترح علينا أحد الندل ان نزور قصر (كلستان) أو (كاخ كلستان) قصر حديقة الورود فهو جنة أرضية بنيت في القرن السادس عشر في عهد الملك طهماسب الصفوي وسكنه الملوك القاجاريون ، في القصر

اعجوبة قاعة المرايا التي تحوي عشرات آلاف قطع المرايا في سقفها وجدرانها تخبرنا عن أهم فنون العمارة الفارسية التي استخدمت في تزيين المقامات المقدسة في إيران والعراق . .

ثمة قاعة الهدايا والتحف الامبراطورية المهداة من أباطرة وملوك العالم للملوك القاجاريين والعائلة البهلوية ، رحلوا جميعا ولبثت التحف النادرة برهانا على البذخ المبهر والذوق المرهف في قصور الأباطرة : تحف مصنوعة من الذهب والفضة والبورسلين الراقي المزين بالذهب والمزهريات المرصعة بالأحجار الكريمة وثريات الكريستال البوهيمي ، ولوحات وتماثيل لأعظم فناني العالم ، عرش الطاووس الامبراطوري الفخم االذي استخدم في حفل تتويج شاه إيران محمد رضا بهلوي ، عرش مطعم بالذهب والياقوت والزمرد والماس وقد فرشت أمامه سجادة صغيرة تعد تحفة فنية لانظير لها في الشرق والغرب ، منسوجة بخيوط الذهب والياقوت والزمرد والزبرجد والفيروز ، **فخامة الموجودات وقيمتها التي لاتقدر بثمن تبهر الأنفاس وتشعر المرء بالضيق وتقول للزائر أنها اكثر مما ينبغي لحياة بشرية زائلة ، وأكثر مما يجب للبذخ الامبراطوري الفائق** ، عصافير الحديقة وطواويسها وفراشاتها وأسراب البط والببغاوات في البركة لايعنيها ذلك الغلو البشري فهي تكتفي لتحيا بنسمة هواء وبضعة ثمار أو أسماك صغيرة لتديم حياتها وتتمتع بلحظتها في البركة أو فوق شجرة منوليا أو على زهرة تفتحت للتو . .

البازار

ربما عُدّ بازار طهران في زمن الشاه من أغنى أسواق العالم بالمجوهرات والتحف الشرقية والحلي النفيسة ومنتوجات الحرف اليدوية

فهناك محلات متخصصة بأحجار الفيروز الإيراني الخام والمصنّع، ومحلات مخصصة للؤلؤ والمرجان وصاغة يعرضون الأحجار الكريمة من الزمرد الكولومبي والزفير التايلندي والياقوت الأحمر والأصفر، وثمة فنانون حرفيون يطبعون النقوش الفارسية التقليدية على مفارش وقمصان من أنسجة قطنية يدوية ويعرضون أعمالهم امام العابرين ودكاكين للسجاد الثمين الحقت بها قاعات لنسج السجاد تعمل فيها فتيات ونساء، الزعفران الايراني يباع كما الذهب أو بسعر الذهب، وتتجمل به أطباق الرز البخاري والحلويات، **كل شيء هنا لتلبية متع الحياة وتجميل الزمن ونسيان النهايات الآتية لامحالة..**

العشاق في كل مكان: في المتنزهات الشاسعة والمنتديات والمقاهي والمطاعم والأسواق، الحب معلن بلا خوف ولاتأثيم والحياة طائشة إلى حد الثمالة، وثمة في القرى خارج طهران خانات وغرف للإيجار،، بعد مرورنا بمدينة كرج والسد الشهير نمضي على الطرق المؤدية إلى اقليم مازندران، يلاحقنا فتية صغار، يشيرون إلى بيوت تشبه الخانات القديمة على طريق الحرير: غرف متقشفة ذات أفرشة بسيطة وخدمات بدائية، وصاحب الخان وزوجته، يقومان بذبح الدجاج وطبخه مع الرز والمكسرات، نبيت في أحد هذه الخانات العتيقة ونتناول خبزا ساخنا من فرن بدائي ونقطف زهورا واعشابا شذية من حافات الوادي قبل ان نتوجه إلى الطريق المؤدي إلى جبال البرز..

قيظ ظهيرة آب، صخور متوهجة وهواء ملتهب كأنه منبثق من قلب صحراء مشتعلة، علينا ارتقاء طريق مرتفع لبلوغ نفق كندوان الذي يخترق جبال البرز نحو الشمال البحري، أنهكنا الحر والهواء

الصحراوي الساخن الذي تضاعف وهجَهُ الجبال الصخرية ولابد أن نتوقف بعض الوقت عند مدخل النفق لاسترداد انفاسنا وتبريد محركات السيارات ، نقرأ أن طول النفق نحو كيلومترين ويستغرق عبوره ربع ساعة ، أنهكنا الحر وَكان لابد ان نرتاح ونحتسي المشروبات الباردة التي تباع في دكان صغير مظلل بأغصان الشجر ، كان النفق مضاء بمصابيح مشعة وتسيل من بعض جدرانه عيون ماء صغيرة ما ان بلغنا نهايته حتى فوجئنا بأننا وسط كتل من السحب المنخفضة والطريق يجتاز فردوساً من الحقول النضرة ووديان الأنهار والغابات والزهور والشلالات . .

مررنا بطريق يحاذي غابات أزلية عذراء ملتفة يصعب اختراقها وقد سورت اطرافها لمنع الضواري من مهاجمة طريق السيارات ، وعند جانبي الطريق المطل على وديان سحيقة كانت فتيات صغيرات شقراوات وصبيان يبيعون للعابرين سلال الكرز والتين والخوخ وحزما من الزهور البرية والأعشاب العطرة ، كنا نتوقف ونشتري منهم باقة ورد وسلة كرز صغيرة ، وطاقيات منسوجة يدويا بخيوط صوف ملونة ذات زركشات تقليدية .

بين حين وآخر تفاجئنا وعول وغزلان وقنافذ تعبر الطريق من الغابات العذراء إلى الوادي مما أرغمنا على ان نقود سياراتنا بحذر وبطء ، في تلك البرهة من هدوء الطبيعة وجمالها المدهش وانبثاق روح البراري من الشجر وهمهمة الحيوانات وأشذاء الغابة وحفيف العشب ، خاطبت هذه الروح أعمق أعماق الانسان وانتشلته من حضارة المدن الزائفة ، أحسست بأني أعود إلى الفطرة الأولى : إمرأة من سلالة برية وجدت موطنها وملاذها ، لست ملائمة لعيش المدن والتعامل مع

أناسها ، استسلمت لراحة متناهية وبهجة غير مسبوقة حتى أنني شعرت بنوع عجيب من الخدر في اغفاءة طويلة امتدت نحو نصف ساعة ثم افقت مبهورة على رائحة شذا منعش لذيذ ممتزج بنسيم ماقبل الغروب وصحت : توقفوا ثمة شيء سحري في هذه الحقول ، هبطت من السيارة وحدي وهرعت نحو الحقل الفواح بالأشذاء العطرة وسألت الرجل الذي كان يقطف البراعم في سلة كبيرة ان يعطيني غصنا من حقله ، قدم لي الغصن الأخضر الفواح بأطيب عطر وتشممته واثملتني رائحته العجيبة ، رأى الرجل دهشتي وانسحاري فقال : انه الشاي . .

جلست بين العشب وازاهير الشاي وتناهى إلى سمعي هدير امواج البحر ، كانت لحظة من لحظات فارقة ، إذ خلتني حقا وسط فردوس أرضي آمن ، أشجار كرز مثمرة وبساتين تفاح وجداول وعطور وعصافير وشمس ذهبية حمراء تكاد تغطس في أفق البحر ، ناداني رفاق الرحلة المتعجلين دوما للسفر لبلوغ مدينة تشالوس قبل هبوط الليل دون أن يدركوا ان هدف الرحلة ليس المبتغى وانما اكتشافات الطريق . .

تشالوس
منتجع بحري، غابة وجبل وبحرقزوين - أو درياي خزر

سحرتني هذه المدينة الصغيرة المنذورة للموج والعشاق ، تسبب موكب الشاه وسيارات حمايته في تأخير وصولنا ، استوقفتنا سيارات الأمن قبيل وصولنا للمنتجع ، كانت الشاهبانو فرح والشاه يلوحان من وراء زجاج السيارة الملكية المصفحة للحشود المنتظرة على جانبى الطريق ، وقف إلى جانب سيارتنا رجل أمن شاب تعمد ان يلاطفنا باللغة الانكليزية ولكنه لبث يتابع تحركاتنا ولم نستطع الترجل إلا بعد مرور موكب الشاه المتّجه إلى القصر الملكي في المنتجع الامبراطوري (رامسر) . .

احتلّ باعة الزهور كابينات أنيقة بين الشاليهات والبحر ، اشتريت باقة زهور غلاديوليس وضعتها في شرفة الشاليه الجميل الذي يبعد نحو مائتي متر عن الشاطيء وفي هذه المسافة تمتد حدائق الزهور وأشجار الزينة المزهرة والمظلات التي تستلقي تحتها السابحات الشابات بثياب البحر . .

تركت رفاق الرحلة يستريحون واستأجرت قاربا صغيرا اسمه (فردوسي) لأتجول وسط الأمواج الناعمة وأطل من جهة البحر على القرى المتاخمة ، حدثني الفتى النحيل الذي يعمل لدى مالك الزوارق أن أجره اليومي لايكفي لإعالة أمه وإخوته الخمسة بعد غرق والده

الصياد في البحر ، وكان لابد لي بعد هذه القصة المحزنة أن أضاعف له أجره ، حتى علمت من سيدة إيرانية جميلة كانت تستأجر شاليهاً مجاوراً مع ابنتها الشابة أنه يروي هذه القصة يوميا على مسامع المتنزهين ، ، ، وأنا في القارب رأيت مشهدا عجبا يمتد على يمين المنتجع ، فقررت السير على الشاطيء صباح اليوم التالي للوصول إليه .

إنتظرت بزوغ الشمس على البحر صباح اليوم التالي وسرت على الرمل الندي حتى بلغت مصب الشلال في البحر ، ثمة جبل يعانق البحر ويهبه الماء العذب روح الحياة ، غابة تتوهج ألقا على السفوح ، طيور الماء تعابث الموج أو تخفق باجنحتها في ماء الشلال المنحدر صوب بحر قزوين ، ربما كان هذا المشهد المشرقي أجمل مشهد طبيعي رأيته في الشرق : شمس تنهض من الليل وتسكب نورها المذهب على الموج والكائنات وشجر الصنوبر والدردار والجوز ومياه الشلال الهادرة ، ثمة زوارق تقترب من مصب الشلال وتستدير بمن فيها نحو عمق البحر تعابثها النوارس وتتقافز الاسماك حولها ، كان الشلال العظيم ينحدر من جبل يحاذي البحر وتمتزج مياهه الدفاقة بمياه البحر المالحة وعلى جانبي الصدع الجبلي الذي صنعه الشلال طوال آلاف السنين كانت تنتشي تحت الشمس غابات البلوط والجوز وبعض الصنوبريات واشجار البطم والفستق ، وتتطاير من بين الشجر الملتف طيور ملونة نسمع أغاريدها ممتزجة بهدير الشلال المائي المندفع نحو البحر في هيأة نهر له دلتا رملية واسعة تتفرع فيها أذرع النهر المتعجل لعناق البحر .

حفل الشاي

زفير السماور النحاسيّ الذي اشتريناه من مدينة قزوين يناغي

غبش المساء مع أشذاء الفل والقرنفل الناعس في الأحواض ، سماور مصنوع في سيباستبول ، أشعلتُ في جوفه فحم شجر الدردار وأترعتُ بماء النبع إبريقا خزفيا من صنع خزّافي الممالك المغولية : ففي مدن الشواطئ تباع البضائع الروسية والكازاخستانية والاذربايجانية وصناعات تركمانستانية ، الغلبة كانت للصناعات الروسية التي تنازع ايران على نفط قزوين : دمى الماتريوشكا والسماورات وأطقم الملاعق الفضية والحلي المصنوعة من الكهرمان والفضة المحروقة والشالات التقليدية للريفيات الروسيات معروضة على الساحل . .

وضعت على مائدة صغيرة أكوابا خزفية مذهّبة أبدعها حرفيو باكو الآذريون ، نسيهم الله والنجوم على شواطئ قزوين منذ ثورات وجيوش حمر وقوزاق بيض ومساجد وكولخوزات ، أكواب لاعمر لها ، ولها مذاق شاي سلطانيّ وشذى مساء مغوليّ في سهول قرقوم ، لكننا هنا على الجانب الايراني من اكبر بحر مغلق في كوكبنا ، ولا أحد يعلم متى أبدع الحرفيون المجهولون هذه الأكواب البديعة ودجنوا الغرانق رسوما على الأكواب الرقيقة وأطلقوا شهوات الكافيار الأسود من أسماك قزوين على أطباقها المنقطة . .

هيا إلى شراب القديسين : هذا الشاي الذي نحضره على السماورات وله طقوسه وطرائق صنعه التي لا تجيدها سوى النساء الحالمات ، وها انا الحالمة الأبدية التي تتقن صنع الأعاجيب بقوة الشغف ، شايا مترعا بالسحر ، أصنعه من براعم شاي السهل المطلّ على بحر قزوين . .هو شاي لا يناظره سوى شاي في حلم ملكيّ أو معراج إلى رؤيا مشتهاة . .

من كيس ورقي حفظته في حقيبة يدي أخرجت براعم الشاي

الصغيرة التي قطفتها من حقل الشاي الذي مررنا به ، أسخن الإبريق الخزفي ثم أضع البراعم والماء المغلي وحبات الهيل ، تتفتح البراعم كنجوم غامضة في الإبريق وتمازج النور بالشذى ولذع المرارة برحيق الالهة . .

بودابست:
رابسوديات فرانز ليست وأغاني الغجر ولوحات فازاريلي

بالقُرْبِ مِنْ مَقَابِرِ الغَجَر
رُكَامٌ قاسٍ مِنْ رِمَمِهِم يَتحوَّلُ إلى حَجَر
فَقَدْ خَبتِ النّارُ فِي عيونِهم الذِّئبيّةِ
والجذورُ تَكِدُّ فِي حُجراتِ قُلوبِهِم
تتأرجَحُ مِنْ فوقِهِم خيمةٌ مِنِ العُشب
لمْ يَلْحظوا أنهم قد غَادَرُوا هذا العالَم
وَمِنْ بَينِ أيدِيهِم الصلبَةِ
تَنْمُو أشجارٌ خَشِنَة . .
أقْدَامُهُم الجافَّةُ تَقْطُرُ النُّجومَ
فَوْقَ حُقُولٍ مُبَلَّلَةٍ من السّحاب .

الشاعر الهنغاري الغجري كاروي بورا

مع الغجر السيغان على الدانوب

بدعوة من مجلة هنغارية للأدب الجديد تعرفت إلى مدينة بودابست ، الدانوب الذي يجمع بين قسمي المدينة أو يفرقهما لم يكن أزرق أبدا كما أوهمتنا فالسات شترواس ، لكنه كان مبهرا لفرط اكتماله بجمال الطبيعة من حوله ، بالجبال والمروج والهضاب الخضراء وسحر

العمارة الكلاسيكية وعند منعطفات الدانوب انهمرت عليّ موسيقى فرانز ليست ووثقت لحظات الزمن بلونها الذهبي وجعلت الطريق ممتعا إلى بودابست الساحرة التي يمنحها الدانوب سعادة احتضانه من جانبيها : بودا وبست .

مع رجل الحلم أقيم جوسقا من خشب الورد تترامى حوله أستارٌ زخارفها أقحوان بابلي وأشجار سرو آشوري وغزلان وطواويس هندية وفيلة بيضاء وتنانين طائرة وأشباح ملائكة هي شياطين عاطلة حُكِمَ عليها باستحالات الجسد من النار إلى الهواء لتعزف موسيقاها في ليلة الشاي ، وفي الجوسق متكأت لاتتسع لسوانا : أنا ورجل الحلم وقمر أزرق مستوحد ينهمر نوره على الغابة والنهر . .

في جولاتي خارج بودابست رفقة الصديقة الهنغارية شئنا أن نرتاح عند غجر تنتشر عرباتهم وكرفاناتهم المتهالكة في غابة تنحني على الدانوب وهم يمرحون بين اشجار الدلب والصفصاف ، هناك يفرد لنا الغجر- السيغان كوخا لنستريح فيه ، وقبل انحسار الغسق نقيم حفل الشاي في اللامكان : نقترح يوتوبيا تشاركية مضادة ليوتوبيات أفلاطون والفارابي وتوماس مور ، يوتوبيا تدحض كل قاعدة مسبقة وتعلي شأن حاضر يتوهج في اللحظة القائمة وتتفتح الحياة بلا بهارج فوق أنقاض الايديولوجيات الغاربة فنحتفي بالموسيقى والضحك ورقصات الغجريات شبيهات اللهب وهن يتألقن وسط أخضرار الغابة وهمهمات الطبيعة .

نمضي سهرتنا معهم وهم يحتسون أشربتهم القوية وترياقات اليقظة ونشاركهم رقصهم الحر اللامسمى ونردد أغاني عشقهم ولوعتهم العتيقة المجلوبة من وادي الإندوس الهندي وشطآن كلكوتا وسهوب بلوجستان ،

نتلمس في أغانيهم حريتنا الممكنة ، يضحكون منا طويلا ونحن نحاول تهجي لغة السيغان المتمردة على لغات الأقوام كلها ، نقلد نبرتهم الحارقة بأصوات خجلة ، نتمتم ونقضم شواء لحم الطرائد المسروقة التي قنصوها من فخاخ الصيادين ، يقدمون لنا حساء شهيا يسمونه حساء قطاع الطرق أو حساء اللصوص ، به من كل الخضار والحبوب وانواع اللحوم والأعشاب العطرة والمذاقات ، حساء قطاع الطرق هو تجميع لكل ماتقع عليه ايدي اللصوص من أطعمة تتاح سرقتها من المزارع والحظائر والبيوت ، كل شيء مختلط بكل شيء شأن القبيلة الغجرية : كل طفل لديهم مجلوب من نطفة بلد ، وكل سيغانية تستبضع جنينا من عابرين أشداء لتقوم قيامة القبيلة الغجرية الهرمة الموشكة على الإنقراض وهي في تيهها المؤبد بين الأمم ، أطفالهم حساء لصوص وقهوتهم ترياق نسيان ، وعبورهم فخ غواية بين التخوم والعربات المتهالكة .

نضحك ونحن نتحدث اليهم بلغة الإشارة فيستغرقون في الضحك من بلاهة اللغة اللامنطوقة ، نحتسي شايهم الأخير وقهوة عرافتهم الجليلة التي تصلصل اساورها كلما رفعت يدها وهي تشير إلى نبؤات السماء وإشارات الطبيعة وتلاوين القمر ، قبيل خمود لهب الموقد عند سفح التلة المتآخية مع أجراف الدانوب تأمرنا العرافة أن نذعن للصمت ، ان ننصت لصوت النهر ، لهمس أشجار الغابة ، لخشخشة الحشائش تحت انزلاق الزواحف ، ان نصغي لسقسقة عصافير النار ، تأمرنا العرافة أن ننسى أجسادنا ونستحيل إلى أرواح مجنحة بوسعها مغالبة الزمان ومغادرة الامكنة .

تقدم لنا العرافة حلوى بذور الخشخاش معجونة بمربى الكرز ، تقول :

- هذه نعمة الله التي قدّرها لراحة القلب . .

مخيم الغجر يمضي صعدا نحو الجبال في عربات مزينة بالرايات والصنوج ، غير آبه بالحدود والجوازات وتأشيرات المرور ، يمر كأنه الريح أمام كل سلطة فلا توقفه نظرة الذئب ولا تصده نظرة التنين ولاتحديقة الافعى . .

نلحق بالقافلة الضالة في أسطورة التيه الغجري المؤبد ، تفترق طريقنا عنهم فنبلغ بودابست المدينة التي تكاملت من دمج مدينتين : بودا وبست ، نهرها الدانوب الذي تحتضنه الحدائق والقلاع في أجمل حالاته وأصفى سجاياه وتنعكس عليه اشباح قلعتها العتيقة ونصب شعرائها وألوان أشرعة القوارب وأشجار المتنزهات الشاسعة وزهو الضحكات عند الضفاف . .

نعبر جسر اليزابيث من القسم الشرقي للمدينة (بست) إلى قلعة بودا الشهيرة المقامة على تلة تطل من الجانب الغربي المرتفع على الجانب الشرقي من المدينة ، صديقتنا الهنغارية تقترح علينا زيارة متحف الفن الحديث بعد القلعة وزيارة القصر الملكي المهيب ، ، ، في متحف الفن الحديث ثمة جناح مخصص للرسام الهنغاري -الفرنسي فكتور فازاريلي أول من ابتدع الفن البصري بلوحته الشهيرة (الحمار الوحشي) المرسومة بالأسود والأبيض (Op Art) ، قرأت في كتيب المتحف أن في مدينة (بييتش Pecs) جنوب البلاد ثمة متحف كبير مخصص لفازاريلي في بيت طفولته تعرض فيه معظم اعماله ، نقرر زيارته في الغد ، تفتتني في إحدى قاعات متحف الفن الحديث لوحات في مراحل عمرية مختلفة للموسيقار العظيم فرانز ليست الذي أعشق موسيقاه ، أطلب من مرافقتنا - رئيسة تحرير المجلة - أن نحضر ليلة موسيقية مخصصة لفرانز ليست . .

رابسوديات فرانز ليست

رابسوديات العصر السعيد

نمضي ليلتنا السحرية نستمع إلى الرابسوديات الهنغارية الشهيرة للموسيقار فرانز ليست أحد عظماء الموسيقى الرومانسية يعزفها على البيانو عازف كهل تضيء هالة شعر بيضاء ملامح وجهه النحيل، طلبنا منه أن يعزف لنا الرابسودي رقم ١٣ فصاحبه في العزف عازفو الكمان والكلارنيت والباص والسمبالوم فجاءت المقطوعة غاية في السحروالجموح والتلاوين المتناقضة التي تحيي الروح الوثابة لفرانز ليست العاشق والمجدد والشغوف بالحياة والموسيقى والنساء .

بعدها عزفوا الرابسودي رقم ١٩ ذات المزاج العاصف المعبر عن انتفاضات الروح والجسد، يتبدل مزاج الرابسودي خلال ثوان متنقلا بين الألم الجارح والمرح الصخّاب : زوابع صوتية قاتمة وكئيبة وصادحة بالنشوة، بعدها يرتد العزف إلى القرار العميق الحزين وهي آخر مقطوعة كتبها فرانز ليست قبيل وفاته وكأنها مرثية نبوئية يختم به حياته الصاخبة .

كنت في بغداد أطيل الاستماع إلى أعمال فرانز ليست التي أهداني إياها ابني الذي كان يدرس الموسيقى في كونسرفاتوار سان بطرسبورغ، ومع أعمال ليست مجموعة اعمال تشايكوفسكي ورحمانينوف وشوستاكوفيتش وأعمال بتهوفن الكاملة . استوحيت قصتي (رابسوديات العصر السعيد) من موسيقى الرابسوديات الهنغارية لفرانز ليست والبحث في حياته الدراماتيكية، وها انا في بلاده أصغي لموسيقاه الحية التي كتبها للأسيانين والمنذورين للمحن، كتبها مرثية للأرواح المهددة تارة وللاحتفاء بالعشاق والمتمردين الكبار تارة أخرى،

هو الذي شغف بالموسيقى الدينية وموسيقى الغجر منذ سن السادسة وبدأ يعزفهما . .

تتقدم فرقة عازفين غجرية لتعزف الرابسوديات الهنغارية بأسلوب مختلف : رجال هم مزيج من الظلمة والنار وقد شدت جلودهم القاتمة اللامعة على عظام وجناتهم كأقنعة من مطاط مزيت بملابس شعبية مطرزة بوفرة من النقوش ، كانوا يبتسمون ويعبسون ويعبرون عن الأسى والحزن والخيبة بوجوههم وهم يعزفون الرابسودي رقم ٢ المقطوعة البطولية الممتزجة بلحن رقصة شعبية هنغارية ، وهي المقطوعة التي تعبر بصدق عن فرانز ليست العاشق ومعشوق السيدات في فيينا وبودابست وباريس وبرلين ، الرجل الذي كانت تطارده النساء في كل مدن اوروبا وكأن نبؤة والده عازف البيانو كانت تتحقق على امتداد اوربا :

- ولدي أخشى عليك من النساء ، أرى انهنّ سيؤثرن في تحديد مستقبلك . .

احدى الكونتيسات عرفت بهوسها الجنوني به ، احتفظت بعقب سيجارته في قلادة ذهبية لبثت ترتديها حتى وفاتها وعشقته الكاتبة الفرنسية جورج صاند ولولا مونتيز بطلة رواية غادة الكاميليا والاميرة كارولين فتغنشتاين ابنة العائلة المالكة البولندية ، مثله اشتهرت ابنته كوزيما الحسناء ، كوزيما التي تزوجها فاغنر وجُنّ بها نيتشة وكانت ملهمة العظماء في زمنها وقد ورثت منه جمالها وجرثومة العشق الجامح المدمّر .

كانت الرابسوديات المتوهجة المتقلبة المباغتة في صداحها وخفوتها وجموحها وجنونها هي الموسيقى المعبرة عن مزاج الموسيقار العاشق المتقلب بين عشق النساء والتدين والشك وعدم الاستقرار في مكان أو

موقف ، أحبه المثقفون الأروبيون : فيكتور هوغو ولامارتين وهاينريش هاينه ، كان معبود جماهير أوربا في سنوات الاربعنيات من القرن التاسع عشر وعرف بأنه كان يقود الجمهور إلى أعلى مستويات النشوة خلال عزفه على المسرح ، وتتزاحم عليه النساء المرموقات ليحظين بمناديله وقفازاته وبعض سجائره واوراقه لآرضاء النزعة الفيتيشية عندهن عن طريق عبادة اشياء المحبوب المادية . .

ليلة في دار أوبرا بودابست

أوبرا زواج الفيغارو لموتزارت

المرافق الشاب الذي تعلم العربية في جامعة دمشق واسمه لاسلو ، فاجأنا ذات صباح بحصوله على تذاكر لحضور اوبرا زواج الفيغارو لموتزارت في دار (اوبرا بودابست) : كانت القاعة مكتظة بعشاق موتزارت ، رجال ذوي اناقة كلاسيكية مفرطة وسيدات مسنات يمنحهن بريق الماس سلطة وحضورا وسط أعمدة المبنى المذهبة وطراز عمارة الروكوكو ذي الزخرفة المفرطة ، ثمة تماثيل أطفال بهيأة ملائكة مجنحين يحملون الأعمدة العملاقة على اكتافهم الغضة ، نساء فاتنات منحوتات بالرخام ، تماثيل لبيلا بارتوك وفرانز ليست وغيرهم تزين قاعة الانتظار ذات الأبهة الباهرة والزائدة عن حاجة الانسان الذي يعشق الموسيقى ، كنت على ولعي بموسيقى موتزارت أجهل أوبراته ، فاكتشفت ان روح موتزارت هي ذاتها سواء في ليلياته الصغيرة (آين كلاين ناخت ميوزك) أو في سيمفونيته الرائعة رقم٤٠ أو سمفونيته رقم ٤١ أو في كونشرتاته المختلفة .

افتتنت بالموسيقى وغناء مغني الاوبرا والاخراج المبهر والمزاج

الكوميدي لزواج الفيغارو ، ودفعني الافتتان الروحي والانسحار إلى الانفصال التام عن كل ماحولي وكأنني بلغت تخوم المطلق اللامحدود : فقدت الإحساس بالزمن والكينونة فما عدت أعرف من أكون وما اسمي وولجت زمنا ومكانا مجهولين لبرهة حسبتها خارج الزمن ، غمرني اللون الأخضر الزمردي لون موسيقى موزارت ، أخضر متأجج نقي بدأ يشتعل في عتمة القاعة المهيبة ، كان اندفاع الموسيقى الخضراء أشبه بانبثاق نافورة ، كنت في ذهولي وحالة الوجد ونشوة الموسيقى قد تحررت من الزمان والمكان وتخطيت وضعي الانساني المحدود وتوقفت الذاكرة عن معرفة اي شيء وتحولت بمعنى التخلي عن الوجود المادي وانتزعت حضوري من المكان وعندما اسدلت الستارة لم اكن ادرك اين انا ومن أنا فتوقف انذهالي وانفلاتي من الزمان والمكان وغمرني احساس شجي لا هو بالحزن ولاهو بالفرح ولم استفق من ذهولي إلا على ضجة الحاضرين يغادرون القاعة ، واذكر انني بكيت لحظتها لفرط احساسي بحريتي في الاندغام بالكون وخروجي من حالتي البشرية المحدودة .

في متحف فازاريلي

تفخر مدينة بيتش المجرية بأنها مسقط رأس الفنان العالمي فكتور فازاريلي مبتكر الفن البصري ، المدينة التي احبت وكرمت ابنها الفنان تحولت بعض احيائها إلى متحف مفتوح في الهواء الطلق لأعمال الفنان ، فثمة في المتنزهات والشوارع نصب سيراميكية وواجهات عمارات زينت بلوحاته وهناك نوافير من تصميمه وجداريات ملونة تزين متنزهات المدينة المحظوظة التي تبنت بلديتها أن تروج للفن

التشكيلي ولتصبح متحفا حيا ومجانيا لأعمال فازاريلي اضافة لأحتضانها متحفه المقام في منزل طفولته وهو يضم جملة أعماله المبكرة من لوحات ومنحوتات وتخطيطات قبل هجرته إلى فرنسا . تقوم أعمال فازاريلي على أفكار علمية وهندسية ولها تقنياتها والوانها المميزة ، يتخلى فازاريلي عن الرومانسية والانطباعية ويختط لنفسه نهجا خاصا من ابتكار مخيلة خصبة تعتمد التشكيلات الهندسية المجردة المتكررة والمتشابكة لتوجد خداعا بصريا جراء التذبذبات المتواصلة في علاقة الموضوع بالوانه وحركة اشكاله ، ولأجل صيانة المتحف الدائم كانت ادارة المتحف قد طبعت مئات النسخ من اعماله المبكرة المشهورة لدى باب المتحف ، اشترينا اشهرها : لوحة الحمار الوحشي ولوحة العاشقين بالابيض والأسود .

ونحن في المتحف جاء اطفال روضة صغار مع معلمتهم ، وانصرفت مشرفة المتحف تروي للصغار قصة حياة فازاريلي وتشرح لهم اللوحات بتركيز مميز اذ تسلط على اللوحة المعنية ضوءا سبوت لايت يحصر انتباه الصغار عليها دون ان تشتت انتباههم بقية الأعمال المعروضة على الجدران أو على الارض .

ساحة فرانز ليست - شارع اندراشي

تماثل كثير من معالم بودابست معالم العاصمة الفرنسية باريس : فشارع اندراشي تمثيل هنغاري مصغر لشارع الشانزليزيه الشبيه له في خصوصيته ايضا ، ففيه تحتفي المدينة باطلاق اسم فرانز ليست على أهم ميادينه ، ويطل مبنى اكاديمية الموسيقى على ساحة ليست فقد كان فرانز ليست أحد الذين أداروا الاكاديمية وروّج من خلالها لموسيقى

بيتهوفن وهاندل وصهره فاغنر ، وفيها اعاد عزف اعمال بيتهوفن العظيمة مثلما عزف لموتزارت ، وعلى مقربة من الصرح الموسيقى تشمخ دار الأوبرا الشهيرة ، لكن مايسيء لسمعة الجمال الذي يميز هذا الشارع وجود متحف التعذيب الذي كانت زيارته من ضمن برنامجنا وفيه شاهدنا مختلف آلات التعذيب البشعة من القرون الوسطى : العجلات المسننة الدوارة ، والمقصلة والنير الخشبي والاغلال وادوات التعذيب المعلقة التي تفصح عن وحشية البشر ضد الانسان في مختلف مراحل الحضارات البشرية من عصر المؤسسين الهون حتى آل هابسبورغ والعصر الحديث ، بعد زيارة المتحف أصابني الغثيان والصداع فصحبتنا السيدة المرافقة إلى احدى المقاهي الكلاسيكية التي كان يرتادها الشعراء منذ القرن التاسع عشر ، احتسينا المشروبات المثلجة ونحن ننصت لحديث السيدة وهي تعرِّفنا على صور شعراء هنغاريا وتماثيلهم النصفية : شاندور بتوفي ولاسلو ناجي واندري آدي ويوجيف كاتونا والكاتب موريو كاي ويانوش أران وغيرهم . في هذا المقهى تعقد الندوات الادبية وتجري المناقشات وتعزف الموسيقى وتقدم المشاهد التمثيلية وَبخاصة اعمال المونودراما والبانتومايم . .

اهدتنا مديرة المقهى مطبوعا صغيرا انيقا عن تاريخ المقهى واهم المشاهير الذين ارتادوه واهم الاحداث التي جرت فيه منذ قرنين من الزمان واختتمنا امسيتنا بالانصات إلى عزف احد الشباب موسيقى رقصات رومانية للموسيقار الهنغاري الشهير بيلا بارتوك ولم تتمالك احدى الفتيات الجميلات نفسها فنهضت ترقص على انغامه .والتحق بها شابان وفتاتان وتشكلت حلقة رقص ساحرة أحيت المكان وخرقت رصانته المعهودة بمرحها الطافح .

في جامعة لندن:
كلية غولد سمث

- مثل السُرفة التي تختار أفضل الأوراق كي تضع بيضها ،
يضع الكاهن لعناته على أجمل أفراحنا

وليم بليك

أين تكون الكلمة ، أين تدوّي
هنا في البحر ، في الجُزر ، على اليابسة
في ارض المطر ، أو ارض الرمل
هنا ، لا صمت يكفي اولئك الذين يسيرون
آناء النهار وآناء الليل

ت . س . إليوت

من المعهد البريطاني في بغداد رُشّحتُ لدورة صيفية في بريطانيا للتعرف على الأدب الانكليزي ، تقام الدورات كل عام في كلية غولد سمث - جامعة لندن - في منطقة لويشام - نيو كروس وهي كلية عريقة معنية بالدراسات الابداعية والثقافية تتبع جامعة لندن .
مبنى الكلية الجميل من الطراز الانكليزي مشيد بالآجر الأحمر وقد طليت أطر النوافذ باللون الأبيض وتحيط المبنى مروج خضراء

زمردية كجميع المروج الانكليزية التي تسر الروح وتمنح المرء فرصة الاغتسال من الجو الرمادي المكفهر في المدينة ، يكسو المبنى بطوابقه الثلاثة نبات اللبلاب الانكليزي فيصبح المرء في عالم نضر من الخضرة اليانعة التي تكتمل فتنتها بوجود المروج الشاسعة وأشجار الكستناء العملاقة على مسافات متباعدة ، كنا نفترش المرج في اوقات الراحة أو نلعب الكرة الطائرة ، أو ننفرد لقراءة رواية لآيريس مردوخ أو وليم غولدنغ أو نناقش أحد الدروس أو نختلي في مكتبتها العريقة . .

تشمل المحاضرات الأدب والنحو والمحادثة وكان من ضمن مناهج الدورة ان نناقش مسرحيات لتوم ستوبارد وقد ألقى علينا ستوبارد محاضرة ممتعة في فن الدراما ، ومن مقررات الدروس توجب علينا قراءة رواية ليسينغ (العشب يغني The Grass is Singing) ومعها (الأمير الأسود The Black Prince) لأيريس مردوخ ، و(سيد الذباب Lord of the Flies) لوليم غولدنغ ومقطعات من الارض اليباب The Waste Land لأليوت وبعض قصائد وليم بليك وشكسبير . .

كنا طلابا من أعمار مختلفة : كهول وعجائز وشباب ومن متوسطي الاعمار ، من جهات الدنيا كلها ، من اميركا اللاتينية والمكسيك واليابان والهند وصقلية وفرنسا والمانيا وكم كنا نشبه ابطال مسلسل (Watch Your Language) : فاليابانيون مولعون حد الإدمان بكاميراتهم التي تتدلى على صدورهم والايطاليون منشغلون بإغواء الفتيات الجميلات ، والافارقة - وبعضهم أبناء وزراء وقادة دول - معنيون بابراز ثرائهم وتقاليدهم في الثياب والطعام ، اما الهنود فكانوا منشغلين بتعديل نطقهم المتماوج للغة الانكليزية في حين كانت السيدات القادمات من كولومبيا وصقلية والبرازيل حريصات على

الدرس وتعلم المزيد من لغة شكسبير . .

ليس من مدينة اوروبية مثل لندن عاصمة الامبراطورية التي غابت عنها الشمس ، مدينة أحلام سكان المستعمرات ، هي المدينة الأكثر الفة وحميمية - رغم كآباتها العريقة - من بين مدن القارة ، فلا تماثلها باريس ولا بون ولا بوخارست أو بودابست أو فينا ، ربما لعدم وجود حاجز اللغة ، لندن الكئيبة العتيقة المزدحمة المضببة الحنون والقاسية ، تخرج من تعاليها الكولونيالي برهة براغماتية لتحتضننا نحن أبناء المستعمرات القديمة وسوانا من قارات الأرض كلها ، بدت في تلك البرهة الكريمة أمّا رؤوما تغدق علمها وآدابها على عشاق لغتها ، كان الانتماء إلى جامعة لندن كمثل معجزة سحرية ، فقد احتفت ادارة كلية غولد سمث بنا وعرفتنا إلى أهم موائل الثقافة في بريطانيا : جامعة كمبردج ومدينة ستراتفورد أبون آفون حيث منزل شكسبير ومسرحه الملكي كما قمنا بزيارة لمبنى البي بي سي وكنيسة وستمنستر ، العالم يمنحنا نحن الغرباء بعضا من هبات البلاد الكولونيالية إذ صادف الاحتفال بذكرى الكاتب والشاعر العظيم توماس هاردي الذي دفن رماده في ركن رواق الشعراء والكتاب الانكليز العظام ممن حفرت اسماؤهم على قطع رخام تمتد على أرضية الرواق المهيب تحت الثريات العملاقة في الكنيسة العتيدة ، قيل لنا أن قلب توماس هاردي دفن في كنيسة القديس مايكل في ستنسفورد مع زوجتيه إيما وفلورنس ، رقد جسده بلا قلب مع رفاقه العظماء : تشوسر وتشارلس ديكنز وروديارد كبلنغ وايرفنغ وتنيسون واودن ووليم بليك وشارلوت برونتي واخرين . .

وتساءلت : كيف سيحيا الشاعر في خلوده دونما قلب؟؟

كـان يوم الاحـتـفـال بذكـرى تومـاس هاردي مميـزا لكونه يقـام في ويستمنستر آبي وقد احتشد اعضاء جمعية أصدقاء هاردي ومحبوه ووزعوا على الحضور كتيبات صغيرة عن حياته واعماله مع شارات بدبابيس عن الذكرى ، ووضعوا اكاليل الزهور على نصبه التذكاري في ركن الشعراء ، بعد الآحتفال اشترينا بعض روايات هاردي بطبعات أنيقة تناسب الذكرى المهيبة للروائي الكبير . .

إلى شكسبير في وارويك شاير - ستراتفود أبون آفون

من سونيتات شكسبير

سونيت رقم ٥

لو اننا لم نحتفظ بزهور الصيف المقطرة

كالسائل السجين خلف جدران زجاجية

لضاع الجمال شكلا وأثرا

ولم يبق منه ولامن ذكراه شيء يدل عليه

لكن الزهور المقطرة رغم انها تشبه الشتاء

لاتفقد سوى شكلها ويبقى جوهرها حيا عذبا

سونيت رقم ١

نحن نبغي المزيد من احلى الكائنات

كيلا تموت وردة الجمال ابدا

فمثلما يذوي من اكتملت حياته بانقضاء السنوات

لابد لخلفه الرقيق ان يحمل ذكراه

قبل يوم من زيارة ستراتفورد ابون آفون مدينة شكسبير ، امضينا دروس الصباح ومناقشات المساء مع سونيتات شكسبير ، كانت المس

غريتشن المتخصصة في أعمال شكسبير قد احضرت اوراقا استنسخت فيها اشهر سونيتات شكسبير عن الجمال ، ووزعتها علينا وحدثتنا بأسلوبها الشيق الممتع عن أصل السونيت الذي يرقى إلى بترارك الايطالي ، ثم جعلتنا نقرأ السونيتات الأولى ورافقتنا بالعزف على البيانو وهي تؤكد على ان السوناتا هي الأغنية الصغيرة وعندما قرأنا السونيتات المختارة عادت المس غريتشن لتحدثنا عن أهمية السوناتات بين اعمال شكسبير المسرحية - فهو شاعر عبقري قلد سونيتاته عدد كبير من شعراء القرون اللاحقة : ميلتون وجون دن وغيرهم ، في حينها كانت تستعصي عليّ مفردات كثيرة من اللغة الشكسبيرية فهي انكليزية القرن الخامس عشر الكلاسيكية ، عند انتهاء الدروس وقد تشبعنا بالسونيتات اعلنت السيدة غريتشن انها ستصحبنا في الغد إلى ستراتفورد أبون آفون مدينة شكسبير ، طوال الطريق كانت تسهب بالحديث عن أعمال شكسبير لكني كنت منشغلة عنها بالتمتع بمناظر الريف البريطاني المبهرة وانا أبرر لنفسي ان الجمال العابر في اللحظة المُغادَرة اثمن من قراءة نص شعري سيكونُ في متناول أيدينا متى شئنا .

الريف هاهنا منفتح ومضيء ، يكلّله ضباب رقيق أشبه بفستان موسلين أبيض لعروس لامرئية ، ثمة في المروج أبقار مبقعة وبوابات مزارع موصدة وظلال سخية تحتضن الطرقات .

كان علينا مجتمعين ان نزور مسرح شكسبير الملكي ومسرح البجعة ومؤسسة شكسبير التي تضم مخطوطات شكسبير وأعماله ولكننا لم نحظ بزيارة معهد شكسبير فاليوم يوم عطلة . .

فتحوا باب منزل شكسبير ، تجولنا في غرفه وردهاته مع صرير

الأرضيات الخشبية ورائحة التربنتاين والإضاءة الخافتة ، وما أدهشني أن سرير شكسبير كان صغيرا جدا حتى لكأنه يصلح لصبي في العاشرة من عمره ، ويبدو أنه خلال الستمائة عام الماضية قد تغيرت حجوم البشر وسحناتهم ومصائرهم وأحلامهم أيضا ، وكان لابد ان نشتري زهورا لنضعها على قبر شكسبير في باحة كنيسة الثالوث المقدس قبل ان نختتم المزارات المهمة بمتحف ناش . .

لم تبهرني المنازل ذات الطراز القروسطي البريطاني ولم تعنِ لي انواع التذكارات التي يعتاش على تجارتها نصف سكان ستراتفورد من باجاتْ وقمصان ومطبوعات للمخصات المسرحيات وبوسترات العروض الشكسبيرية والخواتم والأكواب والاطباق التي تحمل صورة شكسبير وابطال مسرحياته ، ما بهرني اكثر من سواه مبنى مسرح شكسبير الملكي المطل على حدائق بانكروفت مثلما سحرني نهر آفون الذي وجدته نهرا فردوسيا كتلك الانهار التي تتوسط لوحات تيرنر وجورج فروست وفريدريش والفنانين الرومانتيكيين .

لاترى في نهر آفون سوى أسراب الإوز الأبيض تسبح جيئة وذهابا وعلى ضفافه ثمة قصائد منسوجة من آلاف الزهور : الزنبق والنرجس والورد ، اشترينا فطائر التفاح الانكليزية التقليدية المعطرة بالقرفة وتناولناها مع اكواب الشاي التي تباع في الكافيهات الصغيرة المحيطة بالساحة ، وواصلنا استكشاف العوالم الشكسبيرية ، اذ وجدت دكانا يعرض ملابس المسرحيات الشهيرة : أردية الليدي مكبث وعباءة هاملت ، وتيجان هنري الثامن ومجوهرات كليوباترا ووشاح جولييت وصدار عطيل الجامح وقلادته . .

في اليوم التالي استعادت المس غريتشن معنا سونيتات شكسبير

وهي تعزف على البيانو : أيها الجمال الذي خبت فتنته ، علام كنت مسرفاً

حين انفقت على نفسك ميراث حسنك؟

الطبيعة لاتورث احدا شيئا لكنها تزيد وتضفي

ولكونها كريمة معطاء فهي تضفي زادها على أولئك الكرماء . .

كان معنا تلميذ في الثلاثين من سانتياغو تشيلي محط انظارنا جميعا فهو تجسيد حي للجمال الذي تحدث عنه شكسبير وترنّمت به معلمتنا . .

الحج إلى كامبريدج

تسحرني المدن التي تغفو على همهمات نهر وتنعكس على نهرها زرقة السماوات وتشكلات الغيوم ورعشة النجوم ، يملأني إحساس بالكدر في المدن التي لاتعانق نهرا ، أجدها عمياء ضريرة القلب فلا تنعكس عليها توهجات الشمس أو أنوار القمر ، وما انحيازي لها الا لأنني ابنة الحضارات النهرية ، مدينة تحتضن نهرا تقربني من مدينتي ودجلتها ، فهاهو وسط مدينة كامبريدج العريقة يتماوج نهر (كام) الرقيق الحنون المحاط بالمروج الخضراء وانواع الزهور ، تمرق فيه القوارب الصغيرة بالمجذافين المتناغمي الحركات وعن بعد تطل عليه مباني جامعتها العتيدة شبيهة الكاتدرائيات . استقبلنا احد اساتذة (كلية الملك) واجتمع بنا في إحدى القاعات التابعة لكنيستها ، رهبة القاعات الواسعة واللوحات العتيقة ، وسقوف القاعات المرتفعة وقناديلها الزيتية القديمة وابراجها الشبيهة بابراج كنيسة ويستمنستر تحيلك إلى القرون الخوالي يوم تأسست اول بذرة للجامعة منذ اكثر من ٨٠٠ سنة ، كانت القاعة فيما مضى تابعة لأحد الأديرة ، مصاطبها من الخشب الخام غير الصقيل صنعه الرهبان وتركوا آثار صلواتهم وآهاتهم ظلالا على الجدران وهاهي تستخدم الآن قاعة للطعام يؤمها طلبة الأقسام الداخلية لكلية الملك . .

صحبنا مدرّسنا لمادة النحو المستر كامبل : النسخة الأصيلة

للشخصية الإنكليزية المنضبطة والتي ترى في انكلترا سيدة العالم وثقافتها هي الأرقى ، كل برهة كان المستر كامبل يبدل نظارتيه ويقرأ الارشادات ، أخذنا إلى غرفة نيوتن حيث كان العالِمُ الفيزيائيّ يعمل ويجري تجاربه ، وثمة غرفة اللورد بايرون ، ، ، قادنا تحت زخات المطر الناعم إلى بوابة نيفيل لندخل إلى أجمل واعرق كليات كامبريدج (كلية ترينتي Trinity College) واستقبلنا موظف العلاقات أو الاستقبال وكان فخورا وهو يحدثنا عن تأريخ الكلية والجامعة ، وقال بزهو كبير أن معظم الحائزين على جائزة نوبل في العلوم - الفيزياء والكيمياء بخاصّة - هم من خريجى وأساتذة جامعة كامبريدج . .

من بين الطلبة كان ثمة عاشقان اقترحا على استاذ النحو مستر كامبل ان يصحبنا إلى جسر التنهدات ، تبين انهما ايطاليان وشاءا ان يخبرانا بأن الجسرالجميل على نهر كام ماهو إلا تقليد لجسر موجود في فينيسيا ، ثم علمنا انه جسر كان يعبر عليه المحكومون بالاعدام في محكمة سنت جون وعلى هذا الجسر كانوا يطلقون تنهدات خسران الأمل والحياة معا ، فشتان مابين تنهدات العشاق في فينيسيا وتنهدات الذاهبين إلى حتوفهم ، جسر للعشاق وجسر للموت ، تنهيدة عاشق وحسرات رجل موشك على مغادرة الحياة . . .

لم تتح لنا فرصة زيارة متحف كامبريدج فقد هطلت امطار غزيرة وقرر المستر كامبل العودة بنا إلى لندن قبيل الغروب ، لكن هيبة ورهبة جامعة كامبريدج وتنهدات البهجة رافقتنا طوال طريق العودة إلى كلية غولد سمث فتوزعنا بين مروج حدائقها وشجر الكستناء المعمر في فنائها الخلفي استعداداً لتناول عشائنا المملّ في قاعة الطعام المشبعة بروائح المقليات وزناخة اللحوم المقددة وهاهو العشاء التقليدي البارد :

قطعة الستيك نصف الناضجة التي تنضح دما مع البطاطة المهروسة وقطع الجزر وقطعة خبز أبيض باهتة .

كان اليوم الأخير مخصصا لصورة جماعية يصورها مصور محترف استطاع ان يجمع نحو أربعين شخصا في لقطة واحدة جمع فيها أناس القارات كلها تحت شمس لندن الخجولة والناس وقوف في مرج كلية غولد سمث تؤطرهم جدران المبنى العتيق المكسوة باللبلاب الانكليزي وحسرات المغادرين إلى بلدانهم .

مانشستر - بلاكبول - سوانسي

ذات صيف أتجهت وصديقتي ليلى مباشرة من مطار هيثرو إلى مانشستر المدينة الضاجة المكتظة بأجناس البشر من سود وعرب وهنود ويابانيين ولاتينيين حيث كان اصدقاؤنا ينتظروننا هناك ، استأجرنا غرفة في منزل سيدة ايرلندية في منطقة (وايت تشابل) قرب محطة القطار : منطقة ضواحي أقرب إلى الريف منها للمدينة ، كان البيت رائعا أشبه بمعبد للموسيقى ، ثمة نباتات البنفسج الافريقي المزهرة على حافات النوافذ تداعب ستائر الدانتيل بينما تتدلى السرخسيات على الشرفات الصغيرة المسورة بأناقة الحديد الزخرفي . .

منذ اللحظة الآولى تبرعت السيدة (أديل) بتحذيرنا من الانكليز . .

قالت : الانكليز متوحشون ، كذابون ، احذروا التعامل معهم . .

كانت حرب المقاومة ضد البريطانيين مشتعلة في ايرلندا الشمالية والسيدة أديل تعلق صور ابطال الجيش الايرلندي السري وتجمع التبرعات له ، اضافت على مبلغ الايجار خمس جنيهات تبرعا للجيش الايرلندي كما اعترفت لنا ، قالت : الانكليز أردأ الناس على وجه الأرض ، متعالون وطبقيون ، لاتتعاملوا معهم أبدا ، ، ، استعماريون وقتلة ، كان لدي نزيل انكليزي سرق مني اشياء كثيرة وكان يتلصص على النزيلات فطردته . .

ابنها الوحيد يعزف على التشلو يتدرب صباحا ويخرج للعمل مع فرقة صغيرة في احدى الحانات ليلا : ابنها بيتر ايرلندي خالص ، محارب من اجل موسيقى برامز وماهلر وشونبرغ . .

صباحا يضع بائع الحليب زجاجات الحليب الشهي الدسم أمام المنزل والسيدة أديل تفتح الراديو على محطة بي بي سي ميوزك فنعوم في أمواج شفيفة من النغم الساحر ، تضع امامنا البيض المقلي والخبز المحمص وشرائح لحم البورك المقدد والشاي وتدندن بأغنيات ريفية من أعالي ايرلندا . .

من مانشستر اقترح علينا الاصدقاء ان نزور مدينة بلاكبول السياحية على بحر ايرلندا ، لم ترق لي المدينة ببهرجها السياحي ولافتات حزب العمال الذي يتخذ المدينة مقرا له ، بحرها رمادي كدر لايشبه البحار الرحبة الزرقاء ، أجمل ماتمتعت به فيها ذلك الممشى البحري القائم على جسر أو مرساة تخترق البحر المعتم وتتوزع على جانبيها دكاكين الحواة وباعة التذكارات والمنجمين والسحرة ، جلسنا إلى غجرية يتناثر شعرها الأسود المحمر حول وجهها وترتدي صدارا هنديا مزركشا بالمرايا وبينما تصلصل أساورها المعدنية وهي تدير كرتها البلورية حدقت في وجهي وقالت لي بعد ان وضعت ثلاث جنيهات في طبقها : سيحبك عاشق يعيش في مدينة بعيدة ليست هنا وليست هناك لاتعرفين اسمها ولا تعرفك المدينة لكنك ستتعرفين إليه في قطار أو رحلة بحرية أو في حلم وتوشكان على الغرق وتنجوان بمعجزة ، قالت انه شرقي ، ربما يكون هنديا أو يابانيا أو من بلادك ، وسيتبعك أو تتبعينه طوال عمره ، قلت لنفسي هو ذا رجل الحلم الذي احمله معي ألقا ينير حياتي دون ان أراه أو يراني ، قالت لصديقتي ليلى عاشقك

ينتظرك هناك قرب بيتك تماما لاتبحثي عن الحب بعيدا عودي من حيث أتيت ، ضحكنا من نبوءات الغجرية ، فلم التق العاشق الشرقي ولم أرحل معه في سفينة ولا ركبت قطارا مع ياباني أو هندي بل كنت احتفظ برجل الحلم حضورا شبحيا كتوأم شفيف يجاورني ويحيا بي وأحيا به . .

كنا نتحدث انا وصديقتي بالعربية امام كشك يبيع المرطبات فاقترب منا وحيانا شاب عراقي يافع ارسله أهله للدراسة في بريطانيا ، وعرض أن يصحبنا في جولتنا بمدينة بلاكبول التي يعرفها جيدا ، ودعانا لزيارة مدينة سوانسي الجميلة في مقاطعة ويلز حيث يدرس علم البيئة في جامعتها وسيرحب بنا هناك فهو منذ زمن بعيد لم يلتق بأناس من بلده وسيكون خير دليل لنا ، ، تناقشنا في الأمر وقلنا لابأس سنأتي إلى سوانسي وتؤمن لنا حجز غرفتين لائقتين في نزل جميل . .

سافرنا إلى سوانسي بالقطار ، مررنا بجسور وأنفاق ومراع وأرياف مدهشة ، وساعدنا الفتى العراقي في البحث عن نزل أو بنسيون لاستئجار غرفتين وعثرنا على مبتغانا في بنسيون تديره سيدة بدينة أشبه بمديرة قسم داخلي للمراهقين ، ترتدي قميصا مخططا وفوقه جاكيت خفيف من نسيج ازرق وقد ربطت مئزرا منقوشا حول خصرها . كانت شرفتي تطل على خليج مدهش يدعى (ببل غلف Bubble Gulf)خليج الفقاعات ، استرحنا بعض الوقت وطلبنا من الفتى ان يعود الينا مساء لنتجول في المدينة . .

في المساء البحري البارد ، السماء زرقاء رمادية كالفولاذ والقمر قرص من نحاس أحمر يطل على الميناء ومصدات الامواج ، كنت

افضل ان أتجول على غير هدى في أزقة المدينة وشوارعها لكن الفتى اقترح ان يصطحبنا إلى قاعة بولنغ فراقت الفكرة لصديقتي ، لعبنا قليلا واحتسينا اكواب القهوة السوداء ، ثم سرنا في طرقات المدينة التي ذكرتني ببيروت ومقاهيها ، قال الفتى ان الويلزيين يشبهون العرب : قبليون ومتعصبون وذوو شوارب مفتولة واصوات جهيرة ولهم لغتهم الخاصة وتقاليدهم وتمتاز ملابسهم الشعبية بغنى النقوش والألوان ، لهجتهم لايفهمها اللندنيون وهم يكرهون الانكليز ويتقبلونهم على مضض ، انطوني هوبكنز Anthony Hopkins اعظم فنان ويلزي غزا السينما البريطانية والأمريكية وهم فخورون به ، امضينا بعض الوقت في مرقص للشباب وَانتحينا جانبا نتفرج على جنون الراقصين وحماستهم ، حاولنا أنا وصديقتي ان نجاري الراقصين ، تمايلنا قليلا ، حركنا أذرعنا بحياء العاجزين ، اصطدمنا بأجساد الآخرين وروائحهم ، كنا خائفتين من حرية الجسد ورقصه واندغامه بالبشر ، ربما بفعل ذلك الخوف أصابني الدوار وصرعتنا أصوات الموسيقى الضاجة ، خرجنا لاهثتين مسرعتين إلى الهواء الطلق وجلسنا على مصطبة مقابل البحر لنستردّ انفاسنا . .

- أنا آسف ، كنت اظن ان الأمر سيروق لكما . .

- لابأس يابني - هوّنتُ عليه الأمر

- كنت اود اطلاعكما على نمط حياة الناس هنا ، الامر مختلف تماما عما في انكلترا ،

- اليسوا انكليزا؟؟ . .

- انهم من عِرق الغال أو الكلت ولغتهم هي اللغة الكومرية ومدينة سوانسي اسمها آبرتاو باللغة الويلشية التي يحاولون الحفاظ

عليها وهي تكاد تذوب في اللغة الانكليزية المهيمنة .

ولما لمس ضجرنا قال : أتودان أن تشربا شيئا؟؟

- نعم ، فكرة جيدة . .

- ماذا تريدان؟؟ .

قبل ان تقرر صديقتي قلت له اريد علبة جنجر ايل - بلا كحول - فتحت محفظتي وناولته ورقة نقدية - اشتر لثلاثتنا من فضلك . .

قالت ليلى المتحفظة دوما - اخشى ان . . .

لم ادعها تكمل :عليك ان تجربي ، انه شراب الزنجبيل والشعير ، غامري قليلا . . .

احتسينا الجنجر ايل بمذاقه الذي تمتزج فيه الحلاوة بحدة الزنجبيل ونكهته القوية ونحن نسير جوار البحر والنسيم البحري الرطب الهاب من المحيط الاطلسي يصافح وجوهنا ودخان البيوت المطلة على البحر يتعالى من مداخن مرتفعة وثمة أصوات اصطفاق الموج المرتفع يضرب مصدات الأمواج ويرتد إلى البحر . .

اقترحت صديقتي ان نتناول عشاءنا في مطعم هندي ، فهي مولعة بالهند وثقافتها وموسيقاها وتقاليدها وبكل ماهو هندي متخم بالدفء والتوابل والغرابة وقد وجدت هنا بغيتها فكل الأشياء الهندية متاحة حد الابتذال ، بعد العشاء اتفقنا مع مرافقنا الطيب ان يصحبنا في الغد إلى شاطيء القواقع الشهير المحيط ببركة متصلة بالبحر تحوطها اشجار مزهرة ومظلات ويقوم السابحون بجمع القواقع والمحار من الشاطيء الرملي ، كنت افكر في هذا العالم الغريب وكيف اتينا إلى هذا المكان بمحض مصادفة لم نخطط لها . .

همست ليلى ساخرة : هذا ماتنبأت به الغجرية : ان نجمع القواقع

ونتناول الكاري الهندي . .

قلت للبحر سافر بنا إلى أرض النجاة والحب

ضحك البحر وطوى امواجه الليلية وغادر إلى اللامكان وعلى متنه كان رجل الحلم يلوح لي .

أسبانيا

مدريد: دون كيخوته - لوركا - سلفادور دالي

أريدُ الماءَ محمولاً من مرقده
أريدُ الريحَ متروكةً دون أنهار
أريد الليلَ مطروحاً بلا عيون
وقلبي دونَ زهرةِ الذهب
وأريد أن يتحدثَ الثورُ مع الأغصان
وأريد أن تتخلصَ الدودةُ من الظلال
وأريد أن تلمع أسنانُ الجماجم
وأريد أن يتغلغلَ الأصفرُ في الحرير
أستطيع أن أرى مبارزةَ الليلِ الجريح
متلوياً في نزالِه مع النهار
أنا أقاوم حلولَ السمِ الأخضر
والأقواس المكسورة حيث يعاني الوقت

لوركا

١

ذات رؤيا قرأ لي رجل الحلم قصائد لوركا ، وأسمعني غناء الغجر
ورقصت الفلامنغو مع الغجريات الناريات ، ضربت الأرض بكعبي

ورفعت أطراف ثوبي المكشكش ولوحت بمروحتي المخرمة ، كان يضبط لي الآيقاع بتصفيقه المرح ويردد الكلمات كمغن غجري فتطايرت حولنا عصافير الحب وتناثرت زهور الجهنميات وامتلأ الجو بضباب عطري خدّرنا فتحولنا إلى كائنات من ريش ومطر ، سمعت الموسيقى ذاتها في مطار مدريد ، اهتزت روحي طربا وارتعش الفؤاد ، وتمنيت ان يتجسد رجل الحلم ويصحبني إلى مقصدي : جزر الكناري ، وهل أجمل من أن يرافقني رجل إلى ذلك الفردوس؟؟

سمعته يردد لي أغنية لوركا : **الغرام اليائس**

الليل يرفض أن يأتي
كي لا تستطيعي المجيء
ولا أستطيع القدوم
لكن سوف آتي
رغم أن عقرب الشمس ينهش وسط صدغي
لكن سوف تجيئين
بلسانٍ ألهبته قطرات المطر المالح
النهار يرفض أن يأتي
كي لا تستطيعي المجيء
ولا أستطيع القدوم

أغمضت عيني على استحالة الذهاب أو القدوم فايقظني نداء الطيران ، حملت حقيبتي واتجهت نحو الطائرة .

تجربة الطيران من مدريد إلى الجزر الخالدات فوق الاطلسي تجربة خوف واحتدام ودهشة ممتدة ، لاتشبه الطيران بين بيروت وقبرص وهي

تخطف الانفاس فما أن تستوي الطائرة ارتفاعا فوق بيروت المتفتحة كزهرة الربيع حتى تخبرنا المضيفة ان نستعد للهبوط على الجزيرة المقسمة بين عقيدة المقدس الارثوذوكسي وأهواء العشق الصوفي التركي والحنين العثماني للسلطنة ، في الطيران إلى اسبانيا تبدو جزر المتوسط كريت وصقلية وسردينيا وكورسيكا كنجوم متوهجة في زرقة البحر ومعها يتراءى لنا تاريخ الدول المطلة على المتوسط بتناقضاتها الفادحة : بلدان تترنح بين الأديان الثلاثة وتعاليمها وبين المجون الاغريقي الديونيزي والتفاخر التركي بالقوة والسلطان والتساهل الايطالي المرح من أجل محو وصمة الفاشية وبين التعالي الفرنسي المتوارث من ارستقراطية منقرضة ، ندع ذلك كله ليستغرقنا اللطف الاسباني وهو يشع بالسعادات الصغيرة والعواطف المشبوبة فشبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والبرتغال) قارة مختلفة الامزجة تمثل الحد الأخير لأوروبا والنقطة الفارقة لتبادلات الغزو : فهي بلاد جرحت كبرياءها الفتوحات فاستعادت هيبتها بغزو كولومبس للعالم الجديد ، شبه الجزيرة تحاول شفاء جراحها فتغزو المحيط وأمريكا .

يتساءل المرء في مدريد : ما الذي اتى بالفاتحين العرب إلى إيبيريا : السلطة؟ المال؟ شهوة التوسع؟؟ وعلام بكى ابو عبد الله الصغير وهو يسلم مفاتيح غرناطة إلى الملك فرناندو والملكة ايزابيلا؟ بكى لضياع سلطة استعبدته ثم أعلن الحرب على حكام دويلات الطوائف وأمضى السنوات الاربع بعد سقوط غرناطة في قتال أبيه وعمه على عرش زائل وانتقل بعدها إلى المغرب ليقتل في معركة مع قريبه حاكم فاس عندما خطط أبوعبدالله لسلبه سلطته . ترى هل تفجرعبادة السلطة كل هذا الهوس المجنون بالدم؟؟

٢

لو شئنا ان نمثل مدينة بمزاج انساني فمدريد مدينة باسمة كعروس زاهية ، مغوية وأليفة ، تمنحك شوارعها الواسعة إحساسا باللانهاية والأمل ومن نوافيرها ذات التماثيل المذهبة تنهمر مياه الأبدية وتحضنك ظلال أشجار الكستناء العملاقة لتنهمر عليك أخيلة القرون الوسطى وأنت في ساحة (اسبانيا) عندما يطالعك تمثال سرفانتس وأمامه تمثالان لبطلي روايته دون كيخوته (الدون كيخوتة ووتابعه سانتشو بانثا) ، تسحرك ساحة اسبانيا برحابتها ومبانيها العريقة وفتنة النساء المتأنقات وثمة راقصات وموسيقيون يقيمون حفلا مرتجلا بين السواح والباعة الجوالين والرسامين وباعة التذكارات وبائعات الهوى اللائي يتصيدن الزبائن في الازقة المجاورة للساحات ويضفي الرقص على المدينة وشوارعها عنفوانا ومباهج حارة لا تجدها في عاصمة اوروبية غير مدريد وتتآلف مع الحشد المنتشي بحماسة الاسبان العاطفية ، يؤالفك الرسام والعازف والمتسول والنشال وبائعة المراوح الورقية المزركشة و«دالي» فحيثما نقلت بصرك تبهرك ملصقات الاحتفال بمئوية سلفادور دالي ومعرضه الاستعادي بمتحف الملكة صوفيا للفن الحديث ومعرض (جيمس جويس في سنواته الاسبانية) .

تتلاقى في ساحات مدريد عراقة العمارة والاحتفالات المرتجلة فتتضافر اللحظة الزائلة مع الابدية وتبتكر المخيلة مشاهد باذخة للجمال الاسباني المكنوز في وراء الأزقة المتفرعة من ساحة الشمس محفوفة بموسيقى غسقية بينما يتقافز الاطفال والطيور الملونة والجراء المدللة بين خطى السائحين والعشاق المنشغلين بتبادل القبلات في حين ترفرف الفتيات اليافعات في الريح الللينة شفافات ولامعات بثيابهن المختصرة

الرقيقة الموسومة ببلاغة الموضة المعاصرة .

صادفت كثيرا من السيدات شبيهات نساء الرسام غويا وفيلاسكيث ، بعضهن يتلاشين في الريح كالأشباح والاخريات يحاورن اشجار الكستناء أو يهربن من المساء إلى متحف البرادو ليتوضعن بين لوحاته الخالدة . المرأة الاسبانية تحدق بالزمن من وراء صفحة كتاب أو دخان سيجارة أو يصبحن مواثل متحركة للشغف والجمال والغواية . .

أزقة مدريد المرصوفة بالبلاط الملون تفصح عن حوانيت عتيقة تعرض انواعا شتى من اللحوم المقددة ، متاحف لبراعة الانسان في حفظ قوته لايام الحروب والمجاعات ، عرض شهي لتاريخ الملذات والنكهات يجاوره تاريخ الانبذة والجعة والمشروبات المتنوعة التي تقرأ اسماؤها في نور الفوانيس الكئيبة التي تتدلى من نوافذ البارات والحوانيت في حين تضج المقاهي بالموسيقى وايقاعات الفلامنغو فتتخيل اولا الراقصات بتنوراتهن المكشكشة وشالاتهن المهدبة والزهرة الحمراء تضيء في تاج الشعر القاتم ، تتكثف الحياة هاهنا في نكهة مثيرة ونظرة مغوية وآهة غناء شجي مجبول بالرغبات ، تتباهى الحياة هنا بغنج انثى وعزف رجل على قيثاره أو بعناق عاشقين تحت ظل شجرة وارفة . .

المرأة الاسبانية مدمنة قراءة فالعشرات من النساء في المترو والحافلات يستغرقن في كتبهن : الجميع مأخوذون بملذات الادب ، وتنشر شركة المترو فصلا أو مقطعا من رواية لكاتب مشهور أو كاتب جديد بالاتفاق مع دار النشر وتتكفل شركة المترو بنفقات نشر الكتب الجديدة - مترو الثقافة يضع المرء امام خيارات القراءة اللامحدودة . .

على الجدران ووراء عازف الغيتار يلوح ظل لوركا الغامض لتبدو مدريد معه سفينة طافية في الزمن ، تعويذتها الحارسة وجه لوركا الذي احتفظ بعد اعدامه بوسامته وشبابه الابدي ، صوت عازف الغيتار يرتل قصيدة لوركا الشرقية المحتفية بمدريد وغرناطة التي يسمونها الرمانة (غرانادا) :

أيتها الرمانة المتفتحة

أنت لهيبُ فوق الشجرة

شقيقة فينوس من لحم ودم

ضحكةُ الحقلِ الذي تتجاذبه الرياض

تحيط بك الفراشات

وهي تظنك شمسًا ثابتةً

تخطفنا نظرة سلفادور دالي النارية لنغادر غريمه الوسيم لوركا ونتبعه إلى المتاحف قبل ان نطير فوق الأطلسي إلى لاس بالماس .

مدريد وبابلو بيكاسو الغورنيكا

التجوال في الساحات الكبرى وشارع «غراند فيا» يُشعِرُ المرء بمتعة التمدن وهو يتملى بصمات العصور التي مرت على مدريد ، يفخر أهل مدريد بعمارة مدينتهم وتنوعها كقُصر سبيليس ومبنى البريد التاريخي ومتحف البرادو وكاتدرائية المودينا أو المدينة ومتنزه الريتيرو ويتناقض كل هذا مع حداثة معمارية مفرطة تجاور عمارة الباروك والروكوكو والكلاسيكية الجديدة . .

صحبني الروائي الصديق محسن الرملي بأريحيته وكرمه الفياض إلى (بلازا مايور) أكبر ميادين مدريد المحاط بـ ١٣٦ مبنى تاريخيا ومجموعة من الكنائس بعمارة باروكية من القرن السابع عشر يمثل النموذج السلطوي والديني الذي كان يتيح للحاكم ورجل الدين معا أن يفرضا هيمنة مطلقة على الحشود في الاحتفالات والمناسبات الدينية ، الميدان مضاء بألف لون تجعل مقاهيه مهرجانا للحب والحلم ويفيض سحر الموسيقى متناغما مع لعب المهرجين والرقص وكأن الميدان العتيد يريد محو ما علق في ذاكرة الناس عن تاريخه الدموي فهنا تحت الشرفات وأنظار الحكام ورجال الدين كانت تجرى عمليات الإعدام في القرن السابع عشر ثم تحول الميدان إلى حلبة لمصارعة الثيران ثم ساحة للاحتفالات الرسمية وهاهو اليوم يحتفي كل لحظة بالحياة والعشاق والفن وترتجف أشجاره على ايقاع أقدام راقصات الفلامنغو اللائي

يتوشحن الشالات الكاتالونية المطرزة ويزيّنَّ رؤوسهن بأمشاط لامعة كأميرات الأحلام .

يتواصل الناس هنا بالفن والحب والمرح ، بينما تنكرك مدن أوروبية مثل فرانكفورت وزيوريخ وباريس وتشعرك بأنك هباءة ضائعة وأنك وحيد ومهجور وزائد عن حسابات المدينة وعجز أهلها عن التواصل بينما تتفتح انسانيتك في حميمية مدريد وسيتضاعف الاحساس بالألفة والدفء في جزيرة غراند كناريا أكبر جزر الكناري التي سأقصدها بعد مدريد .

صباح اليوم التالي كان علي أن أتيه في شوارع مظللة بأشجار باسقة رفقة الصديق الشاعر والروائي عبد الهادي السعدون للوصول إلى متحف البرادو معبد الفنون الكلاسيكية وأغادره عصرا لأحظى بأجمل امسية لدى زيارتي لمتحف الملكة صوفيا للفن الحديث حيث يحتشد مئات من عشاق الفن لمشاهدة أعمال بيكاسو وخوان ميرو وسلفادور دالي وتابيس وسواهم ولم اشأ دخول معرض دالي قبل أن أحيي الغورنيكا في قاعتها الخاصة التي تليق بجلالها . كانت الغورنيكا بلونها الرمادي والأبيض والأسود وشموخها تعطي انطباعا بانتصارها على النازية التي حرمت أعمال بيكاسو لتمثيلها الأعراق الدنيا من البشر!

تساءلت أمامها : كم من الغورنيكات لدينا؟ انهمرت دموعي أمام وجوه نسائها الثلاثة التي تحتل مركز اللوحة : المرأة التي تحمل المصباح والمرأة الصارخة والثالثة الهاربة ولما رأت الغورنيكا دموعي المتساقطة على الرخام اللامع ، رأيتها تقترب مني متخطية حاجز الحبل الأخضر ويلتمع شعاع مصباحها المحطم على وجهي لتقول لي : الفن ينتصر للإنسان والجمال والسلام على مر الزمان .

لبثت الغورنيكا سنوات طويلة في متحف الفن الحديث بنيويورك بناء على رغبة بيكاسو وبعد رحيل فرانكو احتفلت أسبانيا باستعادتها لتقف طوابير النساء والرجال من اجل القاء نظرة على اللوحة التي تفضح بشاعة الحرب وهلع الإنسان ، كانت العجائز اللائي فقدن ابناءهن ورجالهن وعشاقهن في الحرب الاهلية يقفن امامها وتتماهى وجوههن المغضنة مع الوان اللوحة الرمادية ، أما الشباب فكانوا يمرون أمام الغورنيكا بنوع من اللامبالاة ويحدقون فيها بدافع الفضول وحده .

بعد زيارتي معرض مئوية دالي تلمست التناقض بين رؤية بيكاسو التي تهجو الفاشية وبين تهافت بعض أعمال دالي كالإعلانات التي مثلها للتلفزة ترويجا لجوارب نسائية وعلكة وشيكولاتة ، أغادره لمشاهدة فلم «الكلب الاندلسي» الذي تشارك في صنعه دالي ولويس بونويل لهجاء الفن الطليعي والبورجوازية وصديقهما اللدود الشاعر الشهيد لوركا .

معرض مئوية دالي:
عبقريته وجنونه ومعشوقته جالا

ينافس ملصق مئوية دالي الاعلانات التجارية في شوارع مدريد يتقاسمه وجه الفنان وصورة عمل فني للتلفون التقليدي الذي أبدل دالي سماعته بحيوان اللوبستر البحري : أكبر القشريات الثمينة التي تزين موائد الأثرياء ، ويبدو ان اختيار المشرفين على المعرض لهذه المنحوتة السوريالية كان اختزالا لتأثير دالي في الحياة الحديثة وانغماسه في تحطيم الأشكال الكلاسيكية والرؤى البورجوازية وتحويل الواقع إلى حلم كابوسي مستمر وبذلك ينجح دالي في إزالة التخوم الفاصلة بين استعراضيته الفضائحية ومرضه النفسي ليتحول إلى ظاهرة ملهمة يلازمها هوس بالمال وعشق الذهب فيشترط دالي ثمنا لبعض أعماله سبائك ذهبية ينتشي بملمسها ويؤدي فرائض التعبّد أمامها .

تمثال سيدة الخصب النصفي منحوتة دالي الشهيرة بدت كعمل مبتذل مصبوغ بألوان دمى البورسلين الصينية وسط قاعة العرض الاولى فقد وضع على رأسها رغيف خبز فرنسي طويل بينما جعل ضفائرها عرانيس ذرة مكسوة بقشرة من الذهب وفوق جبينها وصدغها الايمن رسم رتلا من النمل الأسود .

رؤى سريالية مدهشة ومريعة تتزاحم مع كوابيس وأحلام غرائبية تحول أجساد رجال ونساء إلى خزانات بأدراج مفتوحة خاوية ، يكررها

في تماثيل اخرى لكائنات مشوهة ، بينما يظهر وجه معبودته جالا على تمثال مصغر للعذراء وفي إحدى قاعات المعرض تعرض أفلام اعلانية قصيرة على شاشات تلفزة يمثل فيها دالي اعلانا عن سيارات امريكية وفي اعلان ثانٍ يروج لجوارب نايلون نسائية وبين المنحوتات يتكرر ظهور ساق نسائية انموذجيه مكسوة بالجوارب ، بينما يشكل اعلانه عن الحلوى مشهدا هزليا وهو يلتهم الشيكولاتة ، في القاعة الأخرى كان الحضور يتزاحمون وقوفا وجلوسا على مقاعدها القليلة المكسوة بالمخمل النيلي لمشاهدة فلمين صامتين صنعهما المخرج لوي بونويل ودالي هما (الكلب الأندلسي) و(العصر الذهبي) وكان فلم الكلب الاندلسي قد بدأ عرضه : المشاهد السوريالية مريعة ومقززة ، قال دالي عن الفلم في كتاب انا والسريالية (تمنيت ان ارى المشاهدين مغشيا عليهم اثناء المشاهد الاولى لإنه تحققٌ مدهش للسادية التي تستدعي المازوخية الكامنة في الجميع)!! كانت المشاهد المفزعة تفضح عفن الكائنات البورجوازية وهراء الفن الطليعي حسب رؤية دالي ، وبدا الممثل(بيير باتشيف) مأخوذا مخدرا يترنح بين الموت والحياة مثل محتضر . يقول دالي بنبرة متعجرفة (لقد انتحر باتشيف في اليوم الأخير للتصوير وكأنه الأضحية المكرسة ليتحقق لي المجد العظيم)!!

لو كان دالي حاضرا لدخل المعرض صحبة جالا وسط هالة من شموس مبهرة متنكرا بملابس مارس اله الحرب مثلما دخل معرضه في نيويورك وهو محمول في تابوت ليقفز منه ويفاجيء الحاضرين وفي معرض آخر دخل وهو يقود بقرة ووصل إلى جامعة السوربون ليحاضر وفي سيارته حمولة هائلة من القرنابيط ساخرا من التقاليد الارستقراطية الفرنسية ليؤكد اختلافه بطرائق صادمة .

يعترف دالي أنه كان مصابا برؤى بارانوية وهذيانات لم يهذبها سوى الحب وأن زوجته المعشوقة جالا حولت ما يطارده من مخاوف ونوبات جنون إلى عبقرية مبدعة وأبدلت النزعة الشريرة في روحه إلى فن مذهل بفعل عطاياها في الحب (لقد اتاحت لي جالا ان ارتقي إلى مراتب روحية بفعل طاقة الحب وأزاحت قلقي من الموت ولم أتمادَ بجنوني لأنها ضبطت هذياناتي وبفضلها استطعت التفرقة بين الحلم والحقيقة وبذكائها نجحت بتطوير حاستي الموضوعية ، جالا حقيقتي الحميمة وبديلي) ، كشفته المحبوبة لنفسه ووجهت أفكاره للنور والانجاز وبمساعدتها تحول التراب بين يديه إلى فن وذهب .

لاس بالماس
مدينة النساء الجميلات والنخيل ومتحف كولومبوس

من مدريد تغادر الطائرة مطار بارخاس متجهة جنوبا إلى مدينة (لاس بالماس) عاصمة جزر الكناري لحضور ندوة الرواية على هامش مهرجان القارات الثلاث ، ساعتان وربع الساعة فوق المحيط الاطلسي الرحيب هو المدى بين اوربا العتيقة ومقصدنا في الرحلة المشوقة إلى الجزر الخالدات التي تعد الأكثر سحرا وجمالا على كوكبنا . في طائرة (اير يوروبا) لاحت لنا جزيرة (غراند كناريا) مطوقة بالأمواج الأطلسية وسفن الصيد وسط المحيط المائي الأزرق ، مئتا كيلو متر تفصلها عن سواحل المغرب ، والفا كيلو متر عن مدريد . .

قوس قزح سماوي مدهش كان يشكل دائرة كاملة قبل وصولنا للجزيرة ، دائرة مبهرة من الالوان المشعة تطوق الأرض والسماء وتمنحها جمالا سماويا يفوق كل خيال ، وكلما انخفضت الطائرة لاحت لنا اسراب مكونة من آلاف الأسماك الملونة تجول عند الشواطيء الضحلة في دوامات دائرية وأسراب متداخلة منظمة وكأنها ترسم لوحات نادرة لبهاء الطبيعة ونظامها وتكاملها .

في مطار (لاس بالماس) الصغير الجميل كان الروائي انطونيو لوثانو مدير المهرجان يحمل لافتة ورقية عليها اسمي ومعه الآنسة (فاطيما أرماس) المسماة على اسم القديسة الاسبانية الشافية (فاطيما) ، فاطمة

فتاة جميلة لوحت شمس الجزر جسدها الفتي واختلطت شقرة شعرها المصبوغ ببرونز كتفيها المكشوفين فوق بلوزتها البيضاء، التقي بالحكواتي الآتي من الكونغو (برتراند) بملابسه المثقلة بالخرز والقواقع حاملا آلة موسيقية شعبية غريبة تجمع بين طبول وصنوج وآلات وترية مربوطة على يقطينة مجففة مفرغة وأجراس مجلجلة، نغادر المطار إلى الشوارع المحفوفة بالنخيل ونباتات الصبّار العملاقة التي تحيل ساحات مدينة أريناغا إلى جنائن مدارية نصفها من صنع الطبيعة وماتبقى من إبداع البشر..

تصحبنا الآنسة (فاطيما) إلى شارع تحف به أشجار النخيل الضخمة وتغطي أرصفته جنبات الجهنميات وأشجار الدفلى، ثم تتجه السيارة نحو المحيط في طريق ترابية ترتقي تلة صخرية يعلوها فنار المدينة المحروس بهدير الامواج وصيحات النوارس، ويبرز لنا بغتة المبنى الدائري الذي يشكل قوساً من ثلاثة طوابق جوار تلة الفنار مطلاً على الخليج والشاطئ الرملي، وفي هذا المبنى المخصص لاستقبال الفعاليات الثقافية تقيم الفرق المسرحية والموسيقية، بينما توزع الادباء والصحافيون على منازل ذات طرز مغاربية وفنادق صغيرة تشبه الخانات الشرقية بباحاتها المزروعة ياسمينا وأشجار رمان حول النوافير وأحواض البنفسج..

كتّاب وكاتبات من كولومبيا والارجنتين واسبانيا وفرنسا وكوبا والاورغواي وغينيا الاستوائية والكاميرون، حضروا ندوة الرواية التي دعيت إليها، الندوات تعقد في (اغويماس) قرية المهرجان في المسرح المحاط بقاعات الرقص والمكتبات والبارات والمقاهي والمسارح وساحة روزاريو التي يسهر فيها الفنانون والراقصون حتى الصباح.

فراديس... فراديس

جزر الكناري بلاد فردوسية تتفوق في سحرها على امكانات الخيال ، الهوية مشتبكة مابين الثقافة الأسبانية والبربرية والمؤثرات العربية والأفريقية ، بلاد تتوسط حزام الأرض وتجتمع فيها الأعراق الهجينة الجميلة المتصالحة ، وتأتي اسبانيا الاوروبية لتفرض آخر الأمر وجه الهوية المعلن وتقترح ثقافة حيوية متجددة تميز الجزر الساحرات ، طرز العمارة المغربية والفنون تجاور العمارة الغوطية وتمتد من الاعمدة المنحوتة وشرفات الكاتدرائية إلى سلوك البشر الذي تتزاوج فيه بساطة الريف وكرمه وبشاشة الاسبان ومرحهم ، هنا يبادرك الناس بالتحية كل آن كأنك صديق قديم عاد من سفر إلى دياره الأليفة . .

نعلم ان تقييم الجمال أمر نسبي لكن جمال جزر الكناري السبع وفتنة نسائها أمران محسومان ، حسبنا ان نرى وجوه النساء الخلاسية النضرة تشع بابتسامات عذبة ، وهن ينثرن التحايا بأصواتهن المغردة كعصافير الكناري ، أو عندما يرافقننا أو يؤدين اعمالهن بائعات أو ساقيات أو صحفيات في المهرجان ، جمال المرأة في جزر الكناري مزيج من السحر الأسباني والملامح الأفريقية والأنوثة اللاتينية ، مزيج خلاسي باهر هو نتاج الطبيعة الفريدة وتعدد الهويات والثقافات فما بين الثقافة الأسبانية والمؤثرات الأفريقية وتراث السكان الأصليين تتشكل ذاكرة الجزر الثقافية وأدبها وفنونها وتقاليدها ، وتبهرنا نتاجاتها

المختلفة من أدب وموسيقى ورقص ومواثل تاريخية تميز الجزر ، فهنا توقفت سفينة كولومبوس في طريقها إلى الهند لجلب التوابل والحجارة الكريمة ، عندما مرض ملاحوه هنا تركهم في جزيلاة غراند كناريا واصطحب سواهم من سكانها وتزود بالمؤن من غلالها واتجه ليكتشف عن طريق الخطأ العالم الجديد في القارة الامريكية ، وتبقت بعده بعض معدات وخرائط واسطرلابات ودفاتر ملاحظات فاقاموا لها متحفا - في العاصمة لاس بالماس - تظلل المتحف أشجار النخيل وتتعالى وراءه قباب الكاتدرائيات ويتطاير الحمام بين حدائقه الوارفة ونوافيره الدفاقة .

رجل الحلم وبرج الحوت

لم اتشوق لرجل الحلم إلى الحد الذي تشوقت له وانا وحيدة بين الجموع في غراند كناريا ، هنا تكون الرفقة ملاذا والحب حياة والبوح صلاة ، هنا تتقد في الروح شرارات الحياة المتوهجة ، هنا حيث تتحد السموات بالمحيط وضجيج الماء بخفقات النجوم ، والرياح تعانق الجبل واشجار البوبايا ، أسمع لرجل الحلم همسا يخالطه اصطفاق الموج ، وبغتة يعلو صوته في حواسي حين تغدو الارض نورا محضا بفعل البرق وتصطخب الأشجار العملاقة وتتوالد امامي في النور الساطع معابد سومرية تموج وسط المحيط وترتعش مسارات النجوم وكأنها تنقض على الماء ، أرى كوكبة الحوت تشير لنا ، وانا اقرأ ترتيلة سومرية من رحلة كلكامش بحثا عن عشبة الخلود ، في السماء كوكبة الحوت وفي المحيط ثمة حيتان تلوح من بين أعراف الموج وانا في مركز الكون - عند مدار استواء الأرض ، شفق المساء يتخذ له الف لون من النار والبنفسج والوهج والذهب والزرقة المشتعلة ويتوضع طويلا عند افق المحيط ، تندغم الشمس بجسدي ثم تعانق البحر ليتلاشى النهار البحري الذي لايشبه نهاراتنا البرية ولاتشبهه امسيات معابدنا ذات الزقورات ، حيث يرتقي العاشق إلى قدس أقداس المعبد مع كاهنة الحب تباركهما عشتار -إينانا سيدة الملذات والخصوبة ، تمتزج رؤى المعابد مع هدير الموج في الشعاب المرجانية بينما تخفق طيور ملونة بين الاجراف والمغاور وتطاردها

النوارس وطيور النوء تدور في خلقات حول فنار المدينة ، ويختل توازن المساء وتغيب المرائي واطبق نظرتي على صورة غائمة لوجه لم يكتمل وضوحه ، كيف نعبّر عن الحب في هذا الفردوس؟ هل نمضي الليل في انتظار هطول المعجزة؟ نعانق الوحدة لتتجلى المعجزة؟ نغرق في الشجن ليولد الحلم على هدير الموج؟؟

في الليل ارى النجم القطبي يرمش بوهج ازرق بينما نجمة عشتار الزهرة تتوهج بضوء احمر وترسل لي غواياتها اللامجدية : اغاني اهل الجزر ورقصاتهم وعناقهم وأغاريد طيور الكناري والببغاوات الملونة وحفيف أشجار البوبايا والنخيل ، الجميع يهزج بأغنيات الهوى تحت السماء المتوهجة بملايين المجرات التي كانت بعض مذنباتها تتساقط في المحيط العظيم ، فرادة ان تعايش ظلا ووهما تجنبك الوقوع في خطل الاختيارات الأرضية لكنها لن تحول بينك وبين التجربة والخيبة ، ثمة في الأرض كائنات ترتقي إلى مستوى معين من المثال الذي يستهوينا ، ولعدنا بشيء من الخلاص الفردوسي ، احيانا يتعدى المثال الحالة البشرية إلى ابداعات الانسان ، الموسيقى هي صوت الأبدية الذي يتموج في الزمان وهو صوت الوجود الذي يقربنا من هيئة المثال على نحو غامض ، قد ترفعنا الموسيقى إلى مرتقيات أسمى من انسانيتنا الأرضية ، لكن وجود رجل الحلم في متاهة الموسيقى يحوله إلى حالة مستحيلة ، فالرجال الارضيون يجاورون الموسيقى ولايشاطرونها غموضها وعمقها ، فهم يعدونها وسيلة للنشوة يسافرون معها إلى مديات السحر ولكنهم لايسكنون في نسيجها كما يفعل رجل الحلم المشتبك بها والذي لايتعامل مع اللغة ولا المادة بل يختزن رؤى تتعالى على وضعنا الانساني الفاني . .

اصغي إلى موسيقى الشعوب ، موسيقى الغابات ، موسيقى الانهار ، موسيقى المحيط العظيم ، اتابع رقصات النساء في غلائل الحرير ، اتابع غناء مغني الجاز ، انصت للغناء الشعبي لسكان الجزيرة من شعب الغوانشي ، واعود كيانا بشريا وحيدا يشبه الاخرين ولايشبههم ، الفن انتصار على الوحدة وعزاء لأستحالة الامساك بالحلم .

تزاوج البركان والمحيط

تخدعنا البشاشة العفوية لسكان الجزر الودودين المرحين الكرماء ونظن شعب الجزر موفور السعادة فهو يعيش في فردوس أرضي ، لكن احد المعنيين بحياة الجزر وهو عالم انثروبولوجي يخبرنا أن الجزر المعزولة بالمياه ليست مكانا للمباهج والسعادة دائما فسكانها تطحنهم العزلة عن العالم ويغريهم المحيط بالفرار لكنهم يعجزون عنه فيكابدون نوعا من شغف بالرحيل وكآبة تسمى المرض الجزيري ترتفع في مواسم معينة نسبة الانتحار لدى سكانها المعزولين عن أراضي القارات وامتداداتها الأرضية .

ومن لاس بالماس مدينة النخيل تنقلنا حافلة على شاطيء المحيط بين مراسي السفن وتحت ذرى الجبل مع روائيين وفنانيين من افريقيا وامريكا اللاتينية واسبانيا إلى قرية أغويماس التي ولدت من تزاوج البركان والمحيط عند ذرى جبل تكسوه أشجار البوبايا ، أزقة أغويماس متاهات بمنازل ملونة بالأصفر والبرتقالي والقرميدي والوردي والأبيض الذي ينهمر عليه الأزرق البحري من أطر النوافذ وعناقيد زهور الأرتنسيه والموسيقى التي تتعالى من تمثال عازفة التشيلو مقابل الكاندرئية .

كل صباح كنت أصحو على موسيقى بيتهوفن وباخ وموزارت وشتراوس وبرليوز ، فأقول لعلهم يعزفون هذه الموسيقى في الكاتدرائية القريبة ، ثم عرفت ان ثمة مكبرات صوت موزعة في الساحة التي يتوسطها

تمثال العازفة الجميلة تذيع يوميا وبلا انقطاع اجمل الاعمال الموسيقية لتوهمنا ان الفتاة البرونزية لاتكف عن منحنا نشوة السماع الراقي .

تركز قرية اغويماس وجودها حول كاتدرائية سان سبارتيان الأثرية التي تحيط بها الحانات والمراقص والكافيهات وقاعات الموسيقى في تصالح حيوي بين الدين والدنيا من اجل سعادة الانسان وتحرر الروح واكتمال معنى الحياة . فردوس اختصرته الطبيعة في أغويماس اجمل قرى الجزيرة التي يتساوى ربيع فصولها طوال العام إلا من اسبوع رياح موسمية وسط الصيف وكان من نصيبنا ان نكتوي بلهيبه في ايام المهرجان الأخيرة .

شوارع القرية الملونة ترنو إلى الجبل ومن جانب آخر تنحدر الازقة في طريق صخري منحوت نحو المحيط بين أغويماس رقرية الصيادين (أريناغا) تزهو الشوارع بنباتات الصبّار العملاقة والصخور الطبيعية المنتصبة في كل مكان تجاورها منحوتات حداثية أو أعمال نحت فطرية وسط ساحات القرية الصغيرة وعلى تلال مرتفعة تحاذي المحيط تتفتح زهور معدنية هي دوارات الريح أو طواحين الهواء كحديقة تفجرت من بركان ، تولد أذرعها الطاقة من عصف رياح الأطلسي وترشها أضواء كهرباء وضجة مكائن في القرى النائمة على المنحدرات وتشكل أفق الجزيرة وترسم تخطيطا للفارس النحيل دون كيخوته يرفع سيفه مازحا بوجه الجميلات مقتديا بالسلوك المهذب لسكان الجزر الذين يحتفون بالمختلف والغريب لأنهم ورثوا عادات اسلافهم في موانئ تمر بها رحلات المستكشفين والمغامرين ، فهنا يلتقي الغرباء ويتعارفون بعفوية وهنا يبادرك العابرون بتحيات وابتسامات وما ان تجلس في مقهى أو مطعم حتى يغمرك الترحاب المؤنس من النساء والرجال وهم يحتسون قهوتهم أو نبيذهم أمام امواج المحيط .

السمندل تعويذة البقاء

السمندل، أو السحلية، تعويذة جزيرة غراند كناريا تحتل المكان والزمان وذاكرات الناس علامة قيامة من رماد الاحداث، مرسومة على سفوح التلال والأرضيات وأطباق المطاعم والمناضد والرايات المحلية أو مطرزة على القمصان والقبعات وتباع كمنحوتات صغيرة مع التذكارات للسائحين، ونجدها مع الآثار الألفية في متحف المدينة ومتحف كولومبوس الذي جمعوا فيه أوراقا وأدوات تركها المستكشف الإسباني حين توقفت سفينته في الجزيرة قبل توجهه إلى المجهول ليربط بين سكان الجزر وشعوب أميركا اللاتينية بهجرات ومصاهرات . .

كل صباح، قبل أن اتجه إلى مقهى(أورورا) لتناول الشاي أشتري فطائر التفاح من السيدة غابريلا التي تدير محلا لبيع الأطعمة والصحف والتحف الصغيرة، اصبحت زبونتها اليومية .طوال اسبوع . وذات صباح رفضت أن تأخذ ثمن الفطائر عندما رأت صورتي وقرأت حوارا معي في صحيفة (البابيس) الاسبانية -وتلك خصيصة كرم يمتاز بها سكان الجزر لا يعرفها الاوروبيون - عانقتني وأعطتني الصحيفة والفطائر وسحلية خزفية، تعويذة حظ من أساطير جزيرتها الساحرة .

ربما قبل أن تكتمل البلدة بقرميدها وشجرها المداري، إحتل فضاءاتها فنانون فطريون افلتوا من أسطورة رعوية وتركوا في الزوايا والمنعطفات الظليلة تماثيلهم ومنحوتاتهم التي تباغت المارة، وتركوا تمثال

عاشقين برونزيين متعانقين يفاجئنا في زقاق ضيق، وتكاد تشهق في الليل وتحاول حين تبصرهما كبح فضولك وتود العودة احتراما لحب يتلظى في عناق، الممر لايصلح إلا لخلوة عشاق على مصطبة وحيدة وقيل ان النحات خلد في التمثال قصة حب بين شاعر تروبادور اسباني وفتاة من سكان الجزر الاصليين وهم (الغوانشي) ذوي الاصول الأمازيغية . .

وما أن تعبر الزقاق إلى النزل مشرقي الطراز بالفناء ذي الحديقة الداخلية وشجر الرمان والياسمين والصبير، حتى تتعثر بتمثال لجمل برونزي يبرك في منعطف طريق ضيق ومن كوى النزل تتدلى نحوه جنبات الجهنميات والياسمين وفي الساحة وراء الكاتدرائية تمثال فتاة تعزف على آلة التشيلو، موسيقاها المتدفقة تبث من أجهزة مؤتمتة اخفوها وراء جدار الكاتدرائية، تهب عليك سيمفونيات وسوناتات مع الرياح الاطلسية الساخنة من اول الصباح حتى الصباح التالي وتحت ظلال الكاتدرائية الاثرية هناك حديقة سان روزاريو المحاطة بالبارات والمراقص والمقاهي وقصر الثقافة وحوانيت الحرفيين حيث يتوزع الساهرون في البارات والمراقص ويتجمع الشباب في الحديقة حول الفرق الموسيقية ليعلنوا بهجة الحياة على مرأى من أبر اج الكاتدرائية وتمتزج التراتيل مع موسيقى الروك والجاز . .

إختراع الحقيقة كل يوم

في جزيرة غراند كاناريا عثرت على عاشقين من كولومبيا ، مصادفة وانا احتسي القهوة في كافيه أوروورا وأجالس وحدتي عصر أحد الأيام اقبل رجل فارع بقميص احمر مثل رايات الثوار مع صديقته الفاتنة ذات الشعر الطويل الفاحم ، جلسا حول مائدة تجاورني ، نهض الرجل وقدم نفسه لي على غير عادة الاوروبين المتحفظين :

- أنا مخرج وراوي حكايات شفاهية من كولومبيا - اسمي كارلوس بوينو فنتورا فيدال - هذه صديقتي بيلار . .

- انا من العراق

- من بلد كلكامش وقصيدة الخليقة مرحبا ، اذن سنتحدث طويلا عن ملحمة كاكامش وقصيدة إينوما ايليش .

يخبرني كارلوس انه مُطّلع علي الأدب الرافديني ومولع بقصيدة الخلق البابلية ويرى ان سفر التكوين قد تأثر بها ونقل عنها فالآلهة البابلية سبقت في تسمية الاشياء لتمنحها الوجود فلا شيء يوجد قبل أن يسمى حسب فكرة الخلق الاسطورية في الفكر الرافديني : منح الاسماء للأشياء ليتحقق وجودها . .

رددت بصوت خفيض مقطعا من قصيدة الاينوما ايليش :

اينوما ايليش لا نبو شمامو

شابليش أماتّم شوما لا زكرت

حينما في العلى لم يكن هناك سماء ،
وفي الأسفل لم يكن هناك أرض
لم يكن (من الآلهة) سوى آبسو أبوهم ،
وممو ، وتيامات التي حملت بهم جميعاً .
يمزجون أمواههم معاً .
قبل أن تظهر المراعي وتتشكل سبخات القصب
قبل أن يظهر للوجود الآلهة الآخرون
قبل أن تمنح لهم أسماؤهم ، وترسم أقدارهم .

وردد نيكولاس معي باللغة البابلية وصرنا نترنم بها مثل جوقة المعبد :

اينوما ايليش لا نبو شمامو
شابليش أماتّم شوما لا زكرت
ضحكنا طويلا ، واحتسينا ماتبقى في اكوابنا .

سرعان ما يختفي العاشقان الكولومبيان فتجدهما معاً يحاوران طفلاً ويصورانه أو يلاحقان مشهداً للحياة اليومية في بلدة (اغويماس) ولا يتوقف كارلوس عن فتح حوارات ثقافية مع الحاضرين ، حواراته تتواصل عن قضايا الرواية وامريكا والديكتاتوريات والغزو اوالحكايات والمسرح وكلما رآني كان يسألني عن الاحتلال الامريكي لبلادي وعن الديكتاتورية والفوضى ، ، يسألني عن بغداد واسأله عن بوغوتا ، يسألني عن كلكامش الذي قرأه مرارا وتأثر بملحمته الخالدة واسأله عن حكاياته الهندية والافريقية وخلال ذلك تكون بيلار قد تحولت الي

صورة اثيرية للعالم الأجمل الذي نحلم به جميعاً .

نيكولاس بوينافنتورا فيدال يلقي بقصصه بين أحضان الغابات وعلى ضفاف الانهار وتمتزج اصداء حكاياته بهدير الموج وانهمار المطر ، يحمل في مخيلته وهجا من نيران الاساطير وخرافات الامم ويعيد تشكيل الاساطير على هواه ويشرك معه الجمهور في تخليق الحكاية . .

طوال ليالي المهرجان كان المسرح البلدي يحتفي بحكايات الشعوب وأساطيرها ، في الليل يلتقي رواة الحكايات وراوياتها مع الجمهور يسردون الحكاية وقد يمثلونها اوينشدون فصولها مع عزفٍ على آلات موسيقية غريبة ، يرتدون الأقنعة يسحروننا بأساليبهم الغريبة في الحكي وينقلون لنا أجواء الأساطير ورياح الغابة وزئير الاسد وصوت المطر ومباهج البشر وأحزان القلوب الكسيرة والأرواح المستوحدة .

تعلم نيكولاس بوينا فنتورا المخرج والكاتب وراوي الحكايات الكولومبي من تراث شعبه هذه المقولة عن الحكاية بأنها تعني **(عليك اختراع الحقيقة كل يوم)** فليس من حقيقة ثابتة في عالمنا وماعلينا سوى ان نخترعها كل يوم ، تضم عائلته عددا من الحكائين وهو يتعامل مع موهبته بتبجيل ودفء روحي كبير ، وذات يوم وهو يروي حكاياته على المسرح ادرك ان الجمهور الذي امامه قد كبر وغادر الطفولة دون أن يحظى بسماع القصص وتذكر أطفال الشوارع الذين لم يسمعوا قط بقصص تروى لهم قبل النوم ، كان الوقت منتصف الليل في (بوغوتا) توجه راوي الحكايلت إلى الشارع ليروي قصصه للمشردين ، توهجت وجوه صبيان العصابات الضائعين وهم ينصتون اليه ، وادرك نيكولاس مقدار السعادة التي وهبهم اياها وهو يروي لهم أجمل الحكايات ، هم الذين اسماهم سكان المدن الكولومبية (قنافذ الشوارع) ،

يخبرني نيكولاس ونحن نحتسي الشاي ان ملايين الاطفال الكولومبيين مشردون في الشوارع أو منضوون في عصابات التسليب والدعارة والمخدرات وليس لديهم الوقت لسماع الحكايات غالبا فالمجتمع الكولومبي مجتمع قاس وعنيف بخاصة الطبقة الارستقراطية الكولومبية التي اطلقت على هؤلاءالاطفال المنبوذين مصطلحا لاانسانيا وهو (استعمال لمرة واحدة) هؤلاء الصغار يستعملون لاغراض الجريمة والجنس والاتجار بالمخدرات ويقتلون - يستعملون لمرة واحدة حسب في المدن الكبرى وفي بوغوتا خاصة . .

يضيف نيكولاس : لقد جرح هذا التوصيف ضمائرالكتاب والمثقفين وانا منهم وهو مصطلح شائع في الاذاعات والصحف ، وتصدت له منظمات انسانية دون جدوى ، اثرياء بلادي واثقون من خلودهم بينما يبقى الموت من حصة البؤساء والمشردين . .

مفهوم الخلود في الحب

يسألني نيكولاس : كيف ترين مفهوم الخلود في ثقافتكم؟؟

- شخصيا لاأفكر بالخلود الا عبر تجربة الحب ، **الحب يضاعف أمد الحياة ، ويجعل الزمن شاسعا بلاحدود . .**

- انتم ورثة كلكامش ، الا تثيركم قصة بحثه عن الخلود والشباب الابدي؟

- ورثة كلكامش قلة من المعنيين بأمر التراث الثقافي الرافديني ، عامة الناس لا يناقشون معضلة الحياة والموت لأنهم يؤمنون بالفردوس بعد الموت . القضية وجدت حلها في الرؤية الدينية التي قررت معنى الخلود في الجزاء الفردوسي مابعد الموت . .

يروي لي حكايته الشخصية : بدأت في كولومبيا - ازاء التدهور الاخلاقي للنخب الارستقراطية والثرية في بلادي - ابحث عن مفهوم الخلود الذي تستأثر به النخب وتدع الموت للاخرين وعثرت على فكرة الموت والخلود في (ملحمة كلكامش) التي اثارت عندي العديد من الاسئلة التي لم اجد لها جوابا .

ابتكر حكاياتي انطلاقا من المعضلات الانسانية التي تشغل بال البشر وتشكل كل حكاية عالما خاصا من الكلمات والتعابير والحركات والصور ، ومن اجمل الحكايات واكثرها تأثيرا تلك التي ابتكرتها عن خلق الاله للانسان ، وقد اجتمعت عناصرها لدي من مصادر متعددة

منها اساطير الخلق المعروفة لدى كثير من الثقافات ومنها الثقافة السومرية والبابلية وثقافات القبائل البدائية من الهنود الحمر والقبائل الافريقية ، لكني حورت في فكرة الخلق التقليدية المألوفة وربما قلبتها رأسا على عقب ، وكنت اغير فيها واضيف اليها كلما رويتها على المسرح ، والقصة التي ابتكرتها مسجلة كابتكار لدى اليونسكو في باب التراث الشفاهي .

إروِ لنا حكاية
في الانسان شئ من السماء والنور
والطين والريح والنجوم..

«خلق الاله الأشـيـاء كلهـا قـبـل أن يخلق الانسـان ، خلق الماء والشجر والهواء والارض والقمر والشمس والريح والجبال ، وكلما خلق الاله شيئا من هذه الاشياء رمى بالبقايا في المدى والعراء ، وعندما خلق الشجر رمى ماتبقى من مادة الخلق في المدى وعندما خلق الوقت والنجوم والقمر والشمس رمى ماتبقى من المادة فالبقايا تعيق عملية الخلق والابداع ولابد ان يتخلص منها ، وأرجأ خلق الانسان بعد ان تمتع بإبداع كل هذه الاشياء الرائعة ، لكن الانسان أو روح الانسان كانت تتوق إلى ان تتوجد في هذا العالم ، فجمع الانسان كل البقايا وصنع صورته في عمق المدى من جميع تلك البقايا التي كونت العالم ، ولهذا السبب نجد شيئا من الطين والنور والوقت والماء والشجر والريح والجبال في الانسان ، ونجد في كل امرأة شيئا من النجوم والشمس والغيوم وشيئا من الجبال والريح والورود»

الناس والحكاية

يلتف الصبيان والسيدات حول نيكولاس ويطالبونه بحكاية حتى وهو في طريقه لتناول العشاء ، يضحك نيكولاس ويعلق :

لايجدني الناس غريبا عنهم لانني راوي قصص ، يفهم الناس انني استدعي تلك الحكايات التي وُهبت لنا أو استعرناها من ذاكرة الشعوب عبر القرون فالقصص لاتحتاج إلى جواز سفرلتنتقل من مكان إلى آخر ، وهناك سؤال واحد يتردد على السنة الناس في جميع انحاء العالم (لماذا نحن هنا؟ ، ولماذا علينا ان نموت؟ ومن اي شيء جُبلنا؟؟) وتتغير الاجوبة من مكان لآخر ، ويرى علماء الإناسة ان هذه القصص والأساطير تقف في منتصف الطريق بين السؤال والجواب ، اي انها تملأ الفجوة الممتدة من حيرة التساؤل .

يعترف نيكولاس :

بعد تجوالي في العالم ادركت ان رواية الحكاية للناس كمثل وضع الخبز على المائدة ، اني احمل كل التبجيل للحكاية كما نبجل الرغيف ورواة القصص هم اشبه بالكأس التي يشرب منها الناس متعة الحكاية . لقد غيرتني القصص ، فقد اصبحت اكثر حساسية تجاه ظلال الحياة واطيافها ، وعندما احكي للناس احاول ان اغير طريقة رؤيتهم للامور وارتجل ما يعزز محاولتي فأحول انظارهم إلى زوايا معينة كانت غائبة عنهم . .

ألمانيا - فرانكفورت - ماينز

من ماينز إلى فرانكفورت

الخروج إلى مغامرة الكتاب . .

بدعوة من معهد غوته لحضور معرض فرانكفورت الدولي للكتاب كنت هناك ، احلم ببلاد نيتشة وغوته ، ببلاد هاينريش هاينه وشيلر وليسنغ ، بلاد توماس مان وهيرمان هيسه ، وكأنني لمحت (الجبل السحري) والمصح العتيد وراء نهر الماين وها انا اسمع هانس كاستروب بطل رواية (الجبل السحري) لتوماس مان يردد :

- . . . اننا نعيش هنا على مسافة لايستهان بها ، يجب الإقرار بذلك ، اننا نتمدد على ارتفاع خمسة آلاف قدم على كراسينا الطويلة ، اذا تمعنت في الامر ، فإن السرير - اعني الكرسي الطويل جعلني احرز تقدما في عشرة شهور ، ومنحني من الأفكار اكثر مما فعلت الطاحونة في البلد المسطحخلاب سنوات عمري التي قضيتها هناك هذه حقيقة لايمك نكرانها . . . .)

بينما كنت أفكر بمصح الجبل السحري الذي يكون الزمن فيه حرا وحيث تتوالى الايام والشهور والسنوات دون ان تترك علامة أو أثرا ، يمر الزمن دون عقبات أو حواجز ، وهكذا بغتة وجدت نفسي خارج الزمن أو في عمق مادته : أنا في مدينة ماينز على نهر الماين وكأنني انتقلت من بغداد إلى هنا على خفقة حلم ، عندما يكون المرء وحيدا وصامتا

في غرفة غريبة مطلة على نهر تمخره السفن يرى الأشياء بصورة مختلفة ، يراها على نحو أعمق وأشد كثافة ، إنه الحلم الذي أبحث عنه ، ذلك الحلم الذي تحدثت عنه الأم إلى الفتى سنكلير المبهور بجمالها وحديثها في رواية دميان لهيرمان هيسة :

- يجب أن تغثر على حلمك ، وعندها يصبح الطريق سهلا ، ولكن ليس هناك حلم يدوم إلى الأبد ، كل حلم يتلوه حلم آخر ، وعلى المرء أن لايتعلق بحلم محدد . .

لا ، قلت بصوت مسموع : لالا ، ثمة أحلام زائلة وأحلام مؤبدة ، وبوسعي شخصيا ان أحتفظ بحلمي الذي استولدته طوال سنوات عمري عن رجل لم ينوجد على أرض البشر فأوجدته في مخيلتي ، ليس بوسع هيرمان هيسه ولاأبطاله انتزاع حلمي أبدا فإنني انتمي له وهو ينتمي لي . .

أقمنا في مدينة ماينز ذات العمارة الغوطية والكلاسيكية مع كتاب عرب بينهم الكاتب جمال الغيطاني وزوجته والكاتب محمود الورداني والكاتبة اللبنانية الراحلة مي غصوب صاحبة دار الساقي وغيرهم ، فندقنا عتيق الطراز يطل على نهر الماين الذي تعبره السفن وزوارق الصيد طوال الوقت وكأننا في ميناء بحري . .

للمدينة ايقاع مدوخ - القطارات والسفن والأرواح المتعجلة ، الحرية مشروطة بالسرعة والوجود رهن ايقاع متوائم مع طبيعة المدينة ، لكني أفشل في مواءمة ايقاعي مع ايقاع مدينة السفن والقطارات . .

كان علينا صباح كل يوم بعد تناول الفطور ان نغادر ماينز بالقطار إلى فرانكفورت ونعود ليلا بعد انتهاء الفعاليات والندوات . .

اختيار ماينز لإقامة عدد كبير من الوفود المشاركة في معرض

الكتاب له مبرره الثقافي ، فهي المدينة التي طبع فيها غوتنبرغ أول كتاب في التاريخ ومنها انطلقت فكرة الطباعة إلى مدن ألمانيا واوروبا كلها ويسرت انتشار الثقافة بين الناس بعد ان كانت حكرا على طبقات معينة . .

تتوسط مدينة ماينز جامعة كبرى تحمل اسم (يوهان غوتنبرغ) تخليدا لذكراه وكنا نمر بها ونتهجى اسم غوتنبرغ ذي الايقاع الجرماني ، رحلتنا اليومية في القطار بين ذهاب يؤججه الفضول ورجوع مثقل بتعب أربع عشرة ساعة من التجوال في أقسام المعرض والتعرف إلى قلب مدينة فرانكفورت وحضور الندوات المملة والاستعراضية لبعض الكاتبات والكتاب العرب من نجوم المهرجانات المؤبدين . .

ويحدث ان تتبع الندوات وتعب نهار طويل دعوات عشاء من بينها عشاء في مطعم هندي غارق باللون الأحمر : ستائره وسجاده وأثاثه ودخان بخوره الخانق ، كل شيء كان بلون الفلفل الحار ، حتى اذا وصلت أطباق الطعام التي من بورسلين أبيض يكون الجحيم قد اكتمل فما أن تتذوق قطعة سمبوسك حتى تعجز عن النطق وتنهمر دموعك وكأنك تمضغ قرون فلفل أحمر خالصة ، نلوذ بقناني الماء ولاجدوى من الحريق ، نطلب زيتا لنطفيء اشتعال أفواهنا ، كان من المستحيل تناول أطباقه الأخرى ، فاكتفينا بقطعة خبز جبلت هي الأخرى بالتوابل الحارة ، ثم اتجهنا إلى محطة القطار بعد عشاء متخيل لنمضي نحو ساعة في قطار ذي سرعة عادية ونحن نسوق الفكاهات عن جوعنا وثقافة الطعام في بلدان العالم .

سُمع صفير أول قاطرة في ألمانيا أعلن الكاتب الألماني «لودفيك بورنه » بنبرة متفائلة « أنا متحمس جدا لهذه القطارات بسبب نتائجها

السياسية الهائلة ، فعلى هذه السكك سوف تتكسر شوكة الطغيان ولسوف تصبح الحروب من المستحيلات فالقطارات تقرب الشعوب من بعضها» كان نصف مقولة لودفيك سليما ونصفها الآخر متأثرا برومانسية القرن التاسع عشر ، قرن الأحلام الكبرى التي جعلت توق الكاتب للسلام مرهونا بهدير القطارات وزمجرة البخار ، مؤكد أن شبكة القطارات في أوروبا أسهمت في تحطيم سلطة الاستبداد وقربت بين الشعوب وعملت على تمهيد طريق الديموقراطية فالمسافرون من جميع البلدان يتشاركون عربة واحدة وتوحد بينهم وجهة السفر ويغامرون جميعا في نسج حكاية الإنسانية الكبرى التي تحرر الفرد من سكون المكان ورتابة البيت وتلقيه في أحضان المجازفة ، لكن حلم لودفيك بانتهاء الحروب لم يتحقق بل ازدادت الحروب وحشية في القرن العشرين وأنهت عصر الرومانسية بحداثة ميكانيكية وثورات جائحة وانقلابات ومجازر وديمقراطية مضرجة بدماء البشر .

في منزل الشاعر العظيم غوته

كنت أسير في الغابة
هائما . . هكذا بمفردي
وكان في ذهني
ألا أبحث عن شئ!

فرأيت في الظل
زهرة شامخة ،
تلمع كالنجم
جميلة كعين صغيرة .

هممت بقطفها ،
فقالت لي بعذوبة :
أليناني الذبول
أُقطف ياترى؟

فاقتلعتها
بكل عروقها . .

وحملتها إلى حديقتي
في مغناي الجميل .

و غرستها ثانية
في مكانٍ وديع .

هي الآن تخرج أغصانها
و تُزهر دوما . . دوماً

افضل ما حدث لي في مدينة فرانكفورت - كان زيارتي لمنزل ومتحف الشاعر العظيم (غوته) : هذا المنزل التراثي الذي دمر في الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٤ وجرى ترميمه وأعيد قدر الإمكان إلى شكله الاصلي واحتفظ باثاث ومقتنيات عائلة غوته ، تميزه العمارة الالمانية التقليدية بالآجر الأحمر الذي يكسو طوابقه الثلاثة وأصص الزهور التي تستقر في نوافذ الطابق الارضي تشير إلى ولع غوته بالطبيعة واندماجه بها متأثرا بأفكار جان جاك روسو وسبينوزا ، هناك تفتح الأبواب على مهل ، ننقل خطواتنا في خشوع لولوج المكان ، وتئن السلالم الخشبية العتيقة تحت أقدامنا وتحف بنا تلك الموسيقى البهية التي تهبنا أجنحة ثم تنساب متموجة بين الغرف - أتذكر أنها كانت مقطوعة براندنبرغ للموسيقار باخ ، تتردد بين الأصوات الهامسة والخطى المتوجسة . .

(**الديوان الشرقي للكاتب الغربي**) يشع القا من المكتبة بين مؤلفاته الأخرى وتلتمع الممرات المكسوة بالخشب بانعكاسات المرايا

والثريات وتفوح عطور معشوقات غوته العديدات وصورهن المجسدة في لوحات زيتية ، ثمة شبح فاوست يفاوض الظل القاتم المغوي لمفيستوفيليس ، والشاب الرومانسي فيرتر يكابد ويلات العشق وحيدا ، وتتماوج ظلال المعشوقات وهي تهيم بين الغرف وتصحح مسار الزمن في الساعات المهملة على الآرفف . صورته الزيتية تبوح باشواقها وجموح القلب وتوقه للحبيبات المتغنجات ، فهذه غريتشن المعشوقة التي هجرها تتقصى في وجهه تلك القسوة التي دفعته لهجرها والالتحاق بالامير كارل في فايمار ، تقف غاضبة لدى باب غرفة الضيوف ذي الأثاث المكسو بالحرير الشرقي الأحمر الوردي وتحدق بالستائر المخملية الحمراء ، وتختفي برهة بين نقوش الزهور على ورق الجدران ، انا كاترينا زهدت بحبه عندما حاصرها بغيرته المفرطة ، بينما نحن نتأمل ممتلكاته الأنيقة ولوحاته وكتبه العتيقة بأغلفتها الجلدية وننصت إلى المترجم بنبرته الوظيفية الباردة تراءت لي محبوبته الأثيرة السيدة شارلوته فون شتاين التي عشقها وهي أم لسبعة أبناء وتكبره بسنوات عديدة ، حدقت في طيفها فبدا على سيمائها ذلك النبل الجميل وخبرة الحياة ورصانة السيدة المثقفة الواثقة التي نجحت في كبح جماح غوته وتهوره فكانت علاقتهما صداقة حميمة راقية انعكس تأثيرها على غوته العاشق فتبلورت شخصيته وتحولت اعماله من الاندفاع الرومانسي الملتهب إلى الرصانة العقلانية .فبدأت لديه المرحلة الكلاسيكية وشارك الامير كارل في ادارة امارة فايمار وعينه وزيرا ، وانعم عليه القيصر يوزف الثاني بلقب نبيل (فون غوته) ورافق الامير في رحلاته ثم غادر المانيا إلى ايطاليا وتجول فيها على مدى عامين واستلهم منها الكثير مما عزز شاعريته واثار ت رحلته غضب

المعشوقة شارلوته فكانت القطيعة . .

هل توقف غوته عن العشق؟؟ أبدا فها هي الفتاة الصغيرة كريستيانه فولبيوس الفقيرة شبه الأمية تخلب روحه ولبه وتشغله عما سواها فتعيش معه في منزله ولكن مكانته في البلاط لم تسمح له بالاقتران من هذه الحبيبة ولبثت معه طويلا ووقفت تذود عنه ضد جنود نابليون عندما هاجموه ، فأعلن زواجهما واعترف بابوة إبنه اوغست . .

كان مفيستو فيليس يتربص بالفتى فاوست في كل زاوية من المنزل ، كان يتخفى وراء تموهات الضباب أو بين ظلال الشجر والزوايا المعتمة ليباغت فاوست كل آونة ويعرض عليه مشروعه : ان يرهن فاوست روحه لدى مفيستو فيليس على مدى عشرين عاما بينما يحقق له الشيطان مفيستوفيليس جميع طموحاته الأرضية ، هنا كان فاوست يلاحق انفاس غوته ويحاصره ، الشاعر شيلنغ يحث غوته على اكمال المسرحية ،

مرارا كتب غوته (فاوست) ثم أعاد صياغتها ، مرارا كان يتخيل فاوس الذي يخصه مختلفا عما كتبه الآخرون ، ننصت لخطى غامضة في مكتبة غوتة ، ننصت لصوت بعيد الغور ، انه صوت فاوست الطموح ، هوذاته يعلن تمزق روحه :

- في صدري وا اسفاه ، تسكن روحان ، وكلتاهما تريد الانفصال ، عن الأخرى ن احداهما تتشيث في شهوة قوية بالعالم بواسطة أعضاء متمسكة ، والأخرى تسمو على التراب بقوة صاعدة نحو ساحات الأسلاف العلويين . .

يصوغ غوته احلام فاوست وحواره مع تلميذه فاغنر ، يهيم فاوست

في عالم من التصورات والرؤى التي يستجلبها طموحه القاتل :

- أواه ، حينما يضيء المصباح من جديد وبلطف في صومعتنا الضيقة ، ينشرح الصدر ويستنير القلب الذي يعرف ذاته ، ويبدأ العقل في الكلام مرة أخرى ، ويزهر الأمل من جديد ، ويتشوق المرء إلى جداول الحياة ، آه ، إلى ينبوع الحياة . .

نتم تجوالنا في منزل غوته ونمضي ماتبقى من المساء في ندوة يقيمها معهد غوتة في مدينة مجاورة نتحدث فيها عن تجاربنا واحلامنا وبلداننا الغارقة في دخان الشرق ولجج الحروب .

قبرص
جزيرة يراقصها العشاق وظلال الالهة

اكتشف المدن كما اكتشف الحب ، واكتب عن الجمال وكأنني في نشوة النجاة من موت محقق والتشبث هذه البرهة بسر الحياة ، في الجزيرة محرضات للبصر والسمع والذوق ، مثيرات للأحزان والأفراح ، هي جزيرة متع ومسرات وعشاق بقدر ماهي جزيرة صراعات وسياسة يائسة ، أحاول الكتابة عن موسيقاها فأعجز عن تأويل الأنغام بالكلمات ، الموسيقى المشربة بأنين الموج وتراتيل الالهة وحزن الارامل اليونانيات اللائي خطفت الحروب مع الاتراك رجالهن ، الموسيقى فن طليق كالريح يصعب القبض على جوهره ، لا تحتويه لغة ولا تشبهه كلمة ولا يمكن صوغه بالحروف وعندما يعزف احدهم على البوزوكي تهتز أوتار القلب وتنتشي الروح بالنغم والإيقاع وتفيق الأشواق من سبات مديد ، تتهادى السيرينات والملكات ، تتراقص الستائر المخرمة على النوافذ وتفوح روائح الحب والأطعمة المتبلة والنبيذ وجبن الماعز وعسل الجبال . .

تخطفني الموسيقى اليونانية في العاصمة القبرصية من عبير الصنوبر وضجة النواقيس بينما عصافير الضحى تتقافز بين أشجار اللوز والجهنميات تفتش في عناقيد وردها عن نحلة أو يرقة والموسيقى تواصل سرقة خطى العشاق نحو المتاهات الأجمل في الأسواق القديمة

وأبواب الكنائس والأطلال ووتسحر فتقودهم العابرين إلى مدارج آلهة الأوليمب التي وزعت أساطيرها على الأرض اليونانية وقبرص وكريت ، ها نحن نطارد سحر المدينة في روائحها : العطور الأرضية تشع من الحدائق النضرة ومياه المطر والنوافير ، عطور النساء الجميلات تتمازج في الأزقة الظليلة مع روائح الحجر العتيق ، يخبرنا علماء آثار إيطاليون أن أول عطر عرفه الإنسان كان في قبرص قبل ٤٠٠٠ سنة ، تنسينا عطور الجميلات روائح أطباق شواء السوفلاكي والموساكا ، ثقافة الطعام تتضافر مع الموسيقى وتأتي لنا باليونان على طبق مزين بالمحار والزيتون وتحاول الشوارع أن تموه تاريخها وواقعها الأغريقي بأقنعة لندنية فالحافلة الحمراء ذات الطابقين والسيارات ذات المقود إلى اليمين تسير في الجانب الأيسر من الشارع ، تترنح نيقوسيا بين الشرق الهيليني والغرب السكسوني ، بين البحر الجبل القاسي والسهل الذي ينتج عسلا ولبنا ونبيذا وألف صنف من الزيتون تتكفل كلها بجعل الحياة متعة مستديمة ولكن ليس لأمراة تسافر وحدها . .

هناك جزر منسوجة بتاريخ الحضارات كلها ومباحة لأهواء الأباطرة والغزاة وقبرص جزيرة الإلهة افروديت كانت مطمح الآشوريين فبلغوها بسفنهم وهم يبحرون في لجج الملح وتمتلئ سفنهم بنحاس الجزيرة وحريرها وزيتها وياقوتها وفيروزها ، فراعنة من ممفيس وفرس من أكباتانا تصارعوا على أرضها في انتظار أن يأتي الإسكندر ليطرد داريوش من جزيرة الآلهة ، حاضر نيقوسيا الجميلة موسوم بعنف السياسة ، هي التي مرت عليها الغزوات والثقافات النهرية من الغرب الآسيوي- من آشور وتركيا حتى بلاد الإغريق ومدارات المتوسط وتركت عليها السياسة ندوبا لا تزال ماثلة على حجارة أطلالها وقلاعها . .ومازالت

قبرص تعانق البحر وتتوزع بين مزاجين إغريقي وتركي وهي تحدق في حاضرها من وراء معبد ومنارة .

أتساءل وأنا أتجول في أزقة نيقوسيا ، لماذا نحب بعض المدن وتستهوينا إشارات ثقافتها وذاكرة حجارتها؟؟ ألأنها تهبنا موسيقاها طوال الوقت وتجمع بين أغاني جيورج دالاريس اليوناني ونغمات جورج ثيوفانوس وروح الشرق أم لأن التراث الإغريقي يلوح في وجوه حائكات المصير على طريقة بنيلوبي وهن ينسجن الشالات والدانتيلا برسوم من أردية الآلهة وأغصان زيتون وفراشات وحوريات بحر؟؟ لماذا تغوينا بعض المدن فنقع في هواها؟هل لكونها انعكاساً لمدننا عند حافات آسيا فتبلغنا منها ذبذبات مشرقية وغوايات زيتون ولمحة من خشونة آشورية ألفناها طوال العصور؟

في الساحة الكبرى -الأغورا يلتقي المعبد والسوق وتاريخ الحرية والاستعباد في آن وفي الأغورا ذاتها أعلن ملكها (أوناساغوس) ولاءه لعاهل آشور في القرن السابع قبل الميلاد ثم اغتسل الملكان في مياه نهر (بيديوس) : الآشوري ربما ليحتفل بنصره وآلاف الأسرى والقبرصي نشدانا للمغفرة من جريمة تفريطه بوطن وفي ساحة اليوم يبدو كل شيء مقلدا لتاريخ ما وفكرة غامضة ، فترى سمات ثقافة إغريقية وإنكليزية وتسمع ترنيمات بيزنطية ترتلها جوقة الكنيسة .

رجل الحلم

في شرفة فندق ابولونيا بيتش ، يستوي كأس الشاي وهدير البحر وتذوب حواسي في فقاعة شذا ، والزمن يتآكل بين موجة وأخرى وأنا أوازن فرار الزمن مني بحب شاسع لرجلي المتخيل ، وأتبادل الأنخاب مع ظلّه الذي يتلاشى في ارتداد موجة وتبددها . .

وجهه يتراءى في حرير الغياب ، وعيناي تقنصان النجمة الوحيدة التي تمشط أحزاني وتلعق رماد الحروب عن شفتيّ ، ثم تهيئني لإحتمالات وميتات تمطرُها على ربعي الخالي : هذه الروح المتوحدة ، وهذا الجسد المتبتلُ في رمالهِ ومفازاتِ الأبد .

يحيقُ بي الرحيل إلى جزيرة المصائر المتشظية بين حضارتين وثقافتين وأستطلع لدى عرافةِ معبد دلفى ما تبوح به أصداء زيوس وهمسات الكاهنات الضارعات أمام البانثيون فتقود العرافة طيف الرجل الذي خبأته في حلمي ، ترسل أثينا البومة طائر حكمتها الي صباحي لأصوغ من انتظار الطيف تاريخا للشجن . .

أدجن وحشتي برشفة شاي ، وينتابني بحرٌ وتخطفني مرافئ وكاتدرائيات ومعابر وجبال . أحاول لغة حميمة أسكبها في الليلة المقمرة ، أحاول شايا أسود أنيق الشذى من (إيرل غري) ، لكن أمواج المتوسط عاتية في الليلة المقمرة والوحشة ترفرف في جسدي . فترتد الكلمات إلي بعد ارتطامها بمستحيلات العيش في هذا العالم ، ليتخذُ الشايُ مذاقَ الدموع وطعم الضلال في التيه البحري . .

- حكمة سيدوري صاحبة الحانة

أهدهد المساء على نغمات وموسيقات ، خانة بعد أخرى يكتمل النغم في اربعات وثنائيات ، أحتسي أكواب الشاي ولا أحصيها وأرى رجل الحلم منغمرا في فضة القمر . . .

أروح في سديم أبيض . .أروح في مدار أزرق . .

أتغاضى عن غواية عطارد وأتلاشى بين تجاذبات الزهرة ، وحلقات المشتري . .

وإينانا الزهرة تغدق على ذهولي أعاجيب الحب :

تحت اشجار الكرز تطرح وشاحها . .
عند باب نركال تلقي صولجانها
لدى عرش آنو ترش زيت التقدمات
تقطف ازهار الجلنار من بساتين الانوناكي
ترسلنا في زورق القصب إلى فم الانهار
تلقي الينا بالمجاذيف ومرادي الصفصاف
وتدعونا إلى حانة الالهة على البحر . .
تعلمنا صاحبة الحانة حكمتها العتيقة .
وتنشد بصوتها البحري الازرق :

كل صباح أنسى مامّر
وانتظر الآتي

يتناءى صوتها وهي تدعو العابرين إلى نظرتها الابيقورية في تأويل المتع . .

تلقي ايناناا الحلقة المعدنية لسلطة الوهيتها وعصا الملوكية وشارة الخصوبة في قارب

القصب وتمضي بنا إلى حفل الشاي الاوروكي الذي يقيمه شعب الانوناكي وهم في صخب صراعهم على انصبة الملك، يديرون المكائد بحنكة آلهة ماكرة وجشعها.

يرش الكهنة رحيق شاي اخضر على الاضحيات المرصوصة فوق مذبح معبد الخصوبة واغصان شاي مجفف عند البوابات العشر لمعابد القمر - سين - نينار ويلوحون بمشاعل تمردهم على آلهة اور وبابل المخربة..

ليماسول: يولد الليل من رعشة النجوم

في الجزرالمتوسطية يولد العالم والأرض والليل من رعشة النجوم والبحر ويتفتح النهار من زهور الجهنميات وينتحر العشاق اليائسون عند الغروب، يبدأ الزمن من الصفر المطلق، كما تبدأ الحياة من مخاض أليم وصرخة وليد لتنتهي كحلم مبتور، يبلغ الزمن على المتوسط سن الرشد قبيل اشتداد المدّ ثم يتعثر بين موجة وأخرى ويخادعنا ليخطف أحلامنا.

نجمة وحيدة تشع في ليل الجزيرة تهمهم بأغنية حب وعند سور مرتفع بأسلاك شائكة تحط بي إحدى مراحل التيه ويستوي رنين الحزن مع هدير البحر وأغاني ديميس روسوس وزعيق النوارس، موجة نزقة ترش ملح المتوسط على وجهي وتمحو علامة الموت العراقي الموسومة على جبيني، أغدو بئرا تفور بالأمل من أجل مالا يأتي، أما ما ضاع مني فلم يعد يخصني، الأشياء ليست ذواتنا والممتلكات أغلال

الخطى ، الروح تحلق بأجنحة خفاف نحو مجاهل تغوينا ولا تهبنا ميثاق أمان .

أستطلع لدى عرافة المعبد ما تبوح به أصداء «زيوس» في نهار الجزيرة الأزرق ، عشاق من رفاق الرحلة يصوغون المتع على قدر ما تتسع لحظتهم العابرة غير آبهين بغير حاضرهم الفاني والتلفزيون اليوناني وال CNN يعرضان كارثة غرق سفينة تهرّب الحالمين بالحرية ، ، استغاثات الغرقى العراقيين الهاربين من جحيم الدم إلى جحيم الماء تتصادى في قاعة الفندق والعشاق اللاهون عن الزمن يواصلون التشبث بحاضرهم المبتسر ويرعبهم مرور الزمن وتكدرهم احتمالات النهاية ، بينما ينتهي مستقبل الغرقى في أجواف الحيتان .

يحاصرني مذاق الدموع وطعم الخديعة : الساسة ومدونو التاريخ صناع الخدَع الكبرى وإزاء التيه أستعيد قصصا من تاريخ البشر وخرافاتهم لعلني أميز اتجاه خطوتي في المتاهة والزمن الملتبس ، أطرق باب التاريخ فلا يرتد صدى ، التاريخ أمة من الموتى ورماد الأساطير ، أطرق على الليل فلا تنهمر النجوم ، أطرق على الحاضر فلا أجدني فيه ، أطرق بوابة البحر القادم من أثينا وأنادي الموج الراكض إلى جزيرة كريت فلا أسمع غير صدى لوعتي وأنين بغداد ، أطرق على باب بغداد فلا يرتد صدى ويرتجف الشاي في قدحي كما ترتجف الروح في أول لقاء مع الحبيب .

أرى سفن الآشوريين تحتشد عند ميناء كتيون وتسرق النحاس وجرار النبيذ واللقالق ، ثمة آشوري غائم الحدقتين يسوق الغمام بسوط له مقبض ذهب ويسأل العابرين عن حانة تقدم خمر النسيان والأسيرات المجلوبات من بلاد تراقيا ومن شعره المجدول يفوح عطر

سميراميس وسط ذكورة المعركة والقتلى وشهوة السلطة ، سفن المهاجرين الهاربين من المحرقة تغرق أمامه بين الجزيرة والوصول المستحيل ، سفن يقودها أموريون من دمشق وفينيقيون من صيدا وأتراك من مرسين تلقي بركابها المنحوسين في البحر ، استغاثات الضحايا تطوف حول قبرص وكريت ولا تبلغ بوابات السماء ، وتاريخ الغزاة يهمل تدوين رعب الغرقى وأسماءهم ، فأسفار التاريخ ومجلداته محجوزة لأسماء القتلة والطغاة واللصوص والغزاة ، الحراس اليونانيون الثملون يعتقلون الأربعة الناجين من السفينة في الميناء الذي بلغوه سباحة ، ثم يقيم الحراس وليمة مرتجلة على شرف أرسطو وثوار كومونة باريس بينما تلتهم أسماك القرش أصابع الصبايا العراقيات ونهودهن ويسوَد ماء المتوسط في الظهيرة القبرصية ، أجالس أحزاني ومذاق الدموع في المقهى الذي ترتطم النوارس والأمواج بنوافذه وأطلب من النادلة قهوة تركية لأهدّئ روعي فتهمس بصوتها المهذب العاتب : تعنين سيدتي قهوتنا اليونانية؟

انصت في الليل البحري إلى هذر الموج ولغط المرافيء الصغيرة وانين الغرقى ، اسمع موسيقى البلوز الحزينة يعزفها عازف أسود على الساكسافون ، أهبط من شرفة فندق (ابولونيا بيتش) إلى الشاطيء وأستل صوت رجل الحلم من بين براثن الموج ، أجلس على صخرة كبيرة في حاجز كسر الأمواج ، وتهب من نافذة بعيدة موسيقى ثيودوراكيس ، رغوة البحر تلعق قدمي ، يدركني ماء الحياة ، تدركني رعشة أصابعي ، تجيء الحياة من عماء الماء ، وومض ابتسامة ينعكس على أعراف الموج يبادلني الشغف المستحيل ، واهتف به : ليس بعد ، ليس الآن ، ليس هنا ، ميعادنا تحت ظلال الأبد . .

نيقوسيا وقصائد كرياكوس
كارالامبيدس وقوّة الحب

قيل اذا لم تعرف نساء بلد ما فكأنك لم تعرف شيئا عنه ، وقيل ايضا إذا لم تقرأ شعر مدينة ما فكأنك لم تزرها ، وما لم تتعرف إلى أحلام أهلها في قصائدهم فكأنك تجوب مدينة لا ينتابها عشق ولا يمسها حزن وكأنك لا ترى غير حجارة مصمتة ، سألت أحد موظفي الفندق عن أهم شعراء قبرص المعاصرين كرياكوس كارالامبيدس ، فقال لي الشاب النحيل إنه سيسأل أحد زملائه العاملين في الفندق فذاك شاعر ومدمن قراءة ، عاد الشاب ذو الشعر الأسود بورقة مكتوب عليها بالإنكليزية «هو شاعري المفضل ، لأنه حارس الروح القبرصية ومجدد الشعر اليوناني المعاصر ، لا أملك كتبه بالإنكليزية وإليك كتابا عنه»

رفاق الرحلة لا يستيقظون قبل الحادية عشرة ، لذا جلست أحتسي القهوة وأقرأ عن الشاعر الذي يعد الأبرز في الثقافة اليونانية القبرصية وتتردد قصائده في الغرب وهو عاشق للثقافة الغربية دون أن يتخلى عن ينابيع التاريخ الثقافي اليوناني التي تغذي وجوده وذاكرته وشعره ، يذكر اسمه إلى جانب كافافيس وايليتس وجورج سيفيريس ، اقتحم صالة الفندق سياح مرحون ضاجون حيث جلست أقرأ قصيدة (موت في الإسكندرية) لأني لم أجد قصيدة حب سواها وهي عن حب

مختلف ، ، لعل الشاعر أرادها مرثية لكافافيس أو ليؤبن شاعرا يونانيا آخر عشق الإسكندرية واللغة العربية وفضل أن تكون كلمات تأبينه بالعربية :

«بعد شهر من رحيله

ألقيت الكلمات باليونانية والفرنسية والإنكليزية ثم الإيطالية والعربية

الشاعر الميت فضّل العربية

لأنه كان يحسب أن أبجديات الأمم ستتلاشى

وتختفي المدن والقصور والإمبراطوريات

وتنجو قصائده من الفناء محفوظة في نقش نحاس عربي ،

سوف تبقى «العربية» بعد الجميع ، فهي تبدو كما «الإغريقية» التي اتسعت وامتدت حتى تخوم صحارى مصر»

ما أن أنهيت كتابة القصيدة في دفتر ملاحظاتي حتى حان موعد خروجنا إلى المدينة توغلنا في السوق بطرقه الملتوية وواجهات محلاته العتيقة المزحومة بتماثيل تقلد آلهة الأوليمب فهنا الإلهة أثينا وطائر البوم رمز حكمتها وهذا بروميثيوس سارق نار الآلهة تنهش العقبان كبده فتنمو له كبد جديدة كل صباح ، يالقسوة الآلهة ويا لمجازفات البشر التي لن تتوقف مهما عاقبتهم الآلهة .

غافلت صحبي وتسللت إلى مكتبة صغيرة في زاوية الشارع واشتريت الكتاب الوحيد الموجود لديهم باللغة الإنكليزية لكارالامبيدس ، ودسسته في حقيبتي ، كان عنوانه «جهالة الماء» هل يعرف ماء البحر أو ماء النبع بأنه منذور للجهالة؟؟ قال الماء إنه يجيد تطهير الأرض من خطايانا وتنقية اللغة والأحلام من سوء أفعال

البشر ، رجل نحيل يعتمر كاسكيتة سوداء يعزف على آلة البوزوكي في مقهى صغير تحتل مقاعده رصيف شارع اوناساغورا ، برد كأس الشاي خلال انغماري بالموسيقى ، تلفعت بالشال من ريح قارسة هبت على ظهيرة نيقوسيا وعندها تناهى إليّ صوت المطربة العظيمة «نانا موسكوري» واستحضرت صورتها الجميلة بنظارتها الطبية وصوتها السماوي وهي تغني (قوة الحب) فازداد الشاي احمرارا في قدحي وتراقصت الشمس على قمم أشجار الدلب التي تظلل الرصيف ، وتفتحت أزاهير الجيرانيوم والبتونيا في الشرفات بقوة الحب التي انهمرت من صوت موسكوري وتعالت ضحكات العشاق مختلطة بصخب العابرين ، في المقهى عشاق يتواعدون لأعياد نبيذ باخوس وسائحون يسألون عن خليج بافوس حيث ولدت أفروديت من زبد البحر ، تقرر مجموعتنا الذهاب معهم لنتبارك بمولد افروديت التي اختارت ان تهبط في جنة قبرص ثم لتختفي ذات ليلة مقمرة ولا تترك في الخليج أثرا سوى صخور سوداء موحشة تصارع النسيان وموج المتوسط .

في متاهة لارنكا

قلب المدينة مخصب بالموسيقى وأعياد باخوس ، تأخذ أوهامي إلى حيث يقام في الكنيسة البيزنطية قداس المساء ، أجتاز الممر الرخامي ، الأعمدة الهيلينية ، البوابات المنحوتة من خشب السنديان ، وأجلس على المصطبة العتيقة ، يخطف أمامي طيف رجل الحلم ، غامت عيناي برؤيا مروره ، عيناي مطبقتان على نظرته ، شمعة عملاقة تضيء المذبح وصورته تغالب الأيقونة المذهبة وتحط في حدقتي وتنام في الألق . مخدرة بموسيقى الأرغن العملاق أذوب على سنديان الأعمدة ، تغادرني صورته إلى حلمي وتتطابق مع صورة الرجل المكنوز في أحلامي تستغرقني التراتيل وتنسدل علي عباءات البخور وغواية زهور غامضة هي مزيج من أقحوان الخريف والمنوليا التي تستدرج الحواس إلى هيامات الرغبة . .

يرش القسس مساء الكنيسة بالمزامير ، ويوصدون باب الجحيم بالغفران ، ويستبقون لي رشقات من ذهب الأساطير . ينتهي كل شيء ، أمضي في متاهة المدينة القديمة وحدي أسير ساعات دون أن أخرج من المتاهة ويرشدني شذا الشاي إلى المقهى البحري المستلقي على حدود الماء وزبد الأمواج ، اطلب شايا وفطائر تفاح وأنتظرالطيف حتى يتحجر الموج في هيئة حوت أو سفينة ويتجمد البحر متخذا سيماء بوسايدون ويشير إلى سفن من فضة البرق ، تهيم في شذا

الشاي والزوارق تروح مترنحة في أحضان الزرقة : استعارات ماجنة لرحيل الرعاة نحو كهوف النشوة . .

يسوّد الشاي أكثر في قدحي ، تسوّد حافات الأفق ، ليل البحر أسود ترقشه ثقوب ضوء وطيف الرجل يسرقه البحر ، خلجان معتمة ترش تاريخ الماء على الأزقة الفواحة برائحة الاسماك والبخور والأخشاب العتيقة . أعابث كل اللغات ، لا رنين للكلمات ، وحدها أغاني جورج دالاريس تضج في الزمن ، ترثي القلوب الوحيدة والعشاق الغرقى وذئاب المدن تنوح لدى مرور القمر ، أعدو في مياه الكون ، لاشيء سوى أصداء من طوفان التكايا ، وغير فقهاء يتنادون في عتمات الزمن ويتداولون جدل التطهر من قطرة دم أو لمسة أنثى قبيل الركوع . .

يد الطيف تلوّح لي من خليج إلى مرفأ إلى نوء بحري ، ودمي سحابة تمطر على المرايا ، تلويحته تستدرج وحشتي إلى معابد وأيقونات ، أتبعها ، أتبعها مسرنمة مغيبة بفتنتها ، ونداءات تتخاطفني كأنها موسيقى السيرينات ، أجدني قد ضللت الطريق إلى خوفي وشخصت بمصيري إليه في رؤيا التيه المائي وانا أرنو إلى المضيق الأخضر ، أنصت إلى صوت مغن ريفي يترامى في الزرقة مع ناي من قصب يروي حكاية الاسكندر لعابري التاريخ المتعجلين . .

ميناء بافوس

رماد براكين بافوس يعلو زبد البحر ، صخور الآلهة سوداء ترتمي في الخليج الأزرق ، وترتل أنشودة أفروديت المستلقية على شغاف الغمام ، تمثال أفروديت يواجه البحر . والشاي له طعم الحنان الماطر من النوارس السعيدة وهي تلطم زجاج المقهى بعد أن عبرت جسد أفروديت النائمة في المرفأ ، ونثرت أجنحتها على النهار الغارق في دموع الضارعات أمام معبد دلفى ووجه غريب لأمرأة فاتنة تنشر قلوع سفينتها أمامي ، تلوح لي بالنجوم التي قطفتها من جبل أوليمبوس وتعزف على قيثارة أورفيوس وتنسيني جخيم آلهة الموتى السومرية التي انبعثت في عصرنا الراهن وطافت في مدننا وشكلت صورة أيامنا برماد الحروب .

مثل برق مباغت تأتي احتمالات شتى مما وراء الغيوب وتتوارى في نشيجي ثم تغدو إلى أسوار كورنثة أو معابد منف ويهتف صوت رجل الحلم اللامتشكل واللامرئي من معبد دلفى :

- غدا تجديني عند باب الحياة أو إن شئت تعالي إلى الغد ، فأنا أقيم على تخوم الشمس . .

يسقيني رحيق أساطير غريبة ممزوجا بخلاصات أعناب وتمور ، وتخبره ملكة العالم السفلي أن لا يلتفت نحوي وإلا قضى عليّ لكنه ينسى الوصايا وينساني عند مفارق النوء على شاطئ المتوسط وهو يرود المخاطر بين حزن وحزن ، ويبدد تراتيله في البراري وبين الخلجان

الغامضة ، ويهدرني عند احتراق اللغات ، ايها الرجل الطيف أراك تقفو خطا يوليسيس وتصطاد كلماتي من المضائق المالحة وتلوّح لسماء سوداء ترملت بموت سيدها العتيق حسب بلاغ نعي مبتسر من نيتشة . .

يجرفني موج المتوسط إلى خلجان السيرينات وزيوس يخطفك من عناقي . تعزف ميوزى على درع سلحفاة وتسحر الملاحين فيلقون بأنفسهم في عين العاصفة أما أنت فتنجو من سحر السيرينات بالفلك الذي صنعته لك من نسيج أهوائي وحرير الانتظار .

اترنح مأخوذة بالرؤى وحسابات الأفلاك وحيدة اعبر بين معبد كورنثة والبحر وأنتظر وحيدة في شارع (مكاريوس) . أرنو إلى رحيل رجل الحلم في الموج والسيرينات يكممن فمي بأيديهن التي من أصداف البحر ، ويحِلنَ دون بلوغ صرختي إلى مسامع الإله آنو في أور ، تقدم لى النادلة الصغيرة قدح الشاي فأرى السيرينات مرسومات على الخزف القبرصي محاطات بالراقصين العراة وضاربي الطبول وحاملي التقدمات من ماعز الجبل وطيور البر وعسل الكهوف والشاي البافوسي له طعم شهقة على وسادة الريح ، و نورس سعيد يلاطفني بجناح مغموس في الليل ينثر على قميصي ملح الخليج الأخضر ليورق جسدي بأعاجيب من وهم حبي لرجل من صنع اهوائي وبلادي البعيدة تنوء بأغلال فقهها الأبله . .

باريس غير التي بها تحلمون
فندق عدن شارع بلوميه - المنطقة ١٥

١

أكتشف باريس في نهار المطر أو مساء قوس النصر في ساحة النجمة ، أسير من فندق كونكورد لافاييت ، صحبة جمع من الأصدقاء والزملاء الذين يحضرون مؤتمر حرّية التعبير والتنمية الإعلامية ، أجيال مختلفة واتجاهات متباينة ، ساحة الايتوال- النجمة اقترحوا أن نمضي الأمسية في الحيّ اللاتيني ، نكتشف الأزقة وننهي التجوال في مطعم من مطاعم الحيّ الصغيرة التي تبوح بهويتها موسيقى شعبية وروائح أطباق ساخنة وملابس بعض الندل والعاملات . .

مررنا بمقهى للمثليّين لم تكن هناك أيّة امرأة ، تصوّروا في باريس مقهى دون نساء ، وحشة وجودية وعالم ناقص ، لكنّ النّساء السّائرات في الأزقّة كنّ يلتفتن إلى الحشد الضاجّ لمقهى الرجال ويبتسمن بخبث أنثويّ لانعدام فرصة مرافقة رجل في ليل الشتاء والموسيقى . .

ثمّة في الحيّ مطاعم يهودية تقدّم الشاورما والفلافل والحمص والتبولة كتراث يهوديّ! عربيّة تستدرجك بتوابلها المثيرة ويونانية تميّزها موسيقى البوزوكي والمشروبات والأطباق المتوسطية ، أمّا الصينيون واليابانيون والهنود فلهم أحياء تخصّ ثقافاتهم الآسيوية ومذاقات

أطباقهم المتبّلة بالبهار وعبق البخور الخانق . .الصينيون يحتلّون (بلفيل) والهنود لهم منطقة (لاشابيل) . .

اختار الجمع مطعما يونانيا أشبه بمقهى ريفيّ على سفح جبل إغريقيّ ماثل بآلهته الغاربة . .

كنتُ وحيدة تماما بين هذا الجمع من البشر ذوي المواقف والأهواء المختلفة ، كانوا يتحدّثون بأصوات حادّة ونبر عربيّ عال والسياسة موضوعهم ونبوءات عن وطن يتلاشى في التاريخ وتكتم أنفاسَه صراعاتُ الفقهاء والنظم الدينية ، احتسوا الأنبذة والمرطّبات ولحوم الضّأن المشويّة على الطريقة الرّيفية اليونانية بأعشابها ونكهتها التي تحيل إلى قرى معلّقة على الجروف الصخرية بين أشجار الزيتون المعمرة والأعمدة الهيلينية على مشارف أثينا ، كنت ساهمة بين الحشد والنقاشات تعلو على موسيقى ثيودوراكيس ، تناقش الشباب الأكاديميون مع الإعلاميّين بمنطق توفيقيّ يراوح بين القبول بالنزعات الدينية واعتبارها إفرازا واقعيا لمجمل ما مرّ به العراق من تأسيس الدولة الحديثة حتّى اليوم وبين رهان البعض منهم على انحلال التشكّلات الدينية وتفجّرها من داخلها نتيجة الصراعات التقليدية على المناصب ومصادر المال والهيمنة على المناطق الغنية بالبترول والمعادن . .

نقاشات ضاجّة ووثوقية جدّا وكلّ يصوّر نفسه مالك الحقيقة النهائية وسيّد التأويل في طبيعة الطوائف والقبائل والإثنيات والسياسات . .

يصيبني الدوار من كلّ هذا الذي ، فالحوارات تنطوي على قدر كبير من النرجسية أو الاستعراض الذي يتعاطاه محترفو المؤتمرات وبرامج التوك شو . .

٢

لا أحد يعرف أين تنتهي الأحداث المتوقّعة وأين تبدأ المصادفات- وما وجودي في باريس التي يحلم بها الآخرون- إلاّ محض مصادفة مربكة لم أحتط لها ، لم أضعها في الحسبان ولم أحلم بها إلا وهجة نور نائية ومستحيلة وبالتالي لم أنبهر بها كما ينبغي لمن يراها أوّل مرّة ، جمال باريس المتاح اكتمال تاريخيّ وفتنة أمكنة وتراكم عصور ، لا يسعك الإمساك بشيء منها أو تحاشيها وسيكون عليك أن تكابدها كوليمة مقدّسة ، تفتنك بروائحها وأناقتها وتنوّع عمارتها وزيناتها الملهمة وألوانها ومفاجئاتها وغرائبها . .

الولائم المقدّسة لا تخصّني وليس لي أن أعوّل على وهم جديد ليتبدّد كما تبدّدت أوهام جيلي ، فأنا من الذين غادروا فلك الدلال ورفاه العيش إلى التشرّد والإبحار في قارب مترنّح وسط العماء ، كيف لي أن أنبهر بباريس إذن وأنا وسط طوفان مضطرم من الغربة والغرباء والغرابة؟؟

فندق (عدن):
في مواجهة العدم

فندق (عدن) كان أوّل نقطة لي في التعاطي مع متاهة المدينة الكوزمو بوليتانية المغوية، حياة باريس أشبه بالكاروسيل -دوامة الخيول الدوارة في السيرك- تدوّخك وتدور بك ثمّ تباغتك بالنهاية الوشيكة لتهبط إلى الأرض، مترنحا ووحيدا وفي ثيابك بقايا رعشة وفي قلبك بقايا غبطة طفولية: أنت في باريس!! . .

حياة جذلة، عابر سحرها، مؤقّت كشمس النهار، متغيّر، ومخادع، سحرها مجون الزمن في اللامكان، جنون البشر في اللازمان، كأنّ قيام الساعة آت بعد بضعة أنفاس من هواء الشتاء، مدينة لفرط اشتغالها بالخيال تبدو أشدّ واقعية من الحلم بها، وإذن فلأكن قادرة على تحدّي واقعيتها المرّة وعدميتها وجموحها . .

مقاهيها أرصفة الحوار وتاريخ القراءة وصباحات القهوة، أجالس نفسي وأحاور وحشتي في المقهى، قهوة الأسبريسو وقطعة الشوكولا الصغيرة معها توقظني على وحشة القلب، في بلد أجهل لغته ويعاملني كطارئة عابرة ونكرة في درجة الصّفر . .

استعمار العراق لسوء حظّي كان بريطانيا ولغتنا الثانية هي الإنجليزية والفرنسيون يحمون لغتهم من طغيان اللغات الأخرى ويرفضون النطق بأيّة لغة أجنبية فهم مولعون بالموسيقى الصادحة

للغتهم ولكنة باريس شبيهة تغريد العصافير في متنزه اللوكسمبورغ . .

العدم في عدن باريس هو المسافة ما بين كينونة ناجزة مهددة وصيرورة مستحيلة ، وهو حالة من ضياع القصد والدوران في حلقة مفرغة من ضلال الخطى . .

عدم يسمّونه اصطلاحا : اللجوء ويسمّونه المنفى ويتعطّفون عليه قليلا أو كثيرا فيسمّونه التغرّب أو يضفون عليه سمة الخيار الواعي فيكون مهجرا غير أنه يبقى ذلك العدم المقرون بالاقتلاع المرير والتشرد . .

وأنا المرأة الغريبة التي هربت من الموت إلى عدم متاح لتقيم في فندق هو صورة مقلوبة لجنّة عدن وغرفتي في الطابق الثالث تطلّ على بار يلفظ بعد انتصاف الليل السكارى والغانيات الخلاسيات والفتيان المزينين بالسلاسل والأقراط وينثر الأغاني اللاتينية الشجيّة التي تدحضها بغتة ضجّة الدراجات النارية ليتلاشى الفجر في دخان العنف ولغات من عتمة وجراح . .

المرأة الغريبة في المدينة الغريبة تسير كمن تلتهمه متاهة ببراثن من ندم وشجن ، تتّجه إلى مجهولات وتقنصها عين العاصفة ، لاشيء ينجيها سوى الكلمات ، فكرتها تولد بلغتها وسط بلبلة لغات وسحنات وأعراق ، هي بين الغرباء تلوذ بلغتها ، تفكّر وتحيى وتتحرّك في ممرّات لغتها وفضاء الكلام ، تعوم في نهر من مفردات لغتها ، واللغة الماء تتدفّق حولها ومن أعماقها وأنفاسها ، ومن ضفّة غامضة ينهمر مقطع شعريّ ، ومن زاوية في الذهن تنبثق حكاية ، وفي الدم تترنّح عبارات حبّ ، في العصب تموج مفردات فكر ، تسمع كلمات من أبعد الجهات ، بلغتها تسمع وتتلقّى من مدى مجهول صوتا ماطرا يغيث

وحشتها، صوت يتخذ سيماء وطن مقترح ويترامى ما بين شجونها ومتون النصوص . .

تنصت لوقع العبارة، تصغي لأصوات غامضة تنقضّ عليها من جنبات الأمكنة لا تدري من أين تجيء وإلى أين تذهب، الأصوات حمّالّة لغتها، والذاكرة ترسل إشاراتها عبر مفاصل الوقت استعارات ومخزونَ بلاغاتٍ وكناياتٍ، تحدّق مهتاجة الروح مما يدور في الشوارع الكبرى لمدينة ثملةً بالحياة وتحتمي بلغتها كقميص مضادّ للضلال . . ضلالها وضلال البلاد . .

اللاب توب مثلها أصابه عطب، الماكنة الذكية تحتج على فرط التنقل والغرف الموحشة، فلا تستقبل الطاقة ولا تخزنها فكيف ستكتب أيامها؟؟، يقترح عليها مالك الفندق الصحفيّ اللبنانيّ جورج صليبي -الذي يصدر مجلة متخصّصة بالسيارات- أن تذهب إلى منطقة لاديفونس وهناك ستجد عشرات المحلات التجارية للحصول على محولة جديدة للجهاز . .

من محطة مترو فوجيرار الخط ١٢ تستقلّ القطار النفقي إلى محطة الكونكورد لتستبدله بمترو رقم ١ المتجه إلى لا ديفونس . .المعطف لا يدرأ عنها برد المدينة الغريبة ولا طاقية الصوف والقفازات، البرد؟؟ لا ليس برد أوروبا وسماوات الرماد، إنه ذلك الجليد الذي يتشكّل في أعماق روحها ووحشتها وصمتها، هو بردها الكاسر لا برد المدينة المطورة وريحها الشرسة تحت القوس التذكاريّ العملاق في منطقة لاديفونس .

تنبثق المدينة من حلم سعيد لتصير واقعا حافلا بمجازفاتٍ وسوء فهم بينها وبين الغريبة، ليس بين الغريبة والمدينة غيرهبوب العطر

وشذا الخبز ورائحة القهوة ، العطر غوى ، والخبز حياة ، والقهوة مزاج وهي في تيه ومتاهة ، لا تغوى ولا تحيى ولا يرقّ لها مزاج ، باريس مدينة حاضر تتحشرج فيه أنفاس الغريبة التي لا حاضر لها . غادرت التاريخ لتكون بلا غد .

هنا المقاهي والمفكرون والقراء ووطأة الغلاء وساعات العمل الضاغطة والبشر العابسون المسرعون بمظلاتهم وكلابهم وحقائبهم إلى محطّات المترو والمتريثون في عناقهم وسط الحشود الساهمة المتعبة ، هنا ليل الموسيقى اللاتينية والحانات الصغيرة والنساء الخلاسيات والسوداوات البدينات والمطاعم الصينية وباعة الذرة المشوية وصيّادي السائحات الثملات . . هنا المظاهرات والمشرّدون اللائذون تحت جسور الطرق السريعة والكحوليون يفترشون أسمال الشتاء على أرصفة غادرة ، هنا المتشددون والنساء المنقبات المترنّحات على سلالم تصعد أو تهبط ما بين الشرق والغرب ، يشهرن الهوية الهشّة قطعا من قماش أسود تقول الاختلاف المتشدّد وتعلن الخلاف في تعاطي الحياة مع أهل البلاد .

والغريبة تسير مسرنمة كمن غادر الشرق قبل انبلاج الضياء ، طيف رجل ناء يراود وحشتها ، وتحتاط من طواف الطيف حولها ، توقف غواية التآلف وتتقدّم في الزمن . . . .

لا بأس أن تدندن أغنية عراقية شجية ، (هذا موانصاف منك غيبتك هلكد تطول) الغناء يبرهن لها أنها تحيا في لغتها وتعبر اللّجج ودوّامات البحر ، ولا احد معنيّ بامرأة تغنّي وحدها في الشارع ، ترفع صوتها لتسمع نبر اللغة من أعماقها ، النبر متموّج والإيقاع على بحر المتدارك أو ربّما على بحر الوافر ، هي غير أكيدة من شيء ، اللغة توقظ

في جسدها اللوعة لأشياء تتداعى تباعا أمام ناظريها ترى الأشياء وتسمّيها بلغتها : هذه انعطافة نهر السين ، هذا رصيف الفنّ ، هؤلاء مهرّجو الفرجة ، هذا بائع الموسيقى النّوبي يتسوّل بأنغام العود ، هذه امرأة افريقية تعانق رجلا أشقر ، هذا مطعم تركيّ ومجزرة إسلامية تبيع اللحم الحلال إلى جانب محلّ يبيع الحلال اليهودي الكوشر ، وهذه امرأة بنقابها وقفازاتها السود تجرّ وراءها عصورا من ذلّ الإماء . .

أشذاء باريس وأبوابها

تشمّ الغريبة أشذاء وتسمّيها كما ألفت الأسماء في بيت لغتها : هذا فَوْحُ ليلَكٍ ، وذاك عطرُ زنبقِ النّهارِ وهذا ياسمين مشرقيّ وهذه نكهة خبز القمح وهذا شذا شاي منعنع ، ضوعُ كافورٍ وعبقُ سدرٍ ، الأشجار لها أسماؤها الأخرى هذه شجرة دردار لا تعرفُ ماذا تسمّى باللغات الأخرى ، هذه شجرة كستناء وأشجار حور وشربين ، أبواب المدينة لها أسماء ملكية : بورت دي اورليان ، بورت دوفين وبورت دي سان كلود بورت دي لاشابيل ، كم بابا للمدينة ، عشرة أبواب؟ ثمانية؟ لا تعرف . . هي تعرف أبواب مدينتها الزائلة ، كم بابا بقي لبغداد؟ كلها اندثرت إلاّ الباب الوسطاني ، تستنهض ذاكرتها لتنجدها بالاسم الأصيل للباب ، باب الطلسم؟ لا . . ولا باب كلواذا؟ أيّ باب هو؟ ربّما هو باب الظفرية . . أجل هو ذا ، الظفرية لأنّ حصنه استعصى على جيش المغول ، الباب الوسطاني أجمل ، اللفظة أسهل ولها إيقاع التوسّط بين المتضادّات . . الآن لا باب لبغداد غير إثنين باب الجحيم وباب الهروب . .

شوارع باريس تخطفها من لغتها ، الأغنية تتناهى إلى مجرّد لحن

منفرد يتكرّر بصوتها والكلمات تشجيها ، لغتها تدبّ دبيب النمل في جسدها ، تذرف كلمات الأغنية كمن ينثر لؤلؤا وسط ليل الغريبة ، فتضحك ، هل الضحك له لغة؟ هل تراها تضحك بلغتها؟ تضحك وضحكتها ذات رنين منغّم على إيقاع المتسارع ، اللغة بعد الضحك ، مؤكد أنّ اللغة ابتكرت بعد الضحك . أنا أضحك بلغة يفهمها الشرق والغرب والشمال والجنوب . لا عنصرية في الضحك ، لو كان الضحك بلغتها لاستنكرها العابرون بإشارات استخفاف عنصرية ، الضحك لغة ، والبكاء لغة وعليها أن تستنجد بالضحك كلما تبدّت لها نظرة عنصرية في وجه عبوس . .

لغتها تهندس متاهة الاغتراب والتغرّب ، تهندس اللحظة وتصوغها كما المهندس يشكّل المأوى أو القاعة فيقيمها في الفراغ ، اللغة تهندس الأمل في مدى الصوت الذي يتردّد طاقة مؤبّدة في سعة الكون ، صوتها حارس لغتها وحامل أهوائها وفيه تتصارع الكلمة وتتجاور اللغات ، يرنّ هاتفها المحمول فلا تردّ ، تواصل دندنة الأغنية بلغتها العربية وتعلو النغمة ويتسارع الإيقاع ، تحتمي باللغة من مخاطر ومجهولات ، تحلم أيضا بلغتها وتندم بها وتتوارى فيها من سوء فهم الغريب ، تدير كلمات وعبارات من اللغة الأخرى الطارئة ، تديرها بين ذاكرة مكتنزة بدفء لغتها وبين الضرورة الملزمة ، اللغة الأخرى شبه فندق نقيم فيه مؤقتا ونغادره إلى المأوى وألفة لغة البيت . .

الفندق : حاجة عابرة ، ولكن متى يكون البيت دوام وجود؟؟

لا أحد يردّ على استفهامات الغريبة وشجن الزوال . .

قاريء القرآن في منزل بلزاك

يقول الفرنسيون إن العطلات لاتكتمل بهجتها دون قراءة إحدى روايات بلزاك وأن الإقامة في باريس لا طعم لها إن لم يطلع المرء على تراثها الفني والادبي وماخلفه فنانوها وأدباؤها العظام في منازل تحولت إلى متاحف تحفظ مأثوراتهم وظلالهم المترنحة وأصوات أبطالهم وانعكاسات أهوائهم .

وفي صباح باريسي مفعم بمباهج القهوة ورائحة الخبز الفرنسي والزهور وريح نزقة تراقص أشجار الرصيف ومظلات المقاهي وملابس العابرات - في هذا الصباح زرت بيت عملاق الرواية الواقعية بلزاك لأستعيد أجواء رواياته الساحرة .

ومن البديهي ان تتفاوت منازل الأدباء والفنانين في مستوياتها حسب طبقة أصحابها وأوضاعهم المادية ، فبيت الروائي بلزاك منزل صغير متواضع بثلاث طوابق تصدر سلالمه الخشبية صريرا معلنا ويكسو أرضيته سجاد رث على النقيض من منزل فيكتور هوغو الفخم بأثاثه المبهر ولوحاته الثمينة وستائره المخملية الثقيلة وسجاده الموسوم برموز النبالة والثراء حتى ليبدو منزل بلزاك ازاءه - أشبه بكوخ فقير تموه تواضعه أشجار حديقته المهجورة التي يختفي بينها تمثال نصفي عابس الملامح للروائي بلزاك ، وثمة أمامه مصطبة ونافورة عاطلة أحاطتها الادغال والحشائش .

تدخل بيت بلزاك ومتحفه من باب جانبي ليقودك السلم إلى الطابق الثالث فيخيل إليك انك تسمع مناجيات (الأب غوريو) أوتتسلل إليك تنهدات (إمرأة في الثلاثين) وفي كل ركن ترى مشاهد من(الكوميديا الانسانية)وتلمح أشباحا لأبطال مروا بين يدي العبقري البدين الذي بدد سنوات عمره في الكتابة على نحو مجنون حتى انه انجز نحوا من ٩٠ رواية ليحقق شيئا من الثراء بعد أن كان الدائنون يلاحقونه وهو يتهرب منهم متورطا في استثمارات خائبة .

يكاد البيت يكون خاويا إلا من بعض أثاث ورسومات أنجزها بلزاك ولوحة تمثل السيد المسيح على الصليب في مكتبه حيث المنضدة العارية والكرسي الوحيد المنجد بقماش الكانفاس والستائر الحمراء المتجانسة مع ورق الجدران الأحمر ، ويلفت نظرك في الغرفة شيء وحيد ينبيء عن عادات بلزاك اليومية فترى على رف إلى يمين المكتب إبريق الشاي ووعاء تحضير القهوة اللذين رافقاه وهو يكتب كوميدياه الانسانية في مكتبه المطل على استاد رياضي يحاذي نهر السين

يقع بيت بلزاك في منطقة باسيه قرب غابة بولونيا وقد استأجره اولا ثم اشترى البيت بكامله حين جمع ثروة طيبة من العمل المجنون في الكتابة ليصبح جديرا بالزواج من معشوقته البولندية (الكونتيسة هانسكا) التي بادلته الحب ١٥عاما عبر الرسائل حتى توفي زوجها فتزوجها سنة ١٨٥٠ ولم تدم سعادته طويلا إذ توفي في ١٨ أغسطس من السنة ذاتها بمرض في القلب بعد حياة حافلة بالكفاح والانجاز .

حين أنهينا تجوالنا في الطوابق العلوية هبطنا السلالم الخشبية المترنحة فخيل إلي أنني أرى وجه بلزاك مغمورا بسعادات الحب الأخيرة يبتسم مزهوا برومانسيته ومحاطا بهالة عبقريته ورائحة المجلدات

العتيقة في المكتبة التي تضم بعض مخطوطاته ورسوماته ومسوداته المشطبة بقلمه وعند مغادرة المكتبة فوجئنا بوجه أبنوسي البشرة لشاب نحيل يعتمر طاقية بيضاء ويرتدي صدارا أفريقيا منقوشا فوق قميص أبيض وهو عاكف على قراءة القرآن بخشوع لا يقلل من انتباهته ، فسأله أحدنا عمن يكون؟

قال : أنا طالب موريتاني أدرس الأدب في السوربون وأعمل حارسا هنا حتى في رمضان لأني أحب بلزاك ورواياته .

ما الذي كان سيقوله بلزاك عن هذه الشخصية الروائية لصائم يحبه ويرتل القرآن في بيته ويعشق رواياته ويحرس مخطوطاته ومتحفه؟

مقهى المجانين (أو فولي) في شارع بلفيل

نلتقي في أحد أشهر مقاهي حي بلفيل (مقهى المجانين أو فولي)- أصدقاء ومعارف يمثلون وحدة العالم والتقاء الأعراق وبلبلة اللغات، انا وصديقة عراقية فرنسية وجوزفين السوداء من بوتسوانا المتزوجة من الماني - فيتنامي كحولي- والكردية التركية التروتسكية كيولي وابنتاها، أو تلتحق بنا كيكو اليابانية المولعة بالكاتب (هاروكي موراكامي) وهي تتحدث الانكليزية بلكنة يابانية وزوجها الايطالي روبرتو، وجوليان مدير أحد المسارح وزوجته جوديت، أوغوستين الوجودي الساخر صاحب مكتبة تطل على ركن الشارع يتحدث بانكليزية مفخمة وهو منتشٍ بحنينه لزمن الوجوديين في الستينيات ولقاءاتهم في مقهى الفلور والدوماغو . .

نصغي إلى أديث بياف وهي تغني :

«إقرعوا الأجراس في المدن، اقرعوا الاجراس في الحقول، واطلقوا الصرخات، فهل ستعيده الاجراس، والنحيب إلى ذراعي»؟

هل ينبغي أن يذهب كل رجل إلى الحرب؟ ودائما تقف امرأة وحيدة،

خاوية القلب واليدين؟

عندما يحين الفراق ويمنحني قبلة الوداع سأطلق صرخة وحيدة من اعماق قلبي :

رحـمـاك أيتـهـا الـسـمـاء ، لا مـزيد من الدمـوع ، لا مـزيد من التضرعات ،

لا مزيد من المخاوف ، رحماك أيتها السماء ، . .

أتى حفارو القبور ونقشوا اسمه على شاهدة الرخام . .

لاشيء لدى المحبين سوى حلم ، جديد لكل يوم :

بيت صغير وحديقة وطفل له عينا حبيبي وأنفي ،

فلتخرس الأجراس ماعاد لدي المزيد من الدموع . . رحماك يارب السماوات . .»

هذه بضعة مقاطع من اغنية تضاد الحرب ، وتعلن : حلما انسانيا بسيطا ، ولا يكلف الدول إلا عشر ماتكلفه الحروب ، ولكن اسلحة الموت تلتهم الأحلام والرجال فلا يتبقى مايسوغ الحياة للنساء الوحيدات

هكذا كانت اديث بياف تغني بصوت قلبها الكسير ، ونبرتها الحافية في الشوارع والمقاهي للنساء والرجال الذين اكتووا بنيران الحروب «رحماك ايتها السماء» وهي جائعة أو مشردة تنتقل من مقهى إلى مقهى لتغني الحب والحياة وألامل وتردد :

كل شيء يمكن ان يتهاوى ،

الأرض والجبال والشجر والمدن ،

لكن الحب وحده يسمو إلى الأعالي . .

نلتقي مصادفة أو على موعد مع بعضهم في مقهى (Aux Foleis) . أوفولي مقهى المجانين ، نحتسي قهوة الأسبريسو القوية أوكوكتيل الغروغ الساخن بالتوابل المتعددة والعسل والليمون نتدفأ به في جلستنا على الرصيف تحت المظلات أو بدونها نتلقى دعابات المطر ولسع الرياح

الباردة ونغرق في فوضى اللغات التي تتناثر حولنا من أصوات العابرين أو ننصت لأغاني اديث بياف يبثها جهاز الموسيقى في المقهى العتيق الذي كان بين الحربين مسرحا صغيرا ومطعما تغني فيه اديث بياف .

الندل جزائريون قبليون ، بهم ظرف فاتن وبعض سخرية لاذعة ، يحتفون بي وبصديقتي ، يقدمون لنا طلباتنا محفوفة بترحاب دافىء يميز حيٍّ بلفيل المختلط ، فهنا تتجمع غيتوهات مغاربية وصينية وعربية مشارقية وتركية وافريقية سوداء ، ويشكل حي بلفيل برجَ بابل من أجناس ولغات وملامح وأزياء وثقافات هجينة ، وفي المقهى تموج ظلال متراقصة من سنوات ما بعد الحرب العالمية الأولى وما رافقها من حراك ثقافي رافض ، وبيانات ساخطة ، وأزمات اقتصادية ، أصغي في مقهى(أو فولي) إلى إديث بياف تغني الحياة الحب وتهجو الحروب بصوت حزنها الأسود ولوعتها ونبرتها الحافية . كان أول ما رأيت من إديث بياف ، قبرها في مقبرة (بير لاشيز) وباقات زهور لايزال محبوها الأوفياء يضعونها في صباحات الذكرى على قبرها ، ترقد بين العظماء في أضرحتهم الرخامية محفوفين برقرقة النوافير وشذا الأزاهير وشدو الطيور ، هنا أوسكار وايلد ولافونتين وبلزاك ومارسيل بروست وإيف مونتان وجان كوكتو وغيرهم من سكان الأبدية . .

في مقهى(أو فولي) يحفظون صورها وأغانيها ويطلقون ظلالها على مساءات المقهى فتفيض شجنا ونوستالجيا لعقود ا لخمسينيات وما بعدها ، عادةً ما يرتاد المقهى رسامون وشعراء ومفكرون هامشيون هاربون من المظاهر المترفة لمقاهي وسط باريس في السان جيرمان والسان ميشيل والشانزليزيه وعلى مسافة كيلومتر من المقهى يقع مقر الحزب الشيوعي المعروف بمبناه الحداثي والكرة الرخامية العملاقة في حديقته

وهنا كان التروتسكيون والفوضويون أسياد الشارع ومحرضي الهامش واليسار المتطرف ، يقول أحد النذل : (الفنانون الهامشيون أطلقوا على المكان اسم مقهى المجانين بعد الحرب الاولى) تلك سنوات الزلزلة التي عُرفت بالترف المفرط والتحلل والجنون واللهو والبيانات الفنية والشعرية الغاضبة ، وفي تلك السنوات كان المثقفون يقودون أمزجة المجتمع ، تاركين بصماتهم على تفاصيل الحياة اليومية والأمكنة العامة والمقاهي والحانات والازياء ، وفي تلك الحقبة المجنونة أطلق (اندريه بروتون) بيانه السوريالي الشهير سنة ,١٩٢٤ .

تغير الزمان والبشرغير أن الفنانين والبوهيميين لبثوا يلتقون في (مقهى أو فولي) فتراهم منهمكين بالكتابة ، أو تخطيط السكتشات ، أو تدوين الموسيقى . .

يتبدل الرواد والزبائن وتبقى بياف وحدها تذكّرنا بعبورها الساطع لوحتان إعلانيتان تزينان واجهة المقهى تبقتا من ذلك العصر تحملان صورها مع مشاهير أمثال : صديقها الشاعر جان كوكتو ، وموريس شيفاليه ، وعلى مبعدة خمسمئة متر من المقهى صعودا في شارع بلفيل المرتفع ، نجد لافتة صغيرة مثبتة على جدار مبنى متهاو يحمل الرقم ٧٢ : هنا وُلدت إديث بياف في ١٩١٥ .

في هذا الشارع القيامي المجنون ، يشكل الصينيون أغلبية مهيمنة ، فهنا مطاعمهم وأسواقهم وموسيقاهم ونواديهم ومصارفهم ومافياتهم ، يليهم الأفارقة وعرب شمال إفريقيا والسوريون والمصريون ، والكل يعرف أين ولدت العصفورة (إديث بياف (ويعرف أين كانت تغني كأنها لاتزال تحيا بينهم ، تمر أمام مقهى آخر ، فتسمع أغنية باريس التي غنّتها بعد تحرير مدينتها من الاحتلال النازي ، أو ترى ملصقات من سنوات

الستينيات لأيقونات عالمية مثل غيفارا ، والمغني جيم موريس يتوسطهما وجه بياف ونظرتها الليلية تطلّ على العالم من علياء حزنها الذهبي . .

الانطباعيون المحظوظون:
مكابدات الاستعراض الثقافي تحت رياح ثلجية

في يوم لا شمس فيه ، يوم ماطر ومثلج ، قررنا انا وصديقتي العراقية المغتربة - دكتورة شهرزاد قاسم حسن - ان نزور معرض الانطباعيين المقام في القصر الكبير (Grand palais) شارع روزفلت أحد الشوارع المتفرعة من ساحة قوس النصر في باريس ، تفحصنا برنامج المعرض فإذا بها فرصتنا الأخيرة لمشاهدة أعمال كلود مونيه وبيسارو ورينوار وآخرين ، كنا نقيم في حي بلفيل المختلط ذي الأكثرية الصينية ثم الأفريقية والعربية وكان علينا ان نستقل المترو من محطة بلفيل بعد مسيرة ٢٠ دقيقة في الجو الغائم المثلج المعاكس بلونه الرمادي للانطباعية وأنوارها واشتغالها على تناقضات الضوء والظل والالوان الحيوية ، غيرنا المترو في محطة اوتيل دي فيل قصر البلدية إلى مترو آخر سيأخذنا بعد محطات عديدة مرورا باللوفر والكونكورد إلى محطة شانزليزيه كليمنصو ، حيث يرتاح الانطباعيون المدللون في القصر الكبير ، كانت الساعة الرابعة حين وصلنا مبنى القصر- المتحف المهيب ووقفنا مع الصفوف المحتشدة تحت نثيث المطر في انتظار أن يمر المئات قبلنا لشراء بطاقات الدخول .

بعد نصف ساعة من الانتظار المضني تحت مطر ثلجي بدأنا نحسب عدد الداخلين من الصف الطويل ، كان يمر عشرة من الزوار في

كل خمس دقائق ، يخضعون لتفتيش حقائب اليد واحتجاز آلات التصوير ، ومعنى هذا ان علينا الانتظار ساعة كاملة أخرى ، أفصحت صديقتي وهي ترتجف -بغمغمة خفيضة عن تذمرها من الوقوف الطويل في حدائق القصر تحت المطر والرياح المثلجة ، أما أنا فقد كتمت حنقي وندمي من فكرة زيارة المعرض في هذا الجو القارس وتساءلت مع نفسي : ما الذي سيحدث لو اننا لم نحظ برؤية أعمال الانطباعيين هذا اليوم؟؟ علام نتصرف كالسائحين البلهاء ونقف ساعتين تحت المطر من أجل رؤية لوحات يمكن ان نتمتع برؤيتها مصانة في كاتالوغ أو في فيلم وثائقي . .؟؟ هل يعنينا كثيرا ان نرى أعمال رينوار بهذا الإصرار الصبياني الاستعراضي؟؟ وماذا سيحصل لو أننا لم نشاهد أعمال بيسارو ولوحة انطباعات عن الشمس لكلود مونيه والتي اخذت المدرسة الانطباعية اسمها منها؟؟ لاشيء سيحصل سوى اننا سنحترم أنفسنا أكثر ونعتز بذائقتنا وفرديتنا ونغادر صفوف المئات المنتظرة فرصة عمرها للتفرج على لوحات الانطباعيين التي افتتحت عصر الفن الحديث ، بوسعنا مشاهدتها في متحف دون معاناة البرد ومزاحمة حشود السائحين والسائحات القادمين من اقاصي الشرق وأمريكا والبرازيل وأفريقيا ليتفاخروا لاحقا بزيارة معرض الانطباعيين كمكسب سياحي فريد .

تمزقت مظلاتنا في الرياح العاتية المثلجة وابتلت معاطفنا وطاقياتنا الصوفية ، قلت لصديقتي المتذمرة وقد سئمتُ مكابرتي ونفاد صبري تحت لفحات البرد والمطر : فلننصرف . هتفت : هيا وكأنني منحتها مفتاح الخلاص وأنقذتها من خجل الإفصاح .

في المترو تحدثنا طويلا عن خطيئة توظيف الفن في أنشطة

سياحية تجارية تحول بينك وبين التمتع التأملي في دعة المتاحف الرصينة الدافئة ، قلت لها : لن اغفر لنفسي حماقة الوقوف ساعتين تحت المطر من أجل عيون رينوار وبيسارو وكلود مونيه فلن يضاف لي أي مجد لو انني مكثت ساعة أخرى في البرد والمطر واندمجت مع الحشود المتعجلة تظاهرا بعشق الفن ، بينما كان بوسعي شراء كاتالوغ مطبوع لأعمالهم .

ضحكت صديقتي وراقت لها الفكرة : سنذهب غدا لشراء الكاتالوغات من مكتبة السان ميشيل للكتب المستعملة عند النافورة . عندما أتى الغد دفعنا ثمن المغامرة نزلات برد وسعالا وحمى انهكتنا أسبوعا ولم يتسن لنا شراء كاتالوغ الانطباعيين أبدا .

مدينة غرينوبل
فيركور وستاندال

١

من رواية (صمت البحر) لفيركور -اسمه الحقيقي جان بروليه- مقطع من حديث الضابط الالماني وهو موسيقار يعشق فرنسا وثقافتها - يروي كلام رفاقه الضباط النازيين الذين احتلوا فرنسا وهم يفاوضون الجنرال الفرنسي بيتان المتعاون مع النازيين «ولماذا برأيك قمنا بشن الحرب؟؟ من اجل عيني مارشالهم العجوز؟؟ لسنا مجانين ولاسذجا ، في يدنا فرصة لتدمير فرنسا ولن نضيعها ،لن نكتفي بتدمير قوتها ، بل روحها ، روحها بالمقام الأول ، روحها مصدر الخطر الأكبر»

بعد ثلاث ساعات بقطار (تي جي في) الذي يسير بسرعة ٣٠٠ كيلومتر في الساعة منطلقا من باريس ، أصل إلى مدينة غرينوبل التي تبدو للوهلة الأولى مدينة معاصرة تفتقر إلى طابع محلي في الطرز المعمارية ، ولكن سرعان ما اكتشف كاتدرائيتها العريقة ونواة المدينة التجارية القديمة . . الأمسية الحميمة في بيت مديرة المدرسة الدولية للغات في غريبنوبل ، والعشاء : أطباق اعدتها المدرسات الفرنسيات وزوجات المدرسين العرب ، عشاء عالمي النكهات وأحاديث عن العولمة

- كان جميع الحاضرين من الفرنسيين والعرب والإنكليز مضادون للعولمة وللنظام العالمي الجديد وكوارثه ومعظمهم نشطاء في حركات مختلفة ضد نظام السوق وهيمنة الشركات متعددة الجنسيات . .

تحتمي غرينوبل بذرى قمة جبل (فيركور) معقل المقاومة الفرنسية التي حققت- في معركة عرفت بالإسم ذاته- تحرير تلك المنطقة الوعرة من الإحتلال النازي ومنها استعار (جون بروليه) اسمه حين كتب روايته الصغيرة الفاتنة (صمت البحر) التي عدت أشهر رواية مقاومة في الحرب العالمية الثانية ، وصدرت الرواية عن دار (مينوي) ودشنت فيها دار النشر شهرتها في نشر الأعمال الأدبية رفيعة المستوى وأعمال الأدب المقاوم التي اقترحتها نخبة من شعراء وأدباء فرنسا الكبار لمقاومة الغزو الألماني لبلادهم . .

و(جان بروليه) كان رسام تخطيطات ومزخرف كتب وشاعراً نشأ رافضا للحرب وداعية للسلام ، وكان يدعو إلى أن تقف فرنسا على الحياد في الحرب العالمية الثانية ، لكن احتلال بلاده أدى إلى تغيير موقفه ، ودفعه ليكتب روايته الأولى (صمت البحر) حول دور الحوار في فهم عقليتين متضادتين محاصرتين في الصمت والاحتلال ، وتحولت الرواية الصغيرة التي لم تتجاوز صفحاتها الاثنتين والستين صفحة إلى منشور سري للمقاومة ، وترجمت إلى معظم اللغات العالمية وصارت تدرس في مناهج الثانويات في الدول الفرانكفونية . .

أهدى فيركور روايته إلى الشاعر الشيخ (سان بول رو) الذي مات كمدا عندما أحرق النازيون بيته وكتبه وجميع مخطوطاته غير المنشورة ، واغتصبوا ابنته وقتلوا خادمته ، فمات مقاوما محطما كرمز إنساني للمقاومة الصامتة التي كان يدعو إليها فيركور . .

٢

غرينوبل المدينة التي تشرف عليها جبال الالب الشاهقة من الجانب الايطالي- تعرف في فرنسا بأنها مدينة البحوث العلمية فهي تحتضن مراكز البحوث الكبرى مثل معهد لو لانغفان ومركز البحوث النووي ، ومركز البحوث النووية ، ومراكز بحوث الالكترونيات الدقيقة (النانو) ، ومركز بحوث الطاقة وغيرها من المراكز البحثية والجامعات العلمية ، في بلداننا نتغنى بالمقاومة السلبية التي تحيا في بهرج البطولة وتاريخية الحدث - مدن المقاومة تكون معقلا لعلوم المستقبل وتتغاضى عن هالة البطولات الماضية وتنشط فيها على نحو محموم جماعات البيئة وحزب الخضر لمقاومة الأبحاث النووية ، والوقوف بوجه عمليات تدمير الطبيعة والعولمة ، وتنتشر شعاراتهم ولافتاتهم في شوارع غرينوبل وعلى جدران مبنى مركز التجارة العالمي ، حيث يجتمع دعاة العولمة ومنظمو نادي الدول الصناعية الكبرى . .

٣

بيت الكاتب (ستاندال) الذي تحول إلى ناد ثقافي يختفي في أزقة المدينة التجارية القديمة ، التي تشكل نواة غرينوبل المعاصرة ، جدران بحجارة خشنة وأبواب ذات أقواس متأثرة بطرز العمارة الفلورنسية الايطالية ، ونوافذ لاتكتم أسرارا بقدر ماتبوح بأحداث حياة تماثل حياة (جوليان سوريل) بطل رواية (الأحمر والأسود) وتمرداته وصراعاته وعلى مبعدة دقائق تشير لافتة صغيرة إلى بيت جد (ستاندال) وهو صرح أرستقراطي كلاسيكي في ساحة تجارية قديمة مزوق باللون الأزرق والزخارف الغوطية اعتبر من تراث المدينة الثقافي ،

وهناك جامعة تحمل اسم (ستاندال) معنية بالعلوم الإنسانية واللغويات والتكنولوجيا الحديثة .

وعلى المستوى الشعبي تتلألأ أسماء شخصيات ستاندال الشهيرة ورواياته على واجهات المقاهي وبعض المحلات التجارية فهناك مقهى (دير بارم) و(الاحمر والاسود) ومحلات (جوليان سوريل) في مدينة غرينوبل برج بابل ، صرح ثقافي معاصر مشيد من لغات العالم الحية - المدرسة الثانوية الدولية ، تدرس فيها ١٦ لغة من بينها اللغة العربية التي أضيفت بعد مطالبات ومظاهرات ، وطلابها من أصول عرقية عديدة ويقوم بالتدريس فيها أساتذة من خمسة وستين بلدا وتدعو المدرسة كتابا وشعراء من ثقافات مختلفة ليتحدثوا عن ثقافة بلدانهم وآدابها وأوضاعها الاجتماعية والسياسية أمام الطلبة . واما م حشد من طلاب الاقسام العربية والفرنسية تحدثت عن العراق وتاريخه وحاضرة الملتبس ، عن تجربتي الابداعية وكتبي ، وقات بالترجمة طالبتان من اصول عربية وتوالت علي الاسئلة من التلاميذ ، عن الإحتلال والحروب والثقافة ووضع المرأة والحياة في بلاد صعقتها الحروب .

٤

تجولت مع المدرسين العرب وزوجاتهم في الاسواق والمقاهي والاحياء ذات الطابع العربي في غرينوبل ووبعد الغداء في مطعم دعتنا اليه ادارة المدرسة تناولنا السمك على طريقة المطبخ الفرنسي المتأثر بالمذاقات الايطالية ، الشاي في مقهى عربي ، القهوة تناولناها في كافية فرنسية والعودة بالقطار مساء إلى محطة (كار دي ليون شرق باريس . .)

كاترين ستول سايمون

نشيد الحب

ينساب من شفاه المطلق
لايهم إن كنت أنت
أو كنت أنا
المهم أن يقال حب نقيّ
كاترين ستول سايمن

فنانة فرنسية شغوف بالنور من انسحار بروحانيات الشرق ، تقول مشاريعها الفكرية والجمالية بوسائط إبداعية متعددة ، هي فنانة حياة ، كاترين ستول سايمون روحانية حضور رسامة ومصورة فوتوغراقية وشاعرة وكاتبة سيرة ، تتحرى في الغموض الصحراوي عن (مذاق النور) وهو عنوان كتابها الشعري في مديح الصحراء ونورها وخلاصات الصمت . . مغامرتها التشكيلية وصورها الفوتوغرافية وتجربتها الشعرية ، تنهل كلها من الثقافات التقليدية لسكان الصحارى وهربا من عالم مادي قاس وبارد ، تحتفي كاترين بالنور والشمس والكثبان في ترحالها المفاجيء ، هي رحالة مابين الصمت والريح ، تحاول في مذاق النور أن تستعيد من الفناء والغياب معنى الوجود وتكتشف سر ما هو مقدس

وغـامض وتلاحق تجليـات الكون في رحـابة الصـحـراء وإنحناءات الوقت . . ولعها : الإصغاء للصوت الآخر ، عابرة أفق ، رحالة تفلت من دنيويات أوروبا وفوضى مابعد حداثتها من باريس إلى قرية دوز في صحراء الجنوب التونسي تدون أناشيد كشوفها في «مذاق النور» ، تقنص وعود الكثبان وتمسك بخط الحياة الدائري . .

في النشيد الأول تبوح كاترين بشهوة الغياب :

الصحراء لاتستقبل إلا الباحثين عن الغياب

أخيرا مركبي جاهز

سوف أرحل . .

تصغي لتساؤلاتي عن اهتمامها بجوهر الإسلام الذي تعتنقه روحيا وتفهم أبعاده الجوهرية كما تعلمتها من قراءتها لمصادر التصوف ، وتحتفظ لنفسها بما تهبها التجربة من غنى ينعكس على رؤيتها للعالم ، نوعا من استنارة وكشف ، عن المعنى الأبعد للعلاقة بين الكائن وخياراته الروحية . غير معنية بالطقوس غايتها الجوهر الأعمق لمفهوم الدين ، نتحدث ببعض مفردات عربية (تحاول أن تتعلمها وتعرف بعض عباراتها) تريني بحارا ورمالا وسماوات زرقاء في لوحاتها ، تريني انسحارها بما هو صحراوي وغريب وآخر ، حتى الأقاصي : وجوه النساء الموشومة وغنج الألوان المسفوحة على الأردية شبيهة الريح . .

في زيارتي الاخيرة لبيتها في ضاحية غريتيل على نهر المارن رأيت اكداسا من ليف النخل والخوص طلبته من حبيبها التونسي ليحضره من الواحة فلديها مشروع لوحات بالرمل والليف وما يمكنها استخدامه من النخل . .

تقول كاترين : رغبة الرحيل تختلط دوما بالعودة الأبدية ، الصحراء تثير في روحي شهوة الترحال ، كي أصل . عليّ الذهاب ، خفيفة ، فالصحراء لا تحتفظ إلا بمن يترصدّون النور .

كاترين وأنا وثّقنا لقاءاتنا في باريس بالمطر ، ما من مرة تقابلنا إلا وكنا نقطر ماء مظلتانا لم تحميانا من البلل ، مطر باريس سخي ومرح يفجر ضحكاتنا ، مقهى ريف غوش في السان ميشيل ومقهى دانتون في الاوديون وأزقة الحي اللاتيني والكنائس التي نحضر فيها كونسيرتات الموسيقى ، تعرفنا من ثيابنا المبلولة وشعرنا الرطب وضحكاتنا الخضلة ، ليلة ١٢ نوفمبر كنا نحضر افتتاح الأسبوع الثقافي العراقي في قصر اليونسكو ، أمطرت بخفة أرسلت لنا دوامات ر يح وأوراق شجر الكستناء ذهب يموج في الهواء ، أمطرت بنوع من الخفاء كأنها تهادننا ، سرنا طويلا من محطة مترو سيجور إلى قصر اليونسكو وكاترين تحدثني عن معرض قادم لها في تونس ، للمرة الأولى نصل موعدا على ايقاع همهمات الريح وليس إنهمار المطر . . بقدر ماهي رائية وملهمة ، ترى في حضورها قلق المترحل الظامىء إلى المدى اللامنظور ، وبقدر ماهي جميلة وساحرة تتلمس في حضرتها جوهر باريس الخفي وروحها المؤنثة الرقيقة ، وتضاريس ثقافتها ، إنما بترفعها عن المادي والزائل وتلمسها لما هو نوراني وجواني في الوجود . . شكرا لكاترين التي منحتني باريس أخرى آمنة تقريبا وهي غير المدينة التي يراها العابرون والسائحون .

مدينة شارلفيل ومتحف رامبو

من قصيدة الابدية

لقد تم العثور عليها!
ماذا؟ الأبدية!
إنها البحر الذاهب
مع الشمس .
أيتها الروح المترصدة
لنهمس بالاعتراف
رغما عن الليل الرديء
والنهار الموغل في النار
..

بما أنه منك فقط ،
أنت ، جمرات الساتان
يضوع الواجب

قد تم العثور عليها!
ماذا؟ - الأبدية .

إنها البحر
المرتحل مع الشمس

أرثر رامبو

من باريس إلى شارلفيل . موعدنا في الثامنة والنصف صباحا : الصديقة الكاتبة الفرنسية كاترين ستول سايمون والشاعر والمحررالثقافي لجريدة الشروق التونسية نور الدين بو الطيب وانا عند مقهى (ريف غوش) في ساحة السان ميشيل قبالة النافورة . .

أمر بطرقات محتشدة بمقاهي الرصيف شيوخ يتأملون غربتهم في زمن لم يعد لهم وعجائز يحتسين القهوة وأخريات مدمنات على سكر وانتشاء بالنبيذ الرخيص وكؤوس البيرة ، أجتاز هذا المشهد المؤنس لحيوات غاربة ، أتجه من محطة «لورميل» للمترو رقم ٨ نحو محطة ستراسبورغ سان دوني . أكاد أكون وحدي في العربات الخاوية صباح يوم الأحد . من هناك أنتقل إلى المترو رقم ٤ المتجه إلى بورت دورليان وأغادره بعد أربع محطات إلى بلاس سانت ميشيل .

أصل في تمام الموعد ، يقبل الصديقان من بيت كاترين في شرقي باريس ، وهاهما في سيارتها الفورد الصغيرة . . مشحونة بمشاعر متضاربة ، أحيي كاترين ونور الدين ، فهما اللذان سيقودان أحلامي إلى آفاق أخرى منطلقين من الحي اللاتيني إلى مدينة لها لسعة جمر في المخيلة - مدينة الشاعر المارق آرثور رامبو الذي زلزل اللغة وقلب معايير الشعرية وأحدث تشويشا هائلا في النص الحداثي ، ليكرّس الضلال الجميل في اللغة والنصوص والحياة .

طوال الطريق ، كان نقاشنا دائرا حول علاقة رامبو بالنهايات ،

خرس القصيدة وموت الجسد وجحود الحب ، فيرلين العاشق الغاضب ، ووالدة رامبو وصرامتها الدينية ، زوجة فيرلين ومرارة تقسيم الحب بين معشوقين . علاقة رامبو بالأمكنة والترحال والحب والموت ، وحريمه من الرقيق الأفريقي في هرار واستغراقه في الحياة الأخرى ، وصفقات بيع السلاح والعبيد ، هو التاجر المراوغ والمسافر من حلم شعري إلى حلم ثراء وتجوال ،

لم أتصور قط أن ينحدر شاعر متمرد إلى نخاس يتاجر بالعبيد ، خلصنا إلى أنه لم يكن رحالة أمكنة ، بل كان مسافرا في عتمة الزمن . لا مكان يمكن أن يحتوى هذه الشعلة الملعونة ، لا فضاء يسع اللهب . الزمن وحده يفني النار وتفنيه ، ليجيء مرة أخرى بهيئة مهرّج في سيرك المقايضات ، أو مهرج في سيرك حقيقي في بلدان اوروبا الوسطى وقبرص ، ومشرّد لا يدفع ثمن تذكرة في قطار ، وعابث شهواني يغازل امرأة محبوبه فيرلين ، فيطلق الرصاص على رسغه ليسجن الرجل عامين ويهمله رامبو في محنته به وبالحياة أولا . . رامبو مهرّب الأرواح والساعي إلى الحرية الأخيرة- الموت- بساق واحدة وألف رؤيا وكابوس . .

وصفه الكاتب الايطالي (تابوكي) في حلمه الأخير المفترض ، منغمسا في شهواته القصوى ، جموح الحرية وانفجار الرغبة للمرأة ، رجل يقود الجسد إلى حافات العدم في مرضه الأخير - الذي يجزم البعض أنه الزهري ويؤكد آخرون أنه السرطان - ولم يكن بالأحرى غير وباء تآكل الروح بعد انطفاء وهجة الشعر العظيمة . .

يركض في الحقول ويرتقي الهضبة بساقين سليمتين ، بينما يترك ساقه المقطوعة هدية لحورية الليل أوريليا ملفوفة بجريدة طبعت عليها

قصيدته بحروف سود ، أوريليا التي سمعته يصفر أغنية عن امرأة وبندقية ، كان مستلقيا تحت شجرة لوز ضخمة ، والقمر بدر ، والحقول مفضضة بالنور . .

- حسنا أيها الشاب الغريب ، إن كنت تريد بندقية فأنا سوف أعطيك إياها . قالت له اوريليا

قال نعم ، أريدها لألتحق بكومونة باريس . . ألا تسمعين الصرخات؟؟ إنها الحرية تناديني . . . .

أخذته إلى مخزن الغلال الذي يعلو حظيرة الأغنام . . وعندما إرتقت السلم الخشبي قال لها : أنا لا أستطيع الصعود كما ترين بساق واحدة ، صعدت وحدها ، استلقى على التبن بين الخراف ، وهو يصفر لحن أغنيته الماجنة . .

عادت بالبندقية فوجدته قد خلع ملابسه وتمدّد فوق القش قرب الأغنام وساقه المبتورة إلى جانبه .

قالت له سمعتك تقول في أغنيتك : أريد امرأة ، حسنا أستطيع أنا أن أعطيك إياها .

وعانقها رامبو واستنفد معها آخر شهوات الجسد المنقوص وانشطر بين وجع الحب الذي لا يشفى وبين حدس النهاية الفاجعة وانكسار القصيدة في ماض مضاد لحاضره المقلوب . . . وسألها عن إسمها : قالت أوريليا . . فهي منبثقة من الحلم . يسرع المهرب ، يسرع مراقب العمال ، وبائع العبيد والأسلحة ، يسرع باتجاه صرخات العمال الصاخبة وهم يعلنون الكومونة أمام يقظة التاريخ المتعطشة للحم البشر ودمائهم ، يمضي إليهم بكل جنون شهواته المبهمة . .

يعلق رامبو العالم فوق هاوية ، ويجلد الحياة بسياط من تمرد ، عيناه

تنبئان أنه يحترق كل آونة بفيوض الشعر والالم الماجن ويكاد يغص بلغة لهب تفتك بدمه وهو يترحل عابرا الميتات ، متبوعا بخيط من لهب وبروق من لغة شاردة .

شارلفيل مدينة تمرده تؤدي إليها هضاب وغابات إقليم (الاردين) غابات مضببة وحقول قمح لها تمايزات ضوء من (مانيه) وتدرّجات اخضرار وزرقة مذهبة من (فان غوخ) لهضاب الإقليم المتاخم لحدود بلجيكا ، انطباعية صادحة بين ممرات الضوء والصمت . تخبرنا كاترين أن منطقة الأردين تعرضت للدمار في الحرب العالمية الاولى التي شارك فيها الشاعر السريالي آبولينير وأصيب برأسه إصابة تركت آثارها على سنواته اللاحقة .

من هنا مرت الحروب بدخانها وعويلها وفرسانها العابرين نهر (المارن) ، إلى قلب الغابات ، ومثلهم عبرنا أولا وادي المارن ثم (نهر المارن) . روح النهر تنشر وعودها في السهل ، في الغابة ، في الحقول ، في الهضبة . تذكرنا كاترين أن نهر المارن يمر قرب بيتها في ضاحية (غريتيل) جنوب شرق باريس . . .

نتوقف في محطة على طريق مدينة (ريمز) في منتصف المسافة بين باريس وشارلفيل ، نشرب القهوة والكابوتشينو ونستمع إلى (جاك بريل) يغني (لاشيء تبقى لنا غير الحب) . . ربما يكون الأمر كما يصفه جاك بريل عند الحافات الغسقية للألم : لا شيء يتبقى لصناع الحلم سوى الحب . أما رامبو فقد تبقى لديه كل شيء باستثناء الحب والقصيدة . .

ارثور رامبو رحالة (نوماد) القرن التاسع عشر ضاق به جنون مراهقته فاستسلم لغواية الميوزات – ملهمات الشعر- . النهر الذي عاش

على ضفافه اسمه - المووز وعلى جسر بقوسين مقنطرين فوقه ، أقاموا متحفه وقبالته يقوم بيته بنوافذه التي يسيل منها النور وألوان قوس قزح وهمهمات الشعر وهدير القطارات وصفير البواخر . . بيته الذي ليس في اي مكان ، كما كتب على بوابته التي يتعذر فتحها كاملة وكأنها تصون سر المارق الفاتن وراء غموض العتمة في المدخل .

وجه رامبو مبعثر في أفق هضبة ، وجه القصيدة تعبره الريح ، والأبقار البيضاء تبقع إخضرار المروج ببخار احلامها التي رسمها (شاغال) ، ومن جلدها الأبيض تفوح أشذاء الأعشاب ، أعشاب حوافي الطرق ، تتوهج بينها شعلات من الشقائق القرمزية والطريق المنحرف يمينا يؤشر إلى مدينة (شامبين) التي تصنع للمباهج واحتفالات تدشين الحب والسفن والصروح - شرابا استعار اسمها الفوار : شامبين . .

الشقائق القرمزية تتلامع في الشمس على حواشي الدروب وتقترح دليلا من وهجها الأحمر عبر وادي ريمز ، وتتفتح ثغورها عن جمر رامبوي أسمعها تردد بصوت رامبو : إنني أتبع الصيف ، العشب يتبع وقع القصائد الضالة ، القصيدة تسقط في رائحة الغد ، الطريق إلى رامبو موبوء بالمكائد اللغوية ونحن في سيارة كاترين نتداول حروف العلة التي أعطاها رامبو حجما والوانا و(خليجا من الظلال) .

يقول اينشتاين : المصادفة هي قانون السفر- نعم هي ذي المصادفة تقود خطانا إلى رامبو ، نحن عاشقيه الثلاثة : الفرنسية والعراقية والتونسي ، كيف جمعتنا غوايات رامبو وعبرنا الحلم معا من محارق بغداد وزرقة تونس إلى باريس الكوزموبوليتانية العظمى ، لنزور محبوبنا العابر أفق الحياة بمركبة جنون جيادها شموس وأبالسة . . هل ثمة طريق

تؤدي إلى رامبو؟ يخيل للمرء أن الطريق هي التي ستقودنا إلى رامبو وأن الساعات الأربع التي يستغرقها الطريق إلى شارلفيل ستفضي اليه . كنا واهمين . فعندما وصلنا ، كان كل شيء موصدا : المتحف وبيته على نهر (مووز) والمقبرة : هرب رامبو من الامكنة وعلق بين الابدية والأزل . .

وتركنا في تيه ساحة الدوق القديمة المربعة وهي مركز شارلفيل القديمة ، الساحة ذاتها التي حافظت على معمار مبانيها من القرن السابع عشر : طراز روماني تنحني فيه الأقواس على أروقة مظللة وأرض مرصوفة بقرميد متشظ ، الساعة في برج مبنى السياحة تعمد الظهيرة بالموسيقى والقصيدة تحوم حول الحانات وتستحم في النبيذ أو تهيم في بخار الكلام . . هنا كان رامبو الصبي يطارد أشباح اللغة ويقنص الشعر من زغب النجوم . . وهنا في هذه الحانات العتيقة يعبر الصدأ على أصابع الساقية البدينة ، وتسمع أنفاس النبيذ من قاع الأقبية ، هنا يحتسون نخب رامبو من نبيذ (ميرلو) ، هنا لا تحتمل حياة السكون ، هنا تحبو القطط على المرايا وتلتهم الموسيقى ، ويرطن النادل بلهجات فلمنكية وافريقية ، بينما الأقداح تبوح بسر النبيذ في سطوع الظهيرة ، والضوء في قبضة الزوارق الصغيرة العائمة على نهر مووز . .

الطرق تشير إلى متحفه الوحشي المنتصب بفظاظة الحجر الخام على جسر فوق النهر الصغير ، المتحف بأربعة طوابق وهو مبنى طاحونة البلدة القديمة المقامة على جسر حجري بقوسين وكأنها تشير إلى العبور البرزخي لرامبو المترحل في مروره العاصف وتضاده مع اي نوع من الثبات والتلبث في أرض البشر .

متحف رامبو عابرا النهر ، ليس له رسوخ الضفاف ولا ثبات المباني

المغروسة على الأرصفة . يخيل إلى الرائي انه سوف ينهار ذات عاصفة ويودي بالنهر والجسر والقنطرتين الحجريتين . . لا شيء من رامبو يرسخ في الارض ، لا المتحف ولا البيت ولا القصيدة . .السيدات المسنات اللائي يشرفن على المتحف يتاجرن بأوشحة حرير عليها صورة بالالوان لوجه الفتى الشاعر في عنفوان سنواته الإبداعية ، يعطيننا بطاقات الزيارة ومطويات المتحف ويشرن إلى السلم الخشبي لنرتقي في معراج الشعر طوابق المتحف . . الخزانات تحمي كنوز الشاعر ، رسائل بخط يده ، كتب عتيقة ، قصاصات ، قصائد ، كتاب لتعلم اللغة العربية بغلاف جلدي بني مكتوب بماء الذهب ، صحف عتيقة ، هشيم حياة وامضة لشاعر غادر القصيدة إلى الطين .

هنا كتب رامبو قصائده امام نهر مووز الذي يمر امام بيته ، كتبها على مرتفع الاوليمب الذي يواجه منزل امه على الضفة الاخرى للنهر ، كتبها على ومض بروق مراهقته ونزوات الجسد المتوثب في تفتحه ومروقه ، ثم سرق حياته من حياته ومضى بعيدا في العراء الصحرواي ، ساحبا وراء عبوره طريقا من اللعنات والإبهار . .

استغربت ان يكون لرامبو متحف يضم ما تبقى منه وما استلهمه منه الآخرون من أعمال فنية وأفلام تستنطق الشعر والسيرة صورا وقصائد وموسيقى - نعم غريب أن ترى متحفا لشاعر ملعون فالمتاحف لقواد الجيوش والغزاة والملوك والكهنة والمشرعين والرؤساء والغانيات الشهيرات . . ولو كان رامبو حيا ، لسخر من فكرة وجود متحف له يؤمه عشاق الشاعرمن جهات العالم - ولربما كان نظر إليه وقال : - هذا هو الآخر الذي ليس أنا . . (هذا الذي غادرته وقتلته وأقمت له ضريحا في مدينة صحراوية على تخوم المجاز ، أنا ذاهب أبعد منه وأقرب إلى الآخر

في جسدي المتألم) . المتحف يشير إلى آخر ما ترك رامبو : حقيبة صندوقية من الجلد البني المهترئ ، وشال كبير من نسيج صوفي بنقوش أثيوبية ملونة ، وساعة الجيب الفضية التي تبدد منها الزمن وأخرسها الموت ، والى جانبها أدوات البدوي الرحال - نوماد التجارة وبائع العبيد ومهرب الارواح : ملعقة وشوكة وسكين وقدح معدني مثل أقداح الكشافة وكتاب تعلم اللغة العربية . .

والقاعات مطوقة بحفيف القصيدة ورعشة الألوان في لوحات الفنانين الذين استلهموا قصائده في لوحاتهم : فصل في الجحيم يتوزعه ألق النار ووحشة الوقت في جحيمات العقل والزورق السكران يتقاسم لوعة الموج الماكرمع الجمال المتعفن . .

هل تحوّل كل ذلك الكائن الهادر إلى كيان متحفي؟ أحقا هذه هي أدوات النوماد التائه؟

في إحدى القاعات ، يُعرض فيلم يستلهم حياته مع أعمال رسامين من عصره ، ترافقه موسيقى مؤلفة من أجل مركبه السكران وفصول جحيمه . . جلسنا إزاء الشاشة ورأينا مدنا راودت الشاعر ورأينا قطارات بخارية تهدر وسفنا ترود البحار الدافئة ، رأينا فيرلين في السجن ورامبو المصاب راقدا في سرير المستشفى مضمد الرسغ ، ورأينا بروكسل ومدنا أوروبية أغوت رامبو وخيام سيرك في فيينا وبلغراد ونيقوسيا . كان رامبو مهرج الحكاية الأليمة لوجهي الحياة المتلازمين ، الشاعر الذي إنتحر في جسد التاجر مهرّب السلاح والارواح .

بيت رامبو

على يسار باب البيت المواجه للنهر والمتحف ، قطعة مربعة من

رخام تعلن (هذا بيت للامكان)، باب حديدي يبقى مواربا لا ينفتح على آخره، والشارع المسمى رصيف رامبو ينعطف قبالة البيت مشكلا شبه جزيرة مرتفعة تسمى (جبل الأوليمب) . .

أول الغرف صممها فنان الديكور شبه عربة قطار، مقعداها المتقابلان مكسوان بالجلد الأحمر وقد علقت صور فوتوغرافية على ظهري المقعدين حسب تتابع زمني لرحلاته إلى مدن اوروبا، بدءا بباريس وبروكسيل، بينما نسمع هدير قطار بخاري من اللامكان . .

في غرفة رامبو صنع فنان الديكور (يان بيفيه) مشاهد فيديو استلّ عناصرها من قصائد رامبو وبعض رسائله، تنعكس ضوئيا على المرآة وتتوالى بلغات فرنسية وانكليزية والمانية وبسرعات مختلفة متفاوتة لتؤدي إلى نتيجة باهرة تمكّن المشاهد من متابعة القصيدة والايقاع الشعري . . وفي هذه الغرفة وجدنا شابة ريفية بدينة ذات شعر قاتم تنام هادئة على قاعدة النافذة الرخامية المطلة على الحديقة- أفاقت حين دخلنا وحيتنا بنوع من الغياب . نعاسها كان ممهورا بأبيات قصائد رامبو المتناثرة أنوارا زائلة على المرايا . سألناها هل هي موظفة في المتحف، قالت أنا زائرة له جئت من مدينة تولوز لرؤية بيت رامبو، ثم طلبنا منها ان تلتقط لنا صورا ففعلت، ثم عاودت النوم في نافذة غرفة رامبو، مستسلمة لغيابها الشعري . . في أول هرب له إلى باريس لا يدفع رامبو ثمن تذكرة القطار فيسجن، يكتب رسالة إلى صديقه : عزيزي، ما نصحتني ان لا أفعله فعلته، سافرت إلى باريس، غادرت منزل أمي . . كانت أمي تمنحني ١٠ سنتيمات من أجل حجز مقعد لي في الكنيسة، ولهذا كان علي أن أهرب) .

كانت الرحلة الأولى إلى شارل روا ثم إلى بروكسل . يذهب

راجلا إلى باريس ليلتحق بثوار الكومونة ، ثم يقرر التفرغ للشعر وتصفية حساباته مع الجهات كلها ويعلن : يجب أن نكون اصحاب رؤى . وعندما أطلق عليه فيرلين الرصاص وأمضى عامين في السجن ، عاد رامبو إلى أمه وكتب (فصل في الجحيم) .

يردد المعلق في الفيلم الوثائقي الذي يعرض في قاعة المتحف :- (مازلنا في الحياة ، لو أن اللعنة كانت أبدية ، إن امرءا يريد تشويه نفسه ، لهو إنسان ملعون حقا . أعتقد أني في الجحيم . . إذن ، فأنا فيه . .) ، وعند مدخل حانة (الملاليم الأخيرة) حيث إحتسينا القهوة ، لوح واسع دونت عليه قصيدتان ، واحدة لرامبو والأخرى لفيرلين ، وفي الداخل لوحة نادرة لوجه رامبو كتب تحتها : مهرّب الأرواح .

يقول هنري ميلر عن رامبو : الشاعر منبوذ ، شذوذه في سبيله إلى الانطفاء ، لكن من يهتم الآن كيف جعل الشاعر نفسه كائنا مرعبا؟ الوحش طليق يجوب العالم . لقد أفلت من المختبر وهو في خدمة كل من يجد في نفسه الشجاعة على استخدامه ، لقد أمسى العالم رقما . .) . في ١٠ نوفمبر ١٨٩٠ ، يذهب رامبو إلى هرار ويكتب : «إنني شبه سجين (. .هنا . .)» . في ١ ابريل يدوّن في دفتر ملاحظاته : (تمطر منذ عشر ساعات بلا انقطاع ، ولا نستطيع العيش ولا نتمكن من الانتظار . . امضي الوقت في جلد اثيوبي . .)

غرفة اخرى تعرض فيلما متكرر اللقطات يقدم مشاهد من الاعمال التي مارسها رامبو في عدن وهرار ، مراقبا للعمال ومشرفا على تحميل الحبوب على السفن . وتتوالى العروض في الغرف الاخرى ، ففي الغرفة المخصصة لحياته في باريس نرى وصوله اليها عند نهاية (كومونة باريس)التي اختتمت انجازاتها الاشتراكية بثورة دموية عنيفة ،

فيغادر رامبو إلى لندن مع فيرلين في إقامات متقطعة حيث تبدأ الأزمة بينه وبين فيرلين وليعودالى بروكسل ويكتب افضل اعماله .

في كل غرفة من غرف البيت بطوابقه الأربع ، قام فنانو الديكور والسيناريو بتصميم مرحلة من مراحل حياته فيها ، وهي خلو من اي أثاث ، وانفرد كل واحد منهم بابتكار مشاهد وعروض شاعرية وواقعية لحياة رامبو من رحلاته الاوروبية إلى شرق افريقيا وزنجبار وعدن وهرار . وقد قام فنانو الفيديو بتصوير افلامهم في المدن ذاتها التي امضى فيها رامبو حياته الاخرى في الأماكن الأبعد عن عالمه الشعري . .

مقبرة شارلفيل

حرّ ما بعد الظهيرة ورطوبة الهواء النهري جعلانا نتصبب عرقا ونحن نبحث عن قبر رامبو بين قبور سادة المدن والكونتات والبارونات والكهنة والعسكريين والسيدات النبيلات والعامة . ثلاثتنا توزعنا في ممرات المقبر ة الشاسعة نبحث بين شواهد الرخام وباقات الزهور الذاوية وغرسات الزنابق الموهوبة للأعزاء من الموتى ، ولم نجد رامبو . . .

عندما يئسنا من الامر ، قررنا ان نبحث عن حارس المقبرة في الكوخ الريفي لدى مدخل المقبرة ، همست لكاترين ، لا أظننا سنجده ، لابد أنه غادر المدافن لأنه لا يحتمل البقاء في مكان واحد حيا وميتا . كدنا نسلم بفكرة فقدان رامبو ميتا عندما عدنا ودخلنا المقبرة ثانية فوجدنا مدفنه مع أمه وابيه وشقيقتيه إلى يسار مدخل المقبرة وكأنه انبثق من العدم بشواهده الرخامية . كان يراوغنا ويهزأ من زوار قبره الذي كان منسيا حتى عام ١٩٤٦, وضعت زهور الاقحوان البيضاء على قبره وهمست له ببضع كلمات باللغة العربية التي أحبها رامبو وأراد ان

يتعلمها فتعلم الغياب الأقصى . قلت له : أفضل ما فعلته أنك رحلت باكرا لتبقى ، رغم أن محبيك عاتبون لإسراعك في الرحيل إلى هناك ، هذه الزهور من أصدقاء شعراء أقدّمها باسمهم لخلودك الفادح . .

في مانوسك جنة الروائي جان جيونو

صحبني إبني بسيارته صيف ٢٠٠٨ إلى منطقة لوبيرون الساحرة في إقليم البروفانس واتجهنا لزيارة مدينة مانوسك جنوب شرق فرنسا على نهر دورانس من أجل رغبتي لرؤية منزل الروائي والشاعر وكاتب المسرحيات والمقالات والسينمائي وعضو الاكاديمية الفرنسية «جان جيونو» الذي لم تترجم الا القلة من أعماله الجميلة إلى اللغة العربية . ارتبط جيونو طوال حياته بهذه المدينة الجبلية على منحدرات الالب الفرنسية بغاباتها وحقول الخزامى (اللافندر) وأنهارها واستلهم من طبيعتها المذهلة معظم رواياته وأفلامه ومسرحياته وعاش فيها حتى رحيله سنة ١٩٧٠ .

استطاع منزل جان جيونو ان يعيد لي بعض توازني الروحي لاسيما وأنه أحد الكتاب الكبار الذين تعلمت منهم وارتشفت خلاصات أفكارهم وفلسفتهم في الوجود ، تجولنا في منزله الذي تحول إلى مركز ثقافي بإسم «مركز جان جيونو» كما هو متعارف عليه في دول العالم التي تحترم مبدعيها وتزهو بهم وتحافظ على تراثهم بدءً من أصغر قصاصة ورق حتى مخطوطاتهم وأدوات حياتهم اليومية وصورهم . كان بيت جيونو فاتنا مثيرا للخيال لا يشبه في عمارته طرز المباني الكلاسيكية في المدينة : ثمة بوابة ضخمة يؤطرها عمودان ثبتت على احدهما خزانة زجاجية تعلن مواعيد افتتاح المركز وعلى

الآخر نجد ملصقا لصورة جيونو وإسم المركز وتحته لافتة حجرية خطت عليها مقتبسات من أقواله ، نجتاز الفناء الواسع نحو المنزل ذي الطوابق الثلاثة الذي يفيض ببهجة معلنة منذ الوهلة الأولى بدء بجدرانه الخارجية التي طليت بلون حقول القمح : لون أصفر مشرق يكاد يكون ذهبيا كبزوغ الشمس ، ولون أزرق بحري مائل إلى غبش الفجر صبغت به الأبواب ودريئات النوافذ ، لونان جمعا بين سماء البروفانس والهضاب المذهبة بانطباعية طاغية تبوح بروحية جيونو وتمجيده الخالص للطبيعة ، وتطل نوافذ المنزل الخلفية على فناء بأشجار عتيقة ومتلقات تتوسطه بركة ونافورة ونباتات مشذبة ومقعد جينو المريح الذي كان يتيح له الجلوس الهانيء بتأمل الطبيعة وحيدا . .

أشياء كثيرة تعرض في المركز ، غرفة نومه ومطبخه ، ومكتبته المحتشدة بكتب وسيناريوهات ومخططات ورسوم وعلى منضدة كتابته البسيطة لا تزال حزمة أقلامه تشع حيوية بألوانها الوردية الصاخبة وثمة إناء من الفخار تكدست فيه غلايين الكاتب المنحوتة من الحجر والأخشاب العطرة الثمينة وفي غرفة مكتبته الواسعة صور ومنحوتات لديكة وطيور ووعول وثيران ، وثمة خرائط ومخططات ومسودات كتبت بالحبر الأسود . . ودونت عليها تصحيحات وتأشيرات . .

جان جيونو واحد من قبيلة عشاق الحياة ، متنوع الابداع والاهتمامات جمع بين فمون الابداع كلها ، كاتب الفرح والمبشر بيوتوبيا أرضية تتلخص في تآخي البشر مع الكائنات الحية والأنهار والسحب ، واكتفائهم بالفرح ثيمة تتردد بتنويعات لا نهاية لها في حياتهم المعزولة عن الحروب والسياسة ومعطيات الحضارة المعاصرة . .

جان جيونو هذا الرؤيوي - الواقعي المحتفي بالحياة ومتعها وكائنات

الطبيعة وأسرارها هو أستاذ للأمل بلا منازع ، فمن أجل ان ينضم الكاتب أو الشاعر إلى نخبة الذين يجددون الحياة ويعيدون صياغة الفرح عليه ان يعلم الآخرين تقنيات الأمل ليزج بهم في نهر الحياة الشهي . .

نعثر في أعمال جان جيونو القصصية والروائية والمسرحية مجموعة من الثيمات الأساسية التي تشكل فلسفته ونظرته للعالم والطبيعة والعلاقات بين البشر والطبيعة :

- **الإحتفاء بالعمر الطويل للإنسان الفاعل المبتهج . .**
- **الغياب الكامل للأنانية**
- **الكرم الفريد اللا محدود دون مقابل . .**
- **التأثير الإيجابي واللامرئي للطبيعة .**
- **اقتناص المباهج من جميع موجودات الطبيعة**

وبوسعنا ان نستشف طبائع شخوصه وسجاياهم من عناوين بعض رواياته :

أنشودة العالم ، الرجل زارع الأشجار ، الخير الوفير ، النفوس القوية ، وتبقى روايته الأهم (ليبق فرحي دائما) رائعته الغنية بطروحاته الفلسفية ورؤيته الإحيائية للعالم ونظرته المؤسسة على التسامح والتفاهم بين الكائنات والطبيعة .

قرأت هذه الرواية منذ زمن بعيد واكتشفت فيه أحد أساتذة الحياة الذين يعملون على شفاء الروح الإنسانية وترميمها بإبداعهم الحيوي وتأشيرهم لمكامن الجمال الذي يبقى لدى جيونو غير خاضع للتقويمات العامة بل انه يرى الجمال والسعادة مرادفين للحياة والحب والعمل والصدق ، ويتوقف اكتشافنا لتجليات الجمال على زاوية نظرتنا للعالم

وأنفسنا فيه دون محددات مسبقة . .

يعد جينو السلف الحقيقي للواقعية السحرية في اوروبا هو الذي ابتكر رجالا ونساء تجذروا في موروثهم المعتمد على الحضارة الزراعية ويروي قصة زوجين مزارعين يكتشفان أن شرارة الشغف قد انطفأت في حياتهم . وحياة القرية كلها وخمدت ارواحهم وغمرها الملل وذات يوم يوم ، يصل شخص غريب يساعدهم على اكتشاف كيفية اعادة الحياة لعلاقاتهم وارواحهم الضجرة ويقول لهم «الشباب ليس معناه القوة ، ولا الأجساد اللدنة كما يظن الكثير منكم ، الشباب هو شغف بالأشياء بعيداً عن النفعية والجدوى) ينصت الجميع لحكمة الغريب ويكتشفون السبيل إلى السعادة الفردية والجماعية . فيقومون بزرع حقول شاسعة من الزهور ، ومرج حبوب لإطعام للطيور ، ووضعوا خيولهم في خدمة الجميع وغمرتهم نعمة الشعر والخيال . .

شممت وأنا اتجول في مكتبه عبق التبغ المخمر بالأعشاب الشذية الذي وصفه في روايته تلك ، وفي برهة انسحار أغمضت عيني فرأيت (بوبي) شخصيته الروائية الفاتنة يلوح للزوار من وراء الزجاج ، بوبي الرجل الغريب الذي كان يجلب الأغاني والعشق والوعول والعصافير إلى القرية الجبلية الساكنة فتنقلب حياة القرية إلى مرح ومواسم أعياد مع قدومه في شبه عاصفة من المباهج والإثارة فتنتعش روح القرية الساكنة المعزولة ويقترح عليهم بوبي إنتاج غلالهم بشكل جماعي مما يوفر لهم فائضا من الوقت يشغلون بعضه في زراعة الزهور والعناية بطيور السهول ويقنع مجموعة من الشباب بمساعدة الوعول الجبلية على التكاثر وتجنيبها مخاطرة الهلاك وهي تنحدر - مفتونة بضوع مسك الإناث - على المنحدرات الصخرية وتدق أعناقها ، فيقوم بوبي

ومجموعة من الشباب باقتياد ذكور الوعول ومساعدتها للوصول إلى إناثها في موسم التزاوج لكن الذي حدث ان الإناث توقفت عن إفراز المسك عندما تدخل الإنسان في توجيه حياتها وأصيب الذكور بتبلد الرغبة ، فأعيدت الوعول إلى الأعالي لتقول للبشر ان سبل الحب قد تفضي إلى التهلكة ، إنما لابد من المجازفة فالحب والفرح جديران بالمخاطرة . .

وعند كل سفح ومنحنى في منطقة لوبيرون وفي كل حقل مترام من حقول اللافاندر العطرة ، كنت ارتطم بروح جيونو وشخصياته العجيبة تسبقني إلى كروم العنب والزيتون وأكواخ الرعاة ومسك الوعول وكهوف الثعالب ، كنت أسير كل صباح في دروب غابة الجوز واقطف ثمار الكرز والخوخ وأشم أنفاس الوعل البري القافز بين القمم وأرى الصبية البكماء التي أحبت وعلا وحيدا وصار يلاحقها ويذرف الدمع بين يديها وهما يتحاوران بلغة العشب والضوء والشذى . .

مع جان كوكتو في بيت الشاي

١

نحن الكتّابَ عرّابو المحن ، كهنة الحلم وقضاة الفقد ، سارقو التفاصيل من الالهة ، ممولو الغوايات الذين تضيق بهم الخرائط وتنفيهم الأعاصير إلى مزحة الجنون ، تتبعهم ظلال الوهم وتقتات على دمهم فراشات الشهوة . .

مطلا من صورته الداكنة على جدار بيت الشاي يفيق جان كوكتو المارق من رفاه الموت ويهمس لنا : لاتكابدوا كل هذا العناء ، أيها الكتّاب ، فالسماء تتسع لنا جميعا!!

لكن السماء ليست لأحد ياجان كوكتو -والكلمات ليست لنا وحدنا نحن مخترعو الحكايات المتبلة بتباريح الالم والرغبات ، نحن رعاة الخسارة نسوق قطعانها في وديان قنوطنا ، نحن ضحايانا قبل ان نفوز بضحايا طازجة لمخيلاتنا ، مبدعون في ترسيم الخراب ، ومؤدلجون بكل تقليد هالك ساعة يغوص النصل في الخاصرة . .

نرى الملاك ينضو ثلوجه ويأتلق بنار المعصية ، نجاة من بلادة سماواته ، فلا نحتفي ببسالة العصيان ، بل نتخذ قناع الضد المتربص ، لنعيق خلاص الملاك من القداسة الهالكة . .

٢

بيت الشاي في ممر دوفين -الحي اللاتيني ، أممي على الطريقة الباريسية ، تديره إيطالية وتضيّفّ الزبائن فيه نادلة مغربية وبوسعك ان تحتسي فيه ما شئت من انبذة واشربة وقهوة وشاي اخضر وشاي ياسمين وتفاح وتوت وشاي جيورجي محروق بنكهة لهب وشاي سيلاني وشاي من اختراع اللحظة العابرة ، وملصق يتسيد المكان للشاعر المارق جان كوكتو . .

نبيذ بوجوليه - أضعه أمام طيفك الحلمي تدعوني إلى شايك المسكر ، للإفاقة من شرق مأهول بالموت وأقاليم العبودية الناجزة ، كلماتك نبيذ معتق في كهف حريتي ، يقتص من صحوي ويمضي بالأخيلة إلى اقاصي الافتتان . .

تداهمني موسيقى جوقة ضاجة في الحي اللاتيني : أسمعهم يهجون مهنتنا ، يهجون الكتب والكتّاب والكتابة ، رجل بزي امرأة يهذي على افق من زهور جيرانيوم وأشجار كستناء ، يهجو الكلمات واللغات والشعر والنصوص ويعلي من مقام الجسد في رقصة الموت التي تسحبه إلى ممرات النار ، يسمينا فاشست اللغة ، فاشيست اللحظة الآبقة ، فاشيو العصر مابعد الحداثي . .

يشهق جنونا ويتسامق رغبة في هواء الميدان الدخاني مسورا بدفقات من عطور وعرق وبخار كحول ينضح من جلده الذهبي ، من عروقه النافرة ، من نظرته الزئبق ، من فمه القابض على جمرة الشهوة .

هجاؤه يحيل الكتب إلى عدم ، يحيل الكتّاب إلى مشعوذين ، يحيل الكلمات إلى هباء زائد ، هجاء الرجل الراقص : أنوثة مستعارة في إهاب ذكورة مخاتلة ، يطعن النص ، ويلاحق اللغة بهبوب لهب من

شعره الاحمر الجعد ونصه الكاسر وعضلاته المتوفزة . .

أخالني أتلبس الهجاء بسحر رقصته ، أخال الناس يتقمصون كوميدياه الدخانية ، فاتمتم في المسافة المعراة بيني وبين الإعتراف :

ياللكاتبة من عابدة للجمال الفاني ، يالي من كائن مرصود للشغف ، ياللكلمات من طعنات تليق بالمارقين ، يالي من راعية لجنون العبارة وجنوح القلب . .

لعلنا حقا كما يدعي الراقص المهرج في نشوته ، فاشيست اللغات والكلمات والأخيلة . .

عباراتي تترامى في أبهة الريح وتحط في نظرة رجل الحلم ، جحيمات من اللغة تتوهج في حريق المساء وأراه على مقربة مني : في مقهى صغير يحدق بامراة عابرة يهبها قسماتي ، جحيمات من النشوات تأتي على الحكايا الحادثة أمامنا على ضفاف السين أو في شارع اميل زولا أو ساحة فولتير اوشارع سان شارلس حيث المقبرة العتيقة امام نافذتي تتصادى فيها الموسيقى أو تزدهي الزنابق حول الشواهد والصلبان الوادعة ، ظلال اشجارها المتقدة بأزاهيرها تحنو على وحشة الموتى في النهار ، وتتواطأ معهم في انتظار قيامة ترتاب بها . .

وجه الرجل الحلم في المنأى ، في المتاهات ، يخط ملامح ليلي وتباريح نهاراتي ، يحوّر مذاق الشاي ونكهته المداريّة ، فيستحيل شرابا به بعض فتنة الخرافة وبعض سحر الترياق الشافي . .

احتسيه ترياقا لسموم تتراكض في ازمنتي ، أمامي في المقهى إمرأة وحيدة بثوب قطني باهت الزرقة تحاور شبحا أو تحادث بقايا عاشق آبق ، اراها في مأزق وجودها : وجودا عابرا للحظة زائلة ، اسمعها تحاور شخصا بنبرة قنوط ، تهذي عبر هاتفها النقال ، وتبدد قصتها على

قرميد الشارع وزهرة الأوركيد وفضولنا ، مائدة الشاي مستغرقة بلذائذ كعك التفاح وصلصة التوت البري ، والمرأة كما أراها - تستعيد نصا ، أو تستظهر دورا موكلا لها ، ربما هو نص المونودراما الشهير(الصوت البشري) لجان كوكتو ، ذلك النص الذي استنفدت فيه (انغريد برغمان) تاريخها في سرد الالم ، وسمعناها في اسطوانة خالدة ، وتبنينا فجيعة الوحشة والهجران والموت مع مرارة صوتها المنتحر ، وهي تنهي عبارتها الاخيرة : اذا قطعت اتصالك معي فانني ساختنق لأن حبل التلفون ملتف على عنقي وسيقطع عني الهواء وتوقف الحياة . .

الموت صنو الحب الموازي ، وجهه التالي ، جوهره المخلد في فناء الجسد ، الموت قناعه البهيّ ليبقينا على أهبة الجنون في المهاجر- اقرأ ذلك في شحوبها السلافي ، ورجفة فمها المخذول ، اقرأها وامضي هربا الي حلمي من شغف المدينة بالموت وشهوة الكائنات للفناء . .

المرأة النحيلة مثل عصفور ، شبيهة (اديث بياف) حبيبة الشاعر جان كوكتو ، تنهي حوارها اليائس على رشفة قهوة ، وتتيه في الذهول الفاتن لخسارتها وتضحك تضحك حتى يغمى على ثوبها الأزرق وشعرها الجعد وعينيها الغائمتين ، يغمى على شايها الأخضر وظلال الغياب تموج في وجهها الشمعي . .

مثلها ، مثل أنغريد برغمان ، مثل إديث بياف ، مثل إمرأة بارحت الحب إلى الموت ،

تنهمر الخسارات على المسافات القلقة مابين الإفاقة والغياب ، لاأحد يحتفظ باحتياطي قيامة تعفيه من مصير الرماد سواي . .

طلبت شايا من السيدة الانيقة ذات الوشاح المدعوك بالبنفسج ، وصوت رحل الحلم يشتبك بروحي ويسمها ببروق الشغف ، بالفن

الشهي المطلق ، بمفردا ت يستولدها لي ، وكل منا في لعنة على مقاس مروقنا ، كل منا في التباس ماحولنا ووضوح مابين لحظتنا والمسافة . .

قهوة السيدة التي تزقزق بايطالية نابولي- تمزج ألق شجر الكستناء برغوة الموسيقى حيث يحتفل خريجو كلية الهندسة في الحي اللاتيني وسط الشارع المرصوف بالآجر وترقص معهم ستائر الحانات الصغيرة ومزهريات الأوركيد في الشرفات والمهرج المتأنث المرتدي زي راقصة آسيوية وبعض البنات السوداوات المصقولات بزبدة الكاكاو ورنين الاساور يراقصن فتيانا ذائبين شقرة ، شبه عسل ايقظته النشوة من سباته . .

شايي الاخضر يتلظى في وعاء نحاسي عليه رسم بارز لتنين صيني وزهرة اقحوان في كف بوذا وهو مكبل برجولة مؤنثة ، تجسده الكائن المكتمل في ازدواجه .

أتقصىّ لذعة الانوثة في رجولة سيدهارتا الجميل ، أتقصى في أنوثتي صوتا وأقانيم حلم يرافقني منذ ازل الزمان فأكتمل اكتمال بوذا في تناهيه والتباسه ، يلتبس بي الماء بين ان اكون انا أو يكون هو أو نكوننا في تجربة سيدهارتا المزدوجة التي تنسخ الحب وترسله إلى محرقة الصمت في معابد بوذا الذهبية . .

نبات اللبلاب الانكليزي يتعرش على الرصيف والحاجز الخشبي ويمسك الرجفة الجائحة بين كتفي وعطري ، ينحني ظل الرجل الحلم على المساء ، يغمسني في مجاز أو إستعارة أو ينكلّ برجال النحو المتربصين بنشوزنا ، شبه قطاع طرق بين الكوفة والبصرة . .

بنظرة جحيم سوداء من عيني جان كوكتو يتنزل الليل ، بنظرة انثى مفتونة بالدم ترصدنا المدينة من أفقها ، فنلوذ بفداحة الصمت . .

. . يفرخ الصمت تهاويل من رؤى وتصورات عن مآل الإنسان فينا ، يتسع الصمت لاحتشادي بأحلامي وانتهائي اليها ، بحيرة غابة بولونيا تتشهى جسدا ناضجا تقتات على صخب الحب في عروشه ، ترجئني شهوتها وانا أورق في الغبش وارسل براعمي إلى الريح ، يتقدم بي الوقت إلى مدن من أصداء تجعلني اترنح في وحدتي وتمضي خطواتي في المتاهة . .

حدائق اللوكسمبورغ تهذي عشاقا وموسيقى وحمائم ، رجلان مثليان يتعانقان فوق ربوة مزهرة ، وشجرة الكاميليا تشير إلى الجمر وتستولد المستحيل من الممكنات ، ويضاعف لغز المتاهات بين دين ودين وطائفة تفني سواها ، وممالك ترص اللاجئين على تخوم الرمل بين صيحة ذئب وفحيح افعى . .

حروف اسم جان كوكتو تتناثر على وجهه الشبحي في الملصق الذي تكرره سيدة بيت الشاي على الجدران - والممر شبيه خانات سمرقند أو البندقية- اقواس وشرفات متناهية الحنان . .

الملصق تعويذة عشق مهدد أو مزنة إيروتيكية مستعادة من غد محلوم به ، وجه جان كوكتو يوغل في الغياب ، وجه جان كوكتو النهم يحتسينا سوادا سوادا وينثرنا على الموائد ، وجه جان كوكتو يوقظ فينا اورفيوس ويستغرقنا الرنين الاغريقي لقيثارته . .

اقطف الحروف المائلة من وجه كوكتو لأضفر اللحظة بتاريخ الرماد ونكهة الشكولاتة ورنين الاناء النحاسي ، ونبرتي ترسمنى طيفا يؤالف

رجل حلمي وهو يتوجني بطوق من المعاصي الجميلة . .

وجه جان كوكتو يتربص بي ويسبر أحلامي وتقتات عيناه الليليتان على احزان هروبي في أضاليل نصوصه ونصوص مارغريت دوراس ولو كليزيو ، سحرة القول هم ومروجو الضلال الجميل بين اللغات والجهات . .

ترتعش نجمة ضالة على فمي وأرى الرجل الحلم الناسك البعيد الذي يؤدي مروقي إلى اقاليمه وتؤدي كل نصوص العشق اليه . .

٤

نحن الذين نتحامى باقنعة النص من المشنقة ، كلما أتحنا للكلمات أن تتحررمن وأدها المزمن كبلناها بالبلاغات وسكبنا على نضارتها رميم القواميس ، وجعلناها أمثولة لنكوصنا عن مقارعة اغتصاب مخيلاتنا وتجفيف احلامنا . .

كلما أوشكنا على حكاية نجاة تناوبتنا اصابع المكيدة ، فانتبذنا لنا خلاصا أخرس في ضجيج الدول وتوارينا في النهايات سيئة التوقيت لسياسات القهر . .

نحن الحالمون ناهبو اللغات وسارقو المعنى المتوجون بأكاليل الغواية ، نراهن على خسائرنا بتاريخ رجيم ونفارق حاضرنا إلى ما ليس لنا .

بين المروق وخروقات النص ، بين اختراق التابو وجرح التاريخ ، ما الذي يتبقى لنا سوانا؟؟

ها أنا أقف على تخوم البداءات : مذاق الحرب ولذة الحرية يتناوبان دمي ، وصورة جان كوكتو ترنم الانين البشري عبر هاتف يلتف

حبله على عنق إمرأة، جسدى يتناهى في السكوت في رحيق الشاي، في أنوثة بوذا.

وجان كوكتو يقرر موتا ساعة يشاء العشق، يموت في اليوم ذاته، بعد موت إديث بياف بساعات..

يخبر صديقه : اظنني لن احتمل الوجود نهارا آخر وجبينها الضوئي منطفيء في الصمت..

جان كوكتو في آخر المدن الضاحكة يناولني قربان القيامة ويرسم على جبيني قوس الرماد وأديث بياف تغني في جموع الشغيلة والنساء الضائعات والمشردين والتروتسكيين والجياع عند مقبرة بير لاشيز، قبرا قبرا تنفتح القبور برنين صوتها الوجودي، ويقوم الرجال وتهب النساء من الأضرحة ويجلو صوتها الحافي لون الرماد عن جبيني لأمضي إلى حاضر تصنعه يداي وأحلامي.

مع ماريا كالاس
رفيقة صباحاتي في شارع بلوميه

كل صباح كنت أمر أمامها أحييها بصمت ، أتأمل صورتها وأنا أسير من فندق (عدن) المتواضع الذي تئن أخشاب أرضيته وسلالمه العتيقة تحت خطواتي- في شارع (بلوميه) لأشتري رغيف الخبز الفرنسي الباغيت أو الكرواسان من مخبز قريب لفطوري ، وأعود مسرعة في الطقس الصقيعي لأراها تحدق بعينيها الإغريقيتين القاتمتين إلى الأفق الغامض في صباح المدينة القاسية كأنما حلت فيها روح ربة الحكمة أثينا واخالها أحيانا مثل كاهنات دلفى أو ناسجات المصائر . .

تأسرني صورة (ماريا كالاس) بتناقضاتها ، بالأسود والأبيض : ثوبها الاحتفالي الطويل من الساتان الناصع ، عقدها اللؤلؤي الكلاسيكي ، تسريحة شعرها المرفوعة مثل تاج قاتم على طراز ستينيات القرن العشرين ، وفمها المطبق على تراجيديا أغريقية ، تطل من واجهة المحل العتيق الذي يبيع بقايا الشغف البشري للأسطوانات ذات ٧٨ دورة ، أسطوانات السيمفونيات والأوبرات وأغاني مشاهير القرن الماضي :شارل ازنافور وجاك بريل وداليدا واديث بياف وموستاكي وجوني هوليداي ، صار حزنها التراجيدي وصفة صباحية للهرب من حزني الشخصي وأصبحت هي رفيقة الصباح والرغيف والمطر وكأنها المخدر يخفف وحشة المقام في غربة المصير .

تتصل بي الصديقة الكاتبة الفرنسية كاترين ستول سايمون وتدعوني لحفل يقام تكريما لذكرى «ماريا كالاس» في كنيسة القديس جوليان الفقير الشافي ، واذهب لألتقيها في مقهى الأوديون المطل على تمثال «دانتون» نحتسي قهوتنا ونقوم إلى الحياة .

السماء تهذي مطرا وشارع القديس جوليان الفقير في الجانب الأيسر لنهر السين في قلب باريس القديمة يموج بهمهمات العابرين إلى ليل الموسيقى - مدخل الكنيسة الحجري يشي بتقشف المكان الذي تحول مرارا من كنيسة بنيت في القرن السادس عشر لطائفة (الملكيت) - إلى كنيسة تقدم الطقوس البيزنطية ، الأيقونات البيزنطية وقناديل النحاس العتيقة تحيل إلى كنائس اليونان في أثينا وسالونيك وقبرص ، رواد الأمسية رجال ونساء مسكونون بنوستالجيا تنهمر من حدقاتهم وعطورهم ومعاطف الفراء ، يستعينون بصوت (كاستيلانزا) الذهبي لاستدراج ذكريات الزمن الجميل ، زمن ماريا كالاس - مغنية الأوبرا الأشهر وأيقونة القرن العشرين بصوتها الفذ وحياتها شبيهة المآسي الأغريقية وقصة حبها اليائسة المريرة مع الملياردير الاغريقي أوناسيس . . . .

كاستيلانزا البدينة كمعظم مغنيات الاوبرا -ترفل برداء هفهاف من الموسلين الفيروزي وتتزين بمجوهرات كلاسيكية وكأنها منبثقة توا من حلم امبراطوري وصوتها السوبرانو الدراماتيكي بمدياته الواسعة يموج في اروقة الكنيسة الأثرية هو الذي أهلّها لغناء معظم أوبرات فيردي وأوبرات روسيني ، صوت مدهش يسحر بقوته ومدياته الواسعة ويحيلنا كل آونة إلى صوت ماريا كالاس المحتفى بها في المعبد البيزنطي . .

يرافق كاستيلانزا زوجها عازف البيانو هربرت دو بليسيس أبرع

عازفي البيانو المعاصرين في أوروبا وتحتفي به دور الأوبرا الشهيرة في العواصم الكبرى . . وهو من عازفي البيانو المعدودين الذين تخصصوا وبرعوا في تقديم اعمال شوبان واوبرات فيردي وروسيني ويشكل هو وزوجته المغنية كاستيلانزا اشهر ثنائي للاوبرا والبيانو في اوروبا كلها . .

في أروقة الكنيسة التي لازالت حتى اليوم تقدم الطقوس البيزنطية المتحدرة من القدس إلى القسطنطينية وأنطاكية جرى تكريم (ماريا كالاس) باستعادة مقاطع من اوبرات أدتها في جو امتزجت فيه ظلال الأكروبول بفلسفة القديس الشافي (جوليان الفقير) كاعتراف دنيوي وطقوسي بسيدة الاوبرا الاغريقية التي ولدت فقيرة وكابدت حتى بلغت قمة العالم وأغرم بها عشاق كُثر ، لكنها أغرمت بحب رجل مستحيل ورحلت وهي من أشهر نساء القرن الماضي واكثرهن تعاسة في الحب . .

تحت غيوم من بخور مشرقي وأنوارقناديل راعشة تموج مع الموسيقى ، غنت كاستيلانزا بصوتها السوبرانو الصادح المنسوج من حرير وضوء وغمرت المساء بسطوع نبرتها الصادحة وأدت بتقنية فريدة ونقاء حدسي وكاريزما طاغية ، غنت ثلاثة مقاطع من أوبرا زواج الفيغارو لموزارت وأحالت قاعة الكنيسة المتقشفة إلى فردوس حقيقي برهافة ادائها المتقن الذي مزج سحر موزارت المتدفق مع روحانية المكان وإيحاءاته البيزنطية ، وكما غنت لموزارت ابدعت في اداء مقاطع من اوبرات لمؤلفين اخرين مثل لالو وروسيني وبيلليني وختمت الليلة الفردوسية بغناء مقطع من المشهد الكبير لأوبرا عايدة التي توجت بها ولاءها لسيد الاوبرا الايطالية فيردي وتنقلت بالحاضرين من هزليات موزارت في زواج الفيغارو إلى التراجيديا التاريخية الفخمة التي تمثلها

اوبرا عايدة باجوائها الفرعونية وصراع الإنسان من اجل الحرية ، في الصباح التالي تخيلت صورة ماريا كالاس ترنو بنظرة ممتنة وتبتسم لي من وراء الزجاج ابتسامة مواساة ، وأتساءل : من يواسي من؟

أتبع أنشودة الماء
في بارك اندريه ستروين

الماء صيرورة الزمن في صورة الكائن ، والماء سيد الصباح اللامقروء في صحائف الرمل . أتبع أنشودة الماء في صباح التوحد وتمضي بي الرقرقة من نبع في بئر النفس إلى نهر ينشق عن مدينة بنصفين من أنوار وعطور .

نهر (السين) لا يأبه أبدا بالمزيد من المطر والدموع والحكايات ، ماؤه مؤبد من نوافير الميادين وقصور الملكات وينابيع الجبل ، دموع النساء في وحشة المدينة لاتعني له سوى إلتماعة شذرة على وجوه غريبة متوحدة غابت عن ليلها دواعي الوصول وإشراقات التأويل وجاورتها العتمات فمضت تبحث عن نهايات مرتجلة في أحضان أعشاب النهر وطحالب الأعماق . .

النوافير تتواطأ مع خلود النهر ، ونافورات بارك (أندريه ستروين) تتراقص متعالية في مجون شهوي على إيقاع صعود الأسى ، الراكضون في صباح السبت محصنون من كل البشر بموسيقى تبثها فيهم سماعات صغيرة ، يتشربها الجسد والحواس ، لعيونهم نظرة موصولة بالعدم ، لا أشذاء الخزامى ولا عبير المنثور والبنفسج ولا نداءات البط في البرك الصغيرة بقادر على إختراق دروع فردانيتهم وعزلة الروح .

لا أحد سواي يستخفه صوت الماء متدفقا من شلالات مصطنعة

على مدارج عالية ، الماء سيد الفرص الأخيرة لمعانقة حلم سعيد في نهر باريس اللامبالي ، في جيب بنطلوني الجينز عنوان مسكني ورقم هاتف إحدى صديقاتي وصورة مشوشة لرجل الحلم تنطبع على جبيني .

الغوص في الماء شهي ولين وأمومي ، غوص في رحم التكوين وإستعادة العناصر لأصولها المحيطية ، كثيرون يرودون النهرهذا الصباح المفعم بالجمال ، ملاحون صغار ومدربو قيادةة زوارق ، اليخت المسمى (ماريا) يرسو على مقربة من لحظة الشروق والمتريضون يقيسون صباح السبت بالخطى والعرق المتفصد وهو يرطب قمصانهم الصغيرة .وأقيسه باامواج بحر بعيد وصورة رجل الحلم المتكاثرة في ذاكرتي .

تمنحني بعض الأمل سيدة ثمانينية تنزه نفسها في منطاد تؤجره مؤسسة (يوتل سات) بعشرة يورو لكل مغامر ، نظرة الطائر إلى المدينة تستحق الثمن والمجازفة بما تبقى في تقويم إمرأة فانية تطير في منطاد مزخرف بمعالم هندية وصينية وباريسية ، السيدة الفانية تؤبن نهارها بنظرة الطائر من أعالي خوفها ، وللخوف حبل يشد المنطاد إلى سرة حياتها الزائلة ، أنا بين أزاهير الزنبق والليلك اتحرى بهجتها الطفولية ، هي فوق ، فوقنا في الهواء تتذكر كلبها الصغير وقناني نبيذها ومقهاها المفضل وعشاقها الغابرين الذين نسيت ألوان عيونهم . هي لاتراني ، لاترى غير وهمها عن خلودها المنخور في سلة المنطاد ولاترى رجل أحلامي ولا رغباتي وكلماتي وقصصي ، لأنها لاتريد من الصباح غير نزهة على مشارف حلم مهشم .

تجنح خطواتي إلى النهر ، خفة جسدي تستجيب لدعوة الماء ، لكنني مثقلة بأحلامي ورجل الحلم تتكاثر هيأته وتحملني حزن ألف عام

من التنائي بين قلاع مدينة الحضر وممالك آشور في نينوى فلا تثقل موازيني ولا يحملني صباح (السين) إلى الهناك ، ترقص الظلال وحدها في قلب الهاوية فالجسد يشتهي الغد ، والروح تعلو فوق شروط الأرض ، خفتي تنتشل روحي من فكرة النهايات فأعيد توقيت ساعتي على جمالية لحظتي ، أهتف بنفسي : ليس دورنا أن ننتحب على أنقاض الأمس ، لحظتنا هي اليوتوبيا ، الزمن هو مانملك من لحظات . .

معبد الفن: متحف أورسي

ذات صباح له شمس مشرقية ونسائم فراديس ومزاج يتوق إلى ارتشاف الجمال ، قصدت متحف اورسي المطل على السين والمقابل لحدائق التويلري في الضفة الأخرى ، روت لنا المشرفة التي ترشد الزوار ان مبنى المتحف كان محطة للقطارات ، ثم جرى تحويله إلى متحف يعنى بالفن الحديث وفيه معرض دائم للانطباعيين والفوتوغراف ، ان ترى لوحات رينوار الشهيرة «غداء على العشب» ولوحة فان كوخ «سماء مرصعة بالنجوم» ، اعمال يوجين ديلا كروا واعمال كوربيه واشهرها لوحة (أصل العالم) وأعمال دييغا راقصات الباليه ، سوراه ولوحاته المميزة بطريقة التنقيط ، بيسارو وهنري روسو ولوحاته الوحشية وسيزان ولوحة المقامرين وحياة صامتة . .

في قاعة رودان توقفت كثيرا ، امام تمثال المفكر وتمثال القبلة وتمثال السر ، تذكرت حبيبته كاميل كلوديل الفاتنة ، كانت موديله وملهمته وهي التي اودى بها عشق رودان وسرقته لأفكار اعمالها إلى الجنون .

جازفت كاميل بكل شئ : حطمت القيم الفنية الكلاسيكية في أعمالها النحتية وهشمت القيم الاخلاقية لطبقتها البورجوازية ، انتهت حياتها المأساوية في مصح للمجانين وقد شارفت على الثمانين ، لكن شيئا من بقايا العاصفة مازال يعصف بها ويعبث بوجودها هي التي قالت ذات يوم (يعذبني دوما شيء ما غائب) فكان غياب عقلها هو

العذاب الأبدي الذي لازمها بعد أن خانها رودان وخذلها اخوها الشاعر بول كلوديل الذي احتجزها في مستشفى الامراض النفسية .

منحوتتها الشهيرة «زمن النضج» اختصرت فيها مأساتها مع نفسها والعالم ، مع رودان وحبها المسلوب ، هي التي عبثت بالرمل والطين في طفولتها وتعلمت كيف ينهار ماتصنعه بالرمل الهش الذي لايقاوم الريح والأنواء ،

الفن هش وزائل ، الفن صارم ومخلد ، الفن يتراوح بين عبقرية الجنون وتفاهة العابر ، كل ابداع يقف على الحد بين الفن واللعب ، الحياة ايضا لعبة ، لعبتنا في العيش والحب ، لعبتنا التي تعبث بنا في حربها على احلامنا ، كاميل صنعت فنا وأهدرت حياتها ، منحت حبها الدفاق في ارض بور لرجل سطا على احلامها ورؤاها ، قادها إلى جنونها وهو يتخفى وراء أفكارها ، كان الجنون خلاصا وكان متعتها لنسيان الحب .

بيرن
المدينة المتحف المولودة في كهوف الدببة

«تعد بيرن بكاملها ضمن قائمة التراث العالمي للإنسانية لتميزها بالطابع المعماري للعصور الوسطى وضعت تحت رعاية منظمة اليونيسكو لذلك لايستطيع غير السويسريين شراء المنازل فيها ولايستطيع السويسريون هدم منازلهم ولا تغيير معالمها الخارجية ، وهي أشبه بقرية قروسطية منظمة ومليئة بالزهور وتتفرع أزقتها المرصوفة بالحجر من شوارعها الرئيسة . .»

بيرن المدينة الصغيرة تنام في احضان وادٍ كان مرتعا للدببة فاتخذت اسمها من اسم الدب ، وربما استعارت بعض صفاته ايضا ، فهي تبدو وكأنها في حالة سبات غير مكتمل ، تتجنب الصراعات في حيادها السويسري لكنها تجيد الدفاع عن وجودها واستقرارها وثباتها كالدب تماما .

وجدتها مدينة راكدة باردة كأنها قلعة من قلاع افلام والت ديزني ، هادئة إلى حد الضجر ، تغدو مدينة شبه خاوية أو معطلة يومي السبت والأحد ، في الحق لم أحب مزاج المدينة العام والبرود الذي يميز المجتمع هناك . .

متحف تاريخ الأديان يؤرخ لذاكرة الشعب السويسري متعدد القوميات والأعراق ، متحف يطرح الأسئلة ويبحث عن إجابات تتعلق

بمبررات الحروب والمهالك التي تسببت بها الصراعات الدينية بين المذاهب ونتائجها على الشعوب والحضارة الإنسانية وقد مرت سويسرا بحروب دينية في القرون الوسطى تجاوزتها إلى حالة سلام واقصاء للدين عن التأثير في نظام الحكم وحياة الناس إلا باختيارهم وتوقهم للايمان .

مساء الجمعة ٢٨ مارس كنا على موعد في مدينة بيرن مع مهرجان سنوي يقام منذ خمسة أعوام في المدن الرئيسية ، حيث تتوزع الأنشطة الثقافية بين زيورخ وبيرن ولوسيرن وجنيف ولوزان . .

ليل المتاحف مهرجان للثقافة تباع فيه بطاقة موحدة بسعر مخفض ، لزيارة جميع المتاحف والمراكز الثقافية ، وخاصة تلك التي لاتفتح أبوابها عادة للعموم ، وبوسع المتابع زيارة أكبر عدد من المتاحف التي تبقى مشرعة الأبواب حتى الفجر لمشاهدة الفعاليات الثقافية في الساحات العامة ،

ليل المتاحف يغمر المدينة بأضواء قزحية ، فلكل مبنى ومؤسسة إضاءة تميزها في هذه الليلة الثقافية بامتياز ، وتدشن الفعاليات في ساحة البرلمان التي تطل عليها البناية التاريخية للبرلمان الاتحادي السويسري ، وهي ساحة تستخدم خلال أيام الأسبوع سوقا لباعة الزهور والنباتات والأجبان والخضار ، حيث تقام منصات مؤقتة لعرض السلع والمنتجات الزراعية أمام البرلمان : امتزاج واقعي وديمقراطي بين متطلبات الحياة اليومية من صحف وزهور وأطعمة وبين إدارة الحياة السياسية ومناقشة قضايا البلد الاتحادية وإقرار القوانين والمشاريع التي تعرضها إدارات الكوميونات الاتحادية ، وفي ليل المتاحف تنهمر الأضواء الملونة على مباني المتاحف ومراكز الثقافة ، فهذا مبنى البرلمان المفتوح للزوار

تضيء جناحيه أنوار صفراء بينما تشع مداخله وأقواسها باللون الوردي الساطع ، ويتوهج بيت (أينشتاين) بالوردي والأزرق والأصفر ، وتضاء واجهات المكتبة الوطنية باللون الأحمر ومتحف تاريخ الفيزياء باللونين الأزرق والأحمر وتتوهج جوهرة العمارة -مركز الفنان بول كلي باللون الوردي الصاخب ومكتبة جامعة بيرن باللون البرتقالي ، متاحف وموسيقى ومسرحيات ورقص ونقاشات وكتب حديثة على مدار ليلة صارت تقليدا سنويا للتحريض على المعرفة ومساءلة العلم والتاريخ للوقوف على إمكانات الحاضر واحتمالات الغد . .

بول كلي: الفنان المتصوف وملائكته

عاصفة الثلج تتعاظم صباح يوم الأحد في شهر اذار- مارس اول ايام عيد الفصح ، ومدينة بيرن الهادئة تستفيق على بياض أزلي من ثلج وسماء مبهرة الضوء ، أشجار الصنوبر العظيمة تنوء بهبات السماء والمارة نادرون ومتعجلون ، باعة الصحف وزعوها على المداخل وتواروا في الريح ، باعة الزهور غابوا بزنابقهم وباقات التيوليب ، الوان النهار تتراوح بين حمرة القرميد الداكنة الموشحة بكتل الثلج وخضرة الأشجار التي لها مزاج جبل واصطبار أنثى ، والفن وحده قادر على إغوائنا للترحل بين إبداعات الفن ومعجزات العمارة المعاصرة تحت العاصفة . . .

لاشيء اذن أشد سحرا في مثل هذا الطقس- من زيارة أفخم مركز فني وثقافي في العاصمة السويسرية بيرن (مركز الرسام الشهير بول كلي) .

أول ما يفاجئك وأنت تتجه إلى المتحف ذي التصميم المعماري الغرائبي . امتزاج عناصره المعدنية بالأرض وتداخل الامتدادات القصوى للهضاب المعدنية بالمرج الاخضر الذي يرتفع وراء المتحف مشكلا مدى حنونا وانحدارا ناعما للطبيعة الحرة المنفتحة على افق ضوئي مرتفع مكلل بالضباب الأبيض . .

أعجوبة معمارية معاصرة تليق بفن بول كلي ونزعته التأملية وتمرداته وشعره وتقدم له اعترافا متأخرا بمواطنته للمدينة التي أحبها

وعاش فيها معظم فترات حياته الخصبة ، لكنه لم يمنح جنسيتها إلا بعد وفاته سنة ١٩٤٠ لكونه يحمل جنسية والده الألمانية رغم جنسية أمه السويسرية . .

العمارة حين تكون فلسفة وتصوفاً

المهندس الايطالي الشهير (رينزو بيانو) ، الذي صمم ونفذ المشروع المعماري الفريد لمركز بول كلي هو نفسه مصمم مركز بومبيدو للفن الحديث في باريس . . خيال خصب لا يتوقف عند حد وإبداع منطلق حر مدعم برؤية فلسفية وصوفية للفن وعلاقته بالطبيعة ، قدم المهندس (رينزو بيانو) فهمه الخاص لفن (بول كلي) واعماله التأملية وانسحاره بالضوء والالوان وافتتانه بالطبيعة والعلم والأحلام ، رؤية المهندس العملية لوظيفة المتحف تتعدى موضوع حماية الأعمال الفنية وعرضها إلى مهمة إنسانية ذات بعد اجتماعي يقوم على المشاركة والتواصل بين البشر ويتيح المنادمة والحميمية ، فأتى تصميمه بشكل ثلاث هضاب صناعية من الألومنيوم تتخذ هيئة موجات بحر متتابعة ، ومتصلة توحي بالحوار والفردية في الآن ذاته ، وتشكل سلسلة جبال غورتن خلفيتها الطبيعية ، ويمتد امام الهضاب الثلاث طريق مستقيم للمشاة وتطل واجهة المركز على مشهد بانورامي لمدينة بيرن التي يفصلها عنه نهر (آريه) ووادي (بيرن غرابن) أي «خندق الدببة» الذي استمدت المدينة اسمها منه .

تصميم مستوحى من براعات الطبيعة في صوغ مفاجآتها البصرية ، وشكل متماوج يباغت الطبيعة ويراوغها ثم يندغم فيها بايقاع درامي وكأن الأرض انفلقت وتفتحت اعماقها عن هذه الهضاب

كفعل تصادم الصفائح الصخرية التي تستولد جبالا بكرا .

تنبثق بدايات الهضاب المعدنية من بين حشائش المروج المحيطة وتشكل عملا نحتيا يكاد يكون مكملا للمشهد الطبيعي المحيط ومتجانسا معه ، فنهايات الشرائح المعدنية العملاقة تندغم في المرج وتذوب فيه ثم تبرز رؤوسها بعد امتار وكأنها جزء حي من جذر شجرة ناتئ من بين الأعشاب الغضة . .

يوحي المتحف بأنه معبد منفتح على نفحات من قداسة ، لكنه منحاز لوظيفته الأصلية وهي حماية الفن من الفناء وتحقيق تواصل بين البشر عن طريق الفضاءات الخدمية كالمسرح الذي يقدم حفلات موسيقية وعروضا مسرحية وصالات المؤتمرات وفضاء الأطفال التفاعلي -الاتيليه الذي يرسم فيه الصغار ويشاهدون افلاما بعد ان يزوروا المعارض الثابتة والموسمية لأعمال بول كلي ، إضافة إلى قاعة البحوث الفنية التي يقدم فيها طلبة الفنون مشاريعهم على شكل- تجهيز من افلام ومواد وتفاصيل تدخل في صميم العملية الإبداعية للاطفال والكبار ،

ويتم اقصى تحقيق للتواصل بعد الانتهاء من زيارة المعارض في قاعة المطعم ما بعد الحداثية في تصميم ديكورها واثاثها وادواتها . .

الفن هش كما يقول المهندس المعماري - واعمال بول كلي بشكل خاص - اعمال فنية هشة لانها منفذة بالوان مائية وورق تمثل عناصر قابلة للزوال ، لذا راعينا الا نعرضها للضوء الطبيعي بل نسلط على بعضها اضواء صناعية محدودة تحميها من الفناء السريع ، وبعض لوحات كلي تعرض في ممرات ذات ضوء طبيعي لفترة محدودة ثم تحفظ في قاعات ذات ضوء صناعي ضئيل .

المتأمل لبعض اعمال بول كلي يراها كما وصفها المهندس ، هشة وقابلة للزوال بخاصة اعماله التخطيطية على الورق وبعض مائياته المنفذة على ورق الصحف ، وتبدو سريعة العطب إزاء أي عارض خارجي كالضوء والمطر والعصف والحروب . . وهي بهذه الرقة والهشاشة تمثل الوجود المادي للكائنات الفانية ، تحاول إنقاذ الروح بعناصرها اللونية وتوهجات الضوء التي تخترق الذات القلقة لانسان العصر المهدد . .

المتحف المحمي من المؤثرات الخارجية ملاذ مناسب لحراسة الفن ، ومكان يتوفر على الابعاد التأملية التي تمتلك تلك النفحات السرية من القداسة والتواصل معا . . فالمتحف يتيح لزائره التمتع بعلاقة شخصية جدا مع لوحة مفضلة لديه ، اللوحة معروضة بكل غموضها وعريها وروائحها ورموزها وبوسع الزائر رؤيتها بمزاج مختلف كل مرة وبهذا يؤدي المتحف مهمته التخصيبية في تحفيز الذائقة وتحريك شهوات الإبداع لدى الزائرين المولعين بالفن . .

يقول بول كلي : «الفن لايقلد المرئي بل يخلقه ويحاول الانسان في بعض الاحيان التعبير عن الطبيعة بشكل يتفوق عليها فيقع في الخطأ ، ويفقد سحر البساطة عندما يحقق الفن بعناصر وتفاصيل كثيرة» .

ويبرز البعد الروحي في البحث التصويري لدى بول كلي متسما ببساطة الخطوط واختزال الاشكال وموشحا بالهدوء الشعري ومستغرقا في حالة من التأمل ، وكثيرا ما كتب بول كلي ورسم من اجل ان يدرك الفارق بين عملية الإبداع ذاتها وبين ذلك الشعور الغامر بالغبطة الروحية الذي يخلفه الاستمتاع بالعمل الفني . .

ومن بين اهم مصادر الإلهام لديه تلك التي تنعكس من عمق ذاته ، من ذلك الطفل الكامن في أعماقه ، لكنه لم يكتفِ بالإلهام ولم يبلغ مابلغه من كشوف في الفن إلا بعد دراسات جادة ومعمقة وسنوات من التجريب والبحث والتأمل والأسفار . . تحتفي أعمال بول كلي بما في الطبيعة من غنى وتشكلات ومخلوقات ودراما إنسانية ، تلهمه حقول القمح والطيور والأزاهير والقواقع والصخور والجبال ، ولم يتوقف عند هذا الحد بل استمد ابداعاته مما وراء الطبيعة ، رؤى عن ملائكة وتوهجات روحية وانهمارات أشكال غرائبية حلقت بأعماله إلى ذرى إبداعية متفردة . .

يقول كلي في يومياته : من الصعب اقتناص الضوء ووضعه على قماشة اللوحة ، لكنه يجد سبيله مباشرة إلى الروح ، وفي أحيان كثيرة تخطفني وتستحوذ على الطيوف اللونية . .

أول المدن التي سحرت بول كلي في تونس هي مدينة (سيدي بوسعيد) ، هناك التقى الفن بالطبيعة والذات والأشكال المربعة والدائرية واستقبله كرم الضيافة والنور في ابهى سطوعه واستطاع بناء ذاته من خلال تفاعلها مع الضوء والألوان والفن العربي وقال : (ان الضوء والألوان والظلال هي التي تربط بين البشر وتصنع العالم المرئي .) .

ومن المرحلة التونسية هناك لوحات تمتاز بغناها اللوني وبساطتها وتوفرها على رموز استمدها بول كلي من الحروف العربية والأرقام والأسهم والعلامات التي رسمت على الأبواب والجدران في المدن التونسية المتوسطية بانفتاحها الأزلي على الماء والآفاق وبغموض اسرارها الروحانية وتقاليدها اليومية .

زيوريخ التي تشبه قصيدة من ذهب

زيورخ تماثل سيدة ذات خيلاء ملكية ، تلمس فضولك بأنامل من ذهب وفن ، هي المدينة الأنثى بامتياز فتنتها ودفق الحياة فيها فهي تواجهك في اللحظة صفر من انذهالك بها وتقول بشعارها المعلن : عشها وأحبها ، عشني لتحبني ، هكذا تخاطبك شعاراتها الترويجية . .

مدينة تغويك بدفقها الثقافي ومفاجآتها الساحرة ، من لحظة الوصول إلى محطتها العريقة تبدأ آيات الفن الحداثي وما بعد الحداثي بمحاورة فضولك ، فهنا في قاعة المحطة أعمال فنية مابعد حداثية ، تجهيز ضوئي يتألق الوانا في العتمة الهشة للقاعة ، ومعرض للصور الفوتوغرافية المدهشة تقيمه جامعة زيورخ لعرض لحظات من تشكلات عضوية ، معرض علوم الحياة برؤية بصرية مبهرة ، من المحطة إلى متحف الفنون الجميلة تطل على مقاهيها المتفردة وهي تتناسى فتنة المدينة وتنغمر في لذائذ الحوار البشري وعبق القهوة والشوكولا وقراءة آخر الإصدارات من روايات وآداب أوروبا والعالم . . هاهو متحف الفنون الجميلة لكني لن اتحدث عنه فالمتحف الخارجي في الساحة الواسعة أمام المتحف الممهور بتوقيعات هنري مور والكساندر كالدر وآخرين هو الذي سحرني بالغواية الأولى . .

تطفو في الفضاء الذي يتقدم المبنى أمامنا ونحن في الكافيه المفتوح تحت الشمس ، قطعة فنية من منحوتات الفنان الاميركي

الشهير الكساندر كالدر المتحركة ، تشاكس الريح والريح تحررها من سكون العناصر فيها ، كالدر كان يقول : المتحرك في رأيي قصيدة ترقص على إيقاع الحياة المرح ومفاجآتها ، المنحوتة تتحرك فوقنا في فضاء شاسع وتحدث أجزاؤها المعدنية ايقاعا لونيا في حوار مبهم مع السحب والشمس متناغم مع الايقاع الكوني وحرية العناصر قبل احتوائها من قبل اليد البشرية ، الاحمر والاسود والابيض وقليل من الازرق الشرير كما ينعته كالدر تشكل المشهد الحركي المتغير حسب طيش الريح وسخاء المطر وتخيلاتنا النزقة لرمزية اللون والأشكال الهندسية لألعاب كالدر الشعرية ، كالدر لايعبأ بدراما الفن قدر اهتمامه بشعرية التواشج بين العناصر وبين العلم والفن ، على اسس رياضية خالصة ، حبال من فولاذ وبكرات ومفاصل للتحريك ومعادن متألقة وأخرى مصبوغة تقدم عرضا لانهائيا لمفهوم الجمال في المدى الكوني ، وما اختياره للفضاء المفتوح إلا لرغبة شعرية مكثفة وروح معاصرة ساخرة . . تحقق شهوة الرسم العابر للزمن في فضاءات المدن الكبرى وتشكل زيورخ فضاء أنموذجيا لعروض النحاتين واساطين الرسم . . في شوارعها ومبانيها وكنائسها ومسارحها . .

في كافيه المتحف طلاب فنون وكتاب وصحافيون وعشاق فنون وسيدات متأنقات ورسامون بوهيميون وموسيقيون يكونون خلاصة المشهد الحضاري لمدينة الثقافات . .

تحت منحوتة كالدر بقطعها المعدنية الملونة ورقصها الحر منحوتة ثابتة للنحات البريطاني الأشهر هنري مور ، عاشقان يتعانقان وبينهما فضاء افتراضي من اللذة والأمل والحنو الرقيق تجسده الحدود المنحنية وانسيابية الجسد الإنساني ، يحاولان ترسيخ العالم المتحرك المعرض

للغياب الذي يقترحه كالدر في لحظة الحب العابرة في حدوثها والمؤبدة في تكرارها الزمني ، نحاتان من طرفي قارتين احدهما يدحض الثبات الاستاتيكي للفن ويحرك العالم حركة عشوائية ، والاخر يرسخ العلاقة الانسانية مع الفضاء بجعل المنحوتة منسجمة ومتداخلة مع المحيط وكأنها جزء مستقر منذ الابد وسط الفراغ . .

هنري مور وكالدر يتناقضان ويتكاملان ويتعاملان مع الفضاء بعذوبة شعرية وحساسية عالية للحدوس الإنسانية والقوة الداخلية للمنحوتة لدى مور . . والحركية المباغتة والمربكة لدى كالدر الساخر ونظرته المراوغة للكون . .

الفنان السويسري الأشهر اوغستو جياكوميتي والفنان الحلمي مارك شاغال يتقاسمان نوافذ الاديرة والكنائس القوطية والجرمانية وسط زيورخ . . ومن تلك النوافذ سوف نطل على عالم فانتازي يجمع بين الأسطورة والدين .

أحزان اسطنبول

اسطنبول مدينتي العالمية المفضلة التي زرتها اربع مرات ، وعشقتها اكثر من جميع مدن عالمنا الشرقية والغربية ، هي ليست بالمدينة ولاهي بالعاصمة ولا مدينة التجارة والتاريخ والحضارات المتناحرة ، انما هي كتاب مفتوح سجل فيه ملوك بيزنطة والسلاطين الغزاة والجيوش الاغريقية القديمة كلمات عبورهم على أديمها وشطآنها الشاسعة ، اعرفها رائحة رائحة ومحطة محطة واحبها في كل زيارة اكثر من سابقتها .

البحر أو البوسفور أو المضيق يغوينا ذات مساء ، انا وصديقتي وطفلتها ورفقة من أصدقاء صادفناهم في مقهى اسطنبولي ، نوغل في غواية الماء الليلي ، ثمة سفن تمضي صعودا إلى البحر الأسود وأخرى إلى بحر مرمرة والبحر المتوسط ، البوسفور يسرق بعض ماء البحر الأسود ويهبه لبحر مرمرة الذي يتزاوج ماؤه مع المتوسط ، من غرائب ماجرى في بحر مرمرة صراع القوى الاوروبية مع تركيا لصالح روسيا في ١٩١٥ ، صراع المصالح الكبرى ، احدى الناجيات من سجن بيت الحريم العثماني روت قصة معركة غاليبولي وهي المعركة التي قتل فيها الضابط حبيب المس غرترود بيل حاكمة العراق الفعلية في سنوات العشرينيات ، منذ مائة عام جرت هذه المعركة التي اشترك فيها استراليون ونيوزيلنديون وفرنسيون وبريطانيون لاحتلال تركيا من اجل دعم روسيا القيصرية ضد المانيا ، كم في التاريخ من عجائب .؟ تروي

سيدة الحريم الارمنية الأصول قصة توروسيان وبطولته ، لعلها كانت حبيبته التي اختطفت وضمها السلطان إلى حريمه وتقول السيدة :

الاتراك أنكروا اشتراك الضابط المدفعي الارمني سركيس توروسيان وهو الذي خدم بإخلاص في الجيش العثماني وقاتل في معركة غاليبولي وفي المقابل لقي نهاية دموية ، كما تم قتل عائلته بوحشية وترحيلهم ، في موجة المجازر وعمليات الترحيل القسرية التي ارتكبتها الدولة العثمانية ضد الشعب الأرمني ، وكان والداه من بين ١,٥ مليون ضحايا الإبادة الجماعية ، بينما هلكت أخته في الصحراء السورية مع المهجرين في قوافل الموت - كم من العار في تاريخ الانسانية؟

سفن كثيرة تجول في المياه النيلية التي انعكست فيها أضواء النجوم وأنوار المدينة ، ثمة رصيف كاسر للموج ترتطم به الموجة النزقة ويصلنا نثار من أنفاسها المالحة لعلها دعوة للحرية التي تضطرب في أعماقنا شبه بركان موشك على الانفلات ، الأشجار تحتفي بالليل والنوارس تؤدي آخر استعراضات حريتها وفضولها أمامنا وتشاكس المرتحلين في الزوارق بوقاحة اعتادتها وهي تتسول القوت من المسافرين العابرين ، والرصيف البحري الزلق يهبنا رائحة الاسماك التي خادعت الصيادين ، على البعد يأتينا هدير البحر العميق ويكتمل هبوط الليل الاسطنبولي المنعش - تقترح صديقتي إخلاص ان ننهي نزهتنا في مقهى قريب يقدم الحلويات التركية التقليدية ، نمضي صعدا إلى (استقلال جادة سي) تلفنا نسائم البحر الندية وضجيج النوارس وبلبلة اللغات المتقاطعة : عرب وفرنسون واتراك ويابانيون وهنود وامريكان واسكندافيون يبحثون في اسطنبول عن اجابات شرقية لأسئلة الوجود الغربي .

المدينة التي تنام في جسد اسطنبول هي القسطنطينية وهي بيزنطة المحترقة وهي الاستانة العثمانية ، هي حلم الاباطرة وتاريخ الصراع بين الشرق والغرب ، ثمة موسيقى بيزنطية تعارض الموسيقى المولوية والانشاد الصوفي التي يسمعنا إياها اتباع مولانا الرومي في التكية المختبئة وراء أحد الفنادق في حي منسي ، ثمة روح بيزنطية تنهض من زوايا اسطنبول المنسية ، من بين حجارة السور الذي تنوح بقاياه على مجد بيزنطة الآفل ، كنيسة آيا صوفيا تصير مسجدا ويتعالى الصراع سياسيا ودينيا وعرقيا وتركيا ترنو إلى الانضمام لغرب لايريدها .

في طريقنا إلى تناول الحلوى التركية تصحبني صديقتي إلى مقهى يؤمه يساريو القرن الحادي والعشرين ، مقهى منعزل يربض في نهاية أحد الأزقه المتعرجة الصاعدة إلى مرتفع تختمه شجرة ليلك عملاقة تستقبل العابرين بزخات من زهورها البنفسجية ، نمر في طريقنا بباعة الخواتم والمسابح والعيون الزرقاء المخصصة لدرء الحسد وثمة على جانبي الزقاق النحيل فراديس من الفواكه المجففة والحلقوم التركي وعلب شاي الورد وشاي التفاح ، يؤم المقهى موسيقون ومثقفون فقراء وفنانون مشردون يعيدون أمجاد الهيبيزوالوجوديين ، وعشاق يلوذون بحميمية المكان ، تدير المقهى سيدة حازمة تطل بابتسامتها المهنية من وراء مكتب عتيق وتقابل المقهى من جانبه مكتبة تتعاطى بيع الكتب المستعملة باللغة الانكليزية والتركية ، كتبها المكدسة علاها الغبار ونسيج العناكب : أصابها وباء النسيان .

كل مافي المقهى قديم رث وبعض المقاعد محطمة تماما إلا أن رواده كانوا اكثر إنسانية وحميمية مع بعضهم من رواد المقاهي الأنيقة في شارع الاستقلال : هنا مقاعد خشبية صغيرة يمكن طيها ويصعب

تثبيتها على الأرض الصخرية الوعرة قليلا ، مصاطب خشب فرشت عليها سجاجيد عتيقة ، الصور والملصقات القديمة التي حالت ألوانها ، نفاضات السجائر المثلومة ، رائحة المكان الممتزجة بعبير الليلك والبخور والقهوة ، هناك يمكن للمرء أن يحتسي أفضل قهوة تركية ويطلب المزيد أو يشرب مايشاء ، الجلسة تحت ظلال شجرة الليلك ومن ورائها تبزغ مئذنة عتيقة وعمارة نصف متهاوية توحي بحال فناء التاريخ وخلود الطبيعة ، نصغي لعازف الغيتار وغناء الفتاة العابرة التي يغويها العزف فتقف لتغني ثم تغادر إلى مقصدها ، ثمة كحوليون مشردون ووديعون ينامون عند اطراف المقهى ويمضون ليلهم على مصاطبه التي ترحب بهم ، عازف الكمان يرتجل لحنا تركيا حزينا ويصحبه عازف الرق ، يتبادل الرواد سجائر ، ربما تكون حشيشا أو شيئا من هذا القبيل ، مكان يلغي الصورة المبهرجة لمدينة كوسموبوليتانية نصف شرقية ونصف غربية اي مدينة هجينة الهوية فهنا في هذا المقهى الوجودي يمارس المرء وجوده كما يتشهى وفق هوية انسانية واحدة ، يعزف أو يعشق أو يغفو أو يتناول شطيرة تركية شهية بثمن بخس .

أخيرا نقصد مقهى انيقا يقدم الحلويات التركية بأصناف لاتحصى ونطلب الحلوى الشهيرة التي يدعونها العاشوراء أو (العاشورية) - وقد وضعت أليف شفق طريقة صنعها في روايتها (لقيطة اسطنبول) حيث قدمتها الأخت لشقيقها حين عودته من اميركا - جربتها شخصيا والتزمت بالمقادير التي دونتها أليف شفق وقدمتها لصديقاتي عاشقات اسطنبول . . يحضر النادل المرح الكاسات البلورية متوجة بحبات الكرز الياقوتية وقطع الفستق الزمردية ، كأس من جواهر قوت الأرض تتوالى فيه مفاجآت النكهات الفريدة حتى آخر حبة قمح أو حمص أو لوز .

نتناول الفطور على سطح الطابق التاسع لفندق (CVK) الواقع على ناصية شارع (سيرا سلفيلرجادة سي) والمطل على ميدان تقسيم واسطنبول بكاملها من جهة البر الأوروبي ، غابة بلغراد والمتنزه الوطني يحتلان عمق الأفق المغبش ، تبدو المدينة محض خيال ساحر مبثوث على أطراف اوروبا ومحاط بالنوايا الغربية والشرقية كسور من الشوك غير المقدس ، نسرع في نشوة البرد الصباحي للتجوال بين حمائم ميدان تقسيم وباعة الزهور الذين تصطف حوانيتهم على عمق الساحة فتشكل متراسا للجمال ومنبعا للأشذاء ، ضجة عربة الترامواي الحمراء الوحيدة وموسيقى أرغن تنطلق من كنيسة مجاورة ونحن نطعم الحمام ويتلألأ برج (غالطا) بنوره العتيق وسط قصورها وبوسفورها ،

لم ينجح الرجل بطل قصتي «موسيقى صوفية» في فك لغز وصية الأسلاف الخرافية ليحكم اسطنبول من جديد بعد سلفه الأكبر (قسطنطين الحادي عشر) وتهاوت المرايا الثمينة المرصعة بالأحجار الكريمة وأنياب الثعابين لتتحطم وسط النيران وتنتهي معها إلى الأبد أحلام البيزنطي الأخير كما لن ينجح (رجب طيب اردوغان) اليوم في استعادة أمجاد العثمانيين وجعل مدينته مقرا للخلافة الاسلامية التي يحلم بها مع ما تحلم به بعض الأحزاب الاسلامية فلا أحد بوسعه إعادة تقاويم الزمن إلى القرون الماضيات مهما حاول الحالمون والموهومون من هواة السياسة .

أستظل بأغصان الصفصاف البابلي الذي يسميه البعض (الصفصاف الباكي) في متنزهاتها وحديقة بيت الحريم ، أميز الصفصافة العتيقة من بين أشجار الدلب والسنديان والكستناء والزيزفون ، أشجار عمرت قرونا وشهدت أحداثا مروعة من عسف

السلاطين وعمليات الرجم وقطع الرؤوس التي تتم عند الباب الأوسط بحق المارقين من موظفي السلطنة الكبار وثمة حنفية ماء قيل أن الجلاد كان يغسل سيفه في مائها بعد عمليات الاعدام التي يأمر بها السلاطين غلاظ القلوب لتدوم لهم الممالك والنساء والثروات إلى حين ، في الحرم حيث تحجر سيدات السلطنة وتحاك المكائد والدسائس بسموم وأسلحة فتاكة واستعانة بغلمان مخصيين تتناهى إلى أسماعنا صرخات مكتومة واستغاثات أنوثة ، تخبرنا المرشدة السياحية الرقيقة (دالما) التي تتحدث العربية بشيء من الزهو التركي إن بيت الحريم أو الحرم الذي كانت تسكن فيه سيدات مبجلات ومحظيات وجوارٍ مملوكات - يعني إسمه الحظر أو المنع - أقول لها يعني التحريم - تبتسم وتسرد ما لقنتها به أدبيات السياحة : (أصل فكرة الحرم آتية من الحور العين اللائي يجازى بهن ذكور أهل الجنة وقد اعتبر السلاطين بيت الحريم تطبيقا دنيويا للجنة) : بمعنى ان السلاطين يعيشون الجنة مرتين : في الحياة الدنيا وفي الآخرة! ومن هنا كانت تصدر الفرمانات السلطانية من قاعة المجلس المعزولة عن الحريم بضجيج حنفية ذهبية يفتحها الحاجب ليشوش على المتلصصين ، وفي وشوشة الماء وانهماره في حوض الذهب تُعلنُ الحروب والغزوات فتمتلىء القصور بالغنائم والسبايا وشهوات التوسع والاستبداد .

القسطنطينية وغواية السر المعتق

ستعرف آلاف الأسرار ، آلاف ، حين يظهر ذالك الوجه السري نفسه

فريد الدين العطار

حزن اسطنبول يتخفى في الضجيج مثل سر مكنون ، يدور وراء المآذن ، ويتنفس في لهاث العابرين ، ينام الحزن كحارس قديم على ضفة القرن الذهبي ، يعلو برج غلاتا مثل غمامة ، يذوب في البوسفور فيغدو طيور نوارس تتقافز على نوافذ السفن وتضرب باجنحتها وجوه الملاحين والمسافرين فيصيبهم داء الأسى . .

يقدم اورهان باموق في كتابه الجميل (اسطنبول) تفسيرات متعددة لحزن مدينته وملايين مواطنيه ويقول بأنه حزن يشكو من مزاج أسود يشترك فيه الجميع .

يصف حزنها المزمن بأنه حزن ينعكس في نفوسنا ونستغرق فيه بزهو ونتشارك فيه مع الاخرين ، وكلمة (حزن) التركية هي ذاتها كلمة (حزن) العربية لذا يلاحق باموق جذورالحزن الاسلامي ، تعبر كلمة حزن في الوجدان الاسلامي عن الخسارة والألم الروحي والأسى المصاحبين للخسائر ، لكن قراءة باموق الشخصية لموضوعة الحزن تشير إلى خطأ فلسفي صغير ظل يتطور على مر القرون في التاريخ الاسلامي

ويرى ان للحزن معنيين مختلفين فاذا كان الحزن مركزيا في ثقافة اسطنبول وشعر شعرائها وحياتها اليومية على مدار قرنين سابقين فإن الرؤية الصوفية أضفت عليه الإجلال للتعبير عن أهميته الروحية في موسيقى اسطنبول وأغانيها وهذا سر الشجن الذي تبوح به الموسيقى التركية والغناء التركي المحملين بأحزان قرنين من ضياع عظمة الدولة العثمانية وتناقص هيبتها ثم سقوطها حتى غدا الحزن أسلوبا للنظر إلى الحياة الاجتماعية والروحية لأهل اسطنبول، وليس مزاجا يعبر عنه في الموسيقى والغناء، انه حسب رؤية باموق (حالة عقلية تؤكد الحياة في النهاية مثلما تنكرها)

وكما يحمل كل انسان حزنه الشخصي بتفاوت درجاته فإن للمدن أحزانها المختلفة لكن اسطنبول تحمل حزنها باختيارها ولاتحتاج لمغادرته أو علاجه لأن سوداويتها تتجرأ وتزهو بأهميتها في حياة اسطنبول بعد سقوط السلطنة العثمانية وحتى بعد تأسيس الجمهورية ظل الحزن يعبر في الشعر التركي عن ذلك الشجن والأسى العميق المزمن الذي لايريد أحد الهرب منه أو نسيانه أو علاجه، الحزن التركي يمنح الروح التركية عمقها واختلافها ومأساويتها وينقذها في النهاية من جو الحداد الشامل الذي تتذكره الأرواح التركية المتمسكة بتقاليدها العثمانية الزائلة . .

حزن بغداد يتجسد بشكل قرين مرافق فلكل فرد توأم لامرئي متشكل من خلاصة الحزن البشري العام والحزن الشخصي وأوجاع البلاد المؤبدة .

الحزن العراقي ليس فرديا ولابَطِرا ولا سوداويا بل هو حزن منسوج مع خلايا العراقيين يتراءى مرة كتمثيل لطقس جماعي ديني أو يظهر

بشكل ندب ونواح في مناسبات الفقدان والموت ويشكل في تعدد مظاهره وسيلة سحرية خفية للدفاع عن النفس الجريحة المسحوقة الخاسرة إزاء الكوارث . .

حزن الجنوب العراقي المخمر يفوح شجنا مجروحا من الأغاني والمواويل والدارميات والابوذيات ويتقطر من مفردات الحياة اليومية وحوارات النساء وفي المدن نجده يحتل القصائد الشعبية التي تمثل باجوائها المحلية لذعة أحزاننا وكثافتها مثلما تحفل رواياتنا وقصصنا بينابيع دفاقة من الاسى فقلما نجد مشاهد مرحة أوانسانية مترفة أو ساخرة في معظم نصوصنا العراقية . .

يبرر باموق حزن اسطنبول بأن الحياة ذاتها مؤلمة وسكان اسطنبول يستسلمون لفقرهم وكآبتهم ، حزنهم مفعم بالإجلال المتحدر من الأدبيات الصوفية وما استسلام اهلها له الا احتضانا لفشلهم وهزائمهم وما أشبههم في هذا بنا فالحزن لديهم ليس نتيجة لمشاكل الحياة والخسائر ولكنه سببها الرئيسى ومنبعها الدائم . . .

مرايا أسطنبولية عن الحرية والحريم

يكتب الكاتب الصربي - البوسني إيفو اندريتش - عن اسطنبول في روايته «الفناء الملعون» فيذكر «ان السجن القديم في اسطنبول كان قريبا من البوسفور كنقطة تتوزع عندها المصائر البشرية» .

السجن المطل على الماء في اسطنبول كما تطل القلاع والقصور والأبراج - يقترح أحلاما بالحرية لسجنائه المؤبدين ، كل ليلة يربي في أعماقهم آمالا وأحلاما ويحرض في وعيهم أحلام يقظة وبذور تمرد ، البوسفور هو ذاته ممر للشغف ، شغف الإلتقاء والتباعد وتوق العبور والوصول بين قارتين فثمة في الماء طرق عدة تؤدي إلى الحرية لا تنفك تراود السجين المأسور ، الهرب سباحة عبر مضيق البوسفور المعتم أو التحرر بالموت غرقا للنجاة من موت شنيع على أيدي الجلادين أو النجاة والاستغاثة بسفن غريبة عابرة ، طرق اسطنبول للحرية كثيرة جدا سواء كانت في الماء أو البرّ فالمدينة مغوية وساحرة تحرض وتستفز العابر والزائر لتجربة الحرية في موج بحارها والمضي بعيدا في براري القارتين . .

كلما زرت اسطنبول أجدها مختلفة تتجدد وتمضي في صنع أسطورتها ، هي المدينة المراوغة الزئبقية المائلة على هوى القارات والأحزاب الاسلامية والقومية وغوايات الإتحاد الأوروبي ، تتغير كما يتغير الموج في البوسفور الذي يسرق مياه البحر الأسود ليغرقها في

أمواج بحر مرمرة ، لا تعنيني مشاهد اسطنبول السياحية التي يراها السائحون في كتب شركات السياحة والإعلانات البراقة فللسائح الاوروبي أن يتفرج ويندهش بأسوارها وقصورها ومساجدها وجسورها التي تعقد زيجة مختلطة بين القارتين ، لا أبحث في اسطنبول عن مسجد أو كنيسة ولا عن قصور تسرد قصصا عن أباطرة وسلاطين فلدينا ما يفيض عن حاجتنا منها ، لا تغويني فيها سوى رائحة البحر التي تملح المراسي وحفيف شجر السرو والدردار حين يعلو الموج مساءً ، وتأسرني أزقتها المنسية التي تطل من نوافذ بيوتها المتقشفة النظيفة وجوه سيدات ينسجن بالسنارات مفارش ودانتيلات ويرتلن أغنية عشق عتيقة على إيقاع الحنين وهمهمة العابرين ، أحب فيها التركيبة السرية للتوابل الإسطمبولية تفوح من طبق في مطعم وراء سوق (غراند بازار) حيث تسمع صفارات السفن وزعيق النوارس في مياه القرن الذهبي .

هذه المرة اكتشفت اسطنبول متمردة على ما يخططون لها ففي ضاحية أرتاكوي المطلة على البوسفور شاهدنا أول مظاهرة سلمية لشباب وشابات يحملون ورودا ولافتات ويزحمون شارع الكورنيش بأناقة تظاهرهم ، هناك كانت سيدات يعرضن أسبوعيا على منصات مؤقتة عقودا من المرجان والعقيق ويدللن قططهن الناعسة وفي مساء اليوم ذاته بدأت أولى تظاهرات ميدان تقسيم من شرفة مقهى تطل من الأعالي وارتفعت اللافتات والهتافات تستنكر سياسة الاستقطاب وشخصنة الحكم وطمس آثار أتاتورك وتطالب بالإبقاء على مركز أتاتورك الثقافي ومتنزه غيزي رافضة تحويلهما إلى مركز تجاري استثماري للقضاء على كل مايذكر بأتاتورك .

تفتح اسطنبول هذه المرة بابها لمرايا الحنين إلى زمن أتاتورك ، تفتح باباً ذهبياً تنعكس على صفائحه أيدلوجيات تتنازع وتتعارض وينتصر بعضها وينسحب الآخر ، تختلف آفاقها من عصر لعصر ، من عصورالأغريق والروما والبيزنطيين والعثمانيين حتى الجمهوريين وأنصار الخلافة الإسلامية ولا تزال الايدلوجيات تتصارع على شاطئيها : الآسيوي والأوروبي بين الأتاتوركيين والأحزاب الإسلامية وتموج تيارات السياسة كما أمواج بحر مرمرة الهادرة تهدد السفن والملاحين بالغرق وحيث لا سبيل للحفاظ على جمهورية أتاتورك إلا بالاحتجاج ورفض الأسلمة المفرطة للمدينة ولا سبيل للحوار الا بقنابل مسيلة للدموع ذرفها المحتجون وذرفناها معهم مساء ٢٥ أيار في استقلال جادة سي .

مدينة بلا براءة تحنط البراءة في متحف

«بلادي متأثرة أولا بالقيم الإسلامية وتقاليدها الخاصّة ، وفي الوقت ذاته يتملكها هذا الحنين الهائل إلى الغرب ، وهذه المتناقضات بالذات ما تزال تتحكم بتركيا حتى يومنا هذا . .»

من حوار لأورهان باموق

عندما تفقد المدن العظمى براءتها وصفاءها الطبيعي تتحول إلى متحف للقيم والأفكار والأزمنة المتهاوية ، فالمدن خاضعة لفكرة الزوال والقيامة بتغيراتها وتكرار ولادتها ، يحكمها مرور الزمان وترادف الوقائع الارضية ، بينما تنطوي بُنيتها على نواة جوهرية أقرب إلى بداهة الشعر وفانتازيات التخييل ، تتداولها الأعمال الأدبية موتيفات وترنيمات وأسرارا مباحة ومفردات يستلهمها الشعراء والروائيون ليصنعوا منها مدنهم الأخرى المترنحة بين اليوتوبيا والحلم المستحيل والانهيارات واصطناع رؤية مغايرة للمستقبل .

اسطنبول التي رأيتها في السبعينيات هي غير اسطنبول العقد الأول من القرن الحالي ، مدينة الأمس تفيض شعرا وأناشيد مولوية ونساء متأنقات وتراثا أصيلا تخمرت عناصره من تزاوج الفن الاسلامي مع الروح الأناضولية وأساطير الشرق التي تداخلت مع

البقايا البيزنطية الرومانية لتقدم لنا مزيجها السحري المغوي ، أما اليوم فقد تلاشى التراث الثمين عندما زاحمته في سوق (الغراند بازار) بضائع صينية وكورية مقلدة أزاحت التحف التراثية والمطرزات الرقيقة التي تبدعها سيدات وفتيات مدينتي قونية وبورصة وفتيات الجبال الماهرات اللائي تحولن إلى خادمات وبائعات هوى اسطنبوليات ، ضاعت البراءة الأناضولية والروح الشرقية إلاّ قليلا وغدت اسطنبول اقرب إلى مدينة أوروبية تقلد مدينة شرقية فقدت براءتها .

يصف أورهان باموق واقع حال تركيا في حوار له :

(بلادي متأثرة بالدرجة الأولى بالقيم الإسلامية وتقاليدها الخاصّة ، وفي الوقت ذاته يتملكها هذا الحنين الهائل إلى الغرب ، وهذه المتناقضات بالذات ما تزال تتحكم بتركيا - حتى يومنا هذا)

عندما كتب أورهان باموق روايته (متحف البراءة) كان ينعى تلك الملامح الاصلية الضائعة التي ميزت سنوات الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي ثم فقدتها مدينة أحلامه في خضم التحولات الاجتماعية والانقلابات والتغيرات السياسية والارتماء الكلي في الحلم الاوروبي المستحيل .

كان أورهان باموق وهو يدون فصول روايته(متحف البراءة) سنة ٢٠٠٨ يشاهد كل صباح مبنى قديما وهو يصحب صغيرته إلى المدرسة ويتمنى ان يشتريه ليحوله إلى متحف كما فعل بطل روايته (متحف البراءة) الذي جمع أشياء حبيبته من امشاط وملابس وأوراق وبطاقات سينما وأحذية وساعات وأدوات زينة وأقام متحفا لزمن الحب البريء وذكرياته ، ومن المتحف الخيالي في الرواية انبثق حلم باموك بإقامة متحف للبراءة يمثل العصر الذهبي الحديث لمدينته المفقودة يجمع فيه

الأشياء اليومية التي كانت مستعملة في عقدي الستينيات والسبعينيات : قصاصات صحف وبطاقات بريدية وحليا وثيابا وعطورا وساعات وملاحات ومفاتيح وملاعق وأفلاما وملصقات .

عمد الروائي الحالم إلى المزج بين حقيقة مدينته وبين قصته المتخيلة فقام بتقليد روايته وافتتح من ماله الخاص (متحف البراءة) ووضع في مدخل المتحف آلاف أعقاب السجائر التي افترض أن (اوسون) العاشقة دخنتها طوال السنوات الثماني التي استغرقتها قصة حبها لكمال ، شاء أورهان باموك أن تتحول اسطنبول إلى معشوقة أبدية محنطة في متحف كفعل رمزي لمحاولة الاحتفاظ بروحها الهاربة ، وهكذا افتتح متحفه عند الاحتفال باسطنبول عاصمة للثقافة الاوروبية وقام بتحويل فصول الرواية ال٨٣ إلى خزانات زجاجية تضم أشياء يومية تمثل تطورات قصة الحب التي تتماهى مع عشقه الكبير لمدينته المفقودة وتاريخها المضطرب وبذا يكون هذا المتحف أول متحف في العالم يقام استنادا إلى نص روائي ويجسده على الأرض ويستلهم أحداثه في تبويب خزائنه التي تحفظ الصور الفوتوغرافية والقمصان وزجاجات العصير والامشاط والمناديل النسائية المطرزة وأطواق الشعر والأقراط وزجاجات العطور التي اشتهرت في تلك الفترة مع مجلات كوميكس ورسومات كاركاتير وغيرها .

المتحف في حقيقته أشبه بفيلم تسجيلي عن الفناء والعذاب الذي يسببه الحب للعشاق ويفضي بهم إلى الدمار الشخصي ، دمار الحب الذي يقود إلى الجنون وموت الشغف . .

بغداد في أسطنبول

يخترق شارع بغداد أو (بغدات جادة سي) قلب القسم الآسيوي الساحر من اسطنبول ، هنا حيث لاتزال الارستقراطية الاسطنبولية تعيش في قصورها الآنيقة المحاطة بحدائق اسطورية الجمال ، شارع بغداد قلب اسطنبول الشرقية ، تستعرض فيه السيدات المترفات اناقتهن المفرطة وهن ينزهن كلابهن المدللة ، أو يمارسن رياضة المشي ، أو يتبضعن من المخازن التي تبيع اشهر الماركات الاوروبية وأغلاها ، هنا تنتهي الشوارع إلى البوسفور وتشمخ محطة قطار تاريخية في اطلالتها على البوسفور ، هي محطة حيدر باشا ، هنا في بغداد الاسطنبولية ، يحتفي الناس بالحياة طوال الليل والنهار في مقاهي الرصيف التي تتفوق على مقاهي باريس بسعتها وورودها وأناقتها الحديثة وتنوع ماتقدمه لروادها من مشروبات ساخنة : القهوة التركية وانواع شاي الورد وشاي التفاح وشاي الزنجبيل وشاي الزعفران ، هنا يقيم المطبخ الاسطنبولي مهرجان المتع ، فلا يضاهي سحر المطبخ التركي سوى المطبخ الشامي والفارسي ، تنويعات آلت اليه من زمن السلاطين ومطابخ القصور العتيقة ، حلويات معجونة بماء الورد والفستق والزعفران تثير الشهوات وتنعتق الرغبة من إسارها بعد قضمة زعفران ، مثلجات لاتضاهيها مثلجات لندن وفينا ، تتباهى اسطنبول الشرقية بتراث عظيم من العمارة التقليدية والفخامة المحتشمة والشرفات المزهرة ، تتباهى

بفتياتها الطالعات من قصص الاساطير ، برجالها المتأنقين الفخورين ، هنا حيث تتوضع بائعات الزهور الريفيات اللائي يتخذن من الارصفة الواسعة معارض لابهى الزهور البرية وزهور الزنابق والورد العطر والبنفسج والسوسن والقرنفل وزنبق الحقل والكلارديا وغيرها .

هنا في بغداد الاسطنبولية لكل شيء ثمن باهض ، فلا يؤمها سواح اوروبيون من الذين يبحثون عن قصور السلاطين والجوامع الشهيرة وأسوار القسطنطينية والبازارات المسقوفة وباعة التوابل والاعشاب ، في اسطنبول الاوروبية ثمة التكايا المولوية المصطنعة التي اقيمت لابهار السواح والتي يعارضها المتصوفة من اتباع مولانا الرومي لانها تسوق التصوف كبضاعة ، بينما ينطوي اتباع مولانا على اسرارهم في تكايا مغلقة موصدة لايخترقها فضول السواح والعابرين . .

مدينة قونية وضريح مولانا الرومي

لا رفيقَ سوى العشقِ .
طريقُ ، دونَ بدء أو نِهاية .
يدعو الرفيقُ هناكً :
ما الذي يُمهلُكَ حينَ تكونُ الحياةُ مَحفوفةً بالمخاطرِ!
. . . .
سوف يبلى الحوادثَ وهي تمضي لأسوأ
فدَع العاشقَ في كونِهِ
. . . . .
حسبتُ أني حَكَمتُ نفسي ،
فتأسّيتُ على زمانٍ قد مضى .
آخذًا في اعتباري ، شيئًا وحيدًا أعلَمُه
لستُ أدري مَن أنا .

قصدت ضريح مولانا جلال الدين الرومي في زيارة سابقة لمدينة قونية البهية وكتبت روايتي القصيرة النوفيلا (موسيقى صوفية) مستلهمة بعض احداثها من حياة سيدة باحثة في موسيقى التصوف وهي تقف على حد التماس والتباين والتضاد بين الفكر المشرقي العرفاني وبين الفلسفة الالمانية والثقافة الغربية التي يعتنقها حبيبها .

يظهر لي مسكونا بالأسى وجه (فخري توركه لي) بطل روايتي (موسيقى صوفية) سليل ملوك بيزنطة الذي يموت حرقا بطريقة مريعة ظل يخافها ويتجنبها طوال حياته ، يقضي الرجل في اللهب وهو يستحضر في ذاكرته المزحومة بأحداث التاريخ وأقوال الفلاسفة وايقاعات الموسيقى مشهد (السلطان محمد الفاتح) وهو يحرق عاصمة أسلافه ويدمر الامبراطورية البيزنطية ، كان (توركه لي) يحلم على امتداد سنوات عمره باستعادة أمجاد بيزنطة الغابرة عندما ينجح في جمع عدد من المرايا الأثرية التي سرقت من قصور أسلافه الأباطرة ويشكل من مجموعها صورة لمدينة بيزنطة تنطق بالحياة والسلطة والقوة .

الموسيقى والرقص في حضرة الرومي

كانت كلمات جلال الدين الرومي تتردد كالصدى النوراني في متحفه الذي يضم ضريحه : «حين تقبل زائرا قبري ستجد ضريحي المسقوف يرقص فلا تأتين يا أخي دونما دفٍ إلى قبري ، فليس هناك من مكان للحزين في الوليمة»

وكالصدى الذي يحدثه تدفق ماء النبع نسمع في جنبات المتحف مايقوله الرومي عن دار الحب وهي مزاره وبيته الابدي : «إن دار الحب لاتتردد فيها سوى الأنغام ، سقفها وجدرانها من أغان وأناشيد»

الرقص المولوي هو دوران روحاني مع الافلاك واندغام بالكون الأكبر ، وعبر الدوران تتجلى للدرويش صلته بالحب والتناغم مع الكائنات وبلوغ درجة «دَدَليك» وهي اعلى مراحل الدروشة المولوية . .

كنا في رحلة طويلة بالسيارة عبر الاناضول حين وصلنا قونية عصر

أحد ايام الصيف ، لاحت لنا القبة الأسطوانية المكسوة بالخزف الازرق فوق مبنى الضريح الذي يتوسط حديقة للورود ودوامة الدراويش المولوية ، زرنا المتحف والضريح حيث تتعالى في ارجائه موسيقى الناي الذي كان أليف الرومي في ليله والنهار وثمة إلى جانب الضريح خزانة كبيرة وضعوا فيها عددا من الالات الموسيقية برهانا على أهمية الموسيقى لدى مولانا الرومي ، الموسيقى وادخنة البخور وهمسات الزوار الخافتة ومنظر حديقة الورود التي تحيط بمبنى الضريح . .

وكان درويش يافع ينتبذ زاوية ويعزف على الناي وبالقرب منه ثمة شيخ يرتل شيئا من أشعار الرومي ، اقتربت ، اقتربت منهما ، وجلست ، كان الشيخ بالكاد يرى ماحوله فقد ضبب العمر بصره ، ولبث يردد وقد أدرك انني جلست أنصت لأنشودته العرفانية :

هل تذكر ماقلت لك؟؟ قلت لاتذهب لأني صاحبك
وفي سراب هذا العالم أنا ينبوع الحياة
حتى لو غادرتني غاضبا ولبثت بعيدا لآلاف السنوات
فسوف تعود إلي لأنني أنا غايتك

غادرت قونية وفي الروح تتردد تراتيل مولانا ، وقد علقت بثيابي اشذاء البخور وبعض قش من حديقة الورد ، وانبثقت من كل هذا قصتي الأثيرة :

(موسيقى صوفية) . .

في مساء قونية يحل الغسق البنفسجي على القبة المخروطية لضريح مولانا الرومي فتنبثق وهجات زرقاء من القيشاني المخضر ، وتلتمع الأهلة الذهبية فوق قباب جامع علاء الدين ، ثمة سر لايمكن اكتشافه في سحر قونية المدينة الجميلة بمتنزهاتها الخضراء وتلالها

ومنائرها ، وتتمركز الحياة فيها حول ضريح الرومي وجامعة الرومي ومركزه الثقافي ، كل الشوارع تشير إليه ، كل التحف المباعة هيئات لدراويش من السيراميك واغطية رأس تماثل اغطية رأس الدراويش ، وفي متحف الرومي عشرات النايات المقدودة والقصب وعشرات الدفوف والالات الموسيقية الاخرى ، كل حدائق الورود تؤدي اليه ، يأخذنا عبير زهور الخزامى إلى اقصر الطرق المفضية إلى مسجد مولانا . .

رجل الحلم في حضرة مولانا

هناك أمام حضرة مولانا تراءى لي في هيأة أحد الدراويش رجل الحلم ، كان مأخوذا بسحر الناي الذي يعزفه درويش شاب ، تراءى لي مرة اخرى وانا أطوف المتحف وانصت لعزف على البزق والدف ، كنت في نشوة علوية كالوجد ، هائمة في عالم نوراني بينما العالم الأرضي يطبق على أرواح العابرين في برزخ الوجود ، هنا تقف الأبدية خاشعة امام أنين الناي وأبيات الرومي العذبة ويتوقف الزمن فأراني أنا الناي وانا النور وشجر الدلب وحديقة الورود التي تنطق بتلاوين الجمال التي عشقها الرومي ، ثمة صدع في الزمن يقترح تخوما لامرئية بين الرومي وعشاقه وبين الشارع الارضي بمساوماته وخدعه واكاذيبه وفسقه ، ثمة صدع هائل مغمور بالنور الوردي المصفر وكل شيء يبدو ذائبا ومتلاشيا فاقدا لصلابة المادة ، لاح لي وجه رجل الحلم وتوقف عزف الناي وادركت انني المس حرير الرؤيا ، واقف في جزيرة زمنية من السعادة والبراءة الاولى ، هاهو الرجل الذي استبد بأحلامي يعدني بحياة أخرى ، بوجود سابق لوجودي أو لاحق له ، ليس له أدنى وشيجة بالحاضر ، هاهو يحطم الغشاء الرقيق للحلم ويبدو واقعيا لبرهة خارقة ، تلك اللحظة ادركت كم هو الزمن ثمين في حلم الحب ، فأنا بين يدي اهوائي أغدو انا ، وعندما يكتنفني الجمال النوراني أتشربه وأغدو مثل وردة الجوري الصفراء افوح بعبير الشاي وانعكاس الشمس ، تعبرني

اسراب السنونو وتخترقني الشهب الوامضة ، هنا شخصت ببصري إلى الشموع الموقدة في الضريح ، لكن الزمان المتوقف بدأ يتماوج ويشف وينهمر مثل وابل من نجوم على كل ماحولي ، تختفي حلقة الدراويش كمثل رؤيا عابرة ، ابقى شاخصة إلى هيأة رجل الحلم ، ادنو منه ، اقترب أكثر ، اسمع انين الناي من جديد :

هل تذكر ماقلت لك؟؟ قلت لاتذهب لأني صاحبك

وفي سراب هذا العالم أنا ينبوع الحياة

حتى لو غادرتني غاضبا ولبثت بعيدا لآلاف السنوات

فسوف تعود إلي لأنني أنا غايتك . .

سوف تؤوب إلى لانني أنا غايتك

أعمال لطفية الدليمي

١- ممر إلى أحزان الرجال - قصص - بغداد - ١٩٧٠ .
٢- البشارة- قصص - بغداد - ١٩٧٥ .
٣ - التمثال - قصص -بغداد - ١٩٧٧ .
٤ - اذا كنت تحب - قصص- بغداد -١٩٨٠ - -طبعة ثانية المدى ٢٠١٥ .
٥-عالم النساء الوحيدات - رواية وقصص -بغداد- ١٩٨٦- طبعة ثانية دار المدى -٢٠١٣ .
٦- من يرث الفردوس - رواية-الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة- ١٩٨٩ طبعة ثانية دار المدى ٢٠١٤ .
٧- بذور النار - رواية - بغداد - ١٩٨٨ .
٨- موسيقى صوفية- قصص- بغداد جائزة القصة العراقية ٢٠٠٤- طبعة ثانية ٢٠١٣ دار المدى بغداد .
٩- في المغلق والمفتوح- مقالات جمالية .
-١٠ مالم يقله الرواة- قصص -الاردن -دار ازمنة- ١٩٩٩ .
١١-- شريكات المصير الابدى-دراسة عن المراة المبدعة فى حضارات العراق القديمة-دار عشتار- القاهرة-١٩٩٩طبعة ثانية دار المدى ٢٠١٣ بغداد .
١٢- خسوف برهان الكتبى-رواية- .
١٣- الساعة السبعون-نصوص-بغداد - ٢٠٠٠ - .
١٤-ضحكة اليورانيوم- رواية- ٢٠٠١ - .
١٥- برتقال سمية - قصص- ٢٠٠٢- بغداد- .

١٦- حديقة حياة- رواية .

١٧- يوميات المدن - ٢٠٠٩ -دار فضاءات -الاردن .

١٨- كتاب العودة إلى الطبيعة -بغداد ١٩٨٩ .

١٩- رواية (سيدات زحل) ٢٠٠٩ دار فضاءات - الاردن طبعة ثانية دار فضاءات ٢٠١٢ طبعة ثالثة ٢٠١٤ .

٢٠- كتاب كوميكس باللغة الاسبانية بعنوان (بيت البابلي) مستل من فصول روايتي سيدات زحل - ٢٠١٣ دار نورما - مدريد .

٢١- مسرات النساء قصص -دار المدى -٢٠١٥ .

٢٢- قصص اذا كنت تحب -دار لمدى ٢٠١٥ .

في الترجمة عن الإنجليزية

٢٣ -بلاد الثلوج-رواية- ياسوناري كواباتا- دار المامون - بغداد ١٩٨٥- طبعة ثانية دار المدى ٢٠١٣ .

٢٤ --ضوء نهار مشرق- رواية- انيتا ديساى- دار المامون -بغداد١٩٨٩- طبعة ثانية دار المدى ٢٠١٢ .

٢٥- من يوميات انابيس نن- دار ازمنة - الاردن-١٩٩٩- طبعة ثانية -دار المدى ٢٠١٣ .

٢٦ -شجرة الكاميليا- قصص عالمية-بغداد ٢٠٠ .

٢٧- كتاب أصوات الرواية ترجمة لحوارات مع نخبة من الروائيات والروائيين - صدر الجزء الأول مع مجلة دبي الثقافية حزيران ٢٠١٥ .

٢٨- اصوات الرواية الجزء الثاني يصدر صيف ٢٠١٥ .

٢٩- حلم غاية ما - ترجمة لسيرة حياة كولن ويلسون يصدر صيف ٢٠١٥ عن دار المدى .

٣٠- كتاب : الأدب في مسارات الفلسفة والحياة - قيد النشر .

الأعمال الدرامية

٣١- مسرحية الليالى السومرية- نالت جائزة افضل نص يستلهم التراث السومرى- قراءة مغايرة للمحمة كلكامش

٣٢-مسرحية الشبيه الاخير-١٩٩٥ .

٣٣-مسرحية الكرة الحمراء ١٩٩٧ .

٣٤ - - مسرحية قمر اور .

٣٥- مسرحية شبح كلكامش .

٣٦--مسلسل تاريخي عن الحضارة البابلية بـ٣٠ ساعة .

٣٧ -سيناريو صدى حضارة عن الموسيقى في الحضارة الرافدينية .

الدراسات

٣٨- جدل الانوثة فى الاسطورة- نفى الانثى من الذاكرة .

٣٩ - كتابات في موضوعة المراة والحرية . .

٤٠- دراسات فى مشكلات الثقافة العراقية الراهنة . .

٤١ - اللغة متن السجال العنيف بين النساء والرجال _لغة للنساء في سومر القديمة . .

٤٢-صورة المراة العربية فى الاعلام المعاصر .

٤٣ دراسات في واقع المراة العراقية خلال.العقود السابقة وبعد الاحتلال .

٤٤- دراسات في حرية المرأة اعداد وتحرير وتقديم - مركز شبعاد ٢٠٠٤بغداد .

٤٥- كتاب اوضاع المراة العراقية في ظل العنف بانواعه وعنف الاحتلال -اعداد وتحرير وتقديم ٢٠٠٥ .

٤٦- مختارات من القصة العراقية - ترجم إلى الانكليزية والاسبانية - تحرير وتقديم - دار المأمون .

المحتويات



مدني وأهوائي

جولات في مدن العالم

لطفية الدليمي

M Y C I T I E S A N D F A N C I E S

بلغة أنيقة وفياضة بالشاعرية كتبت هذه اليوميات عن رحلات وجولات قامت بها الكاتبة في عشرات مدن العالم عبر زمن مديد.

يوميات عن رحلات من العراق إلى دمشق فبيروت فالاسكندرية فالقاهرة، فمدن المغرب العربي، مروراً باسطنبول وطهران وصولاً إلى مدن أوروبا؛ باريس ولندن وبرلين وغيرها من عواصم العالم ومدنه الزاهرة. وخلال رحلاتها تبدو الكاتبة ميالة إلى وصف يبعث في الأشياء أنوارها الخفية، ويستكشف فيها أبعادها اللامرئية، فتنطق الأمكنة بما تكتنزه من أسرار، وتحدث بما لا تبوح به من أسرار الجمال إلا لعاشق خبير بالجمال وعاشق للمعرفة.

من هنا نجد الكاتبة تستنطق في المدينة وعند كل زاوية منها زمنا من أزمنتها، وصوتا من أصواتها، وعلما من أعلامها، ومبدعا من مبدعيها، حتى لتصبح الأمكنة مقرونة بالفن والأدب أكثر منها مقرونة بصناعات أهل السياسة والسيطرة والنجاحات الزائفة. فالجمال هو الحاكم في مدن هذه اليوميات. فها هن نساء دمشق في نظرها أميرات وملكات أنوثة وثقافة وجمال في كل ما يصدر عنهن. وها هي الموسيقى في زواج فيغارو توهج الرحلة في بودابست، وتطلق في نفس الكاتبة مكنوناتها الغامضة وجمالها الآسر. وها هي السوناتات الشيكسبيرية تقود الكاتبة إلى غرفة نوم الشاعر لترى سريره صغيراً اشبه بسرير طفل. وتتداعى إلى مخيلتها وذاكرتها وهي ترى النيل صور دجلة، لكنها تستحضر صورا للقاهرة في الأدب.

يوميات بارعة تعكس ثقافة صاحبتها وذوقها الأدبي الرفيع وشغفها الخاص بالأمكنة، استحقت عنها جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة ■

ارتياد الآفاق







ISBN 978-614-419-751-6
9 786144 197516